جفري ماركس ووليم بيتي

ذوات الرداء الأبيض

ترجمة نوال السعداوي

ذوات الرداء الأبيض

تأليف
جفري ماركس ووليم بيتي

ترجمة
نوال السعداوي

هنـــداوي

ذوات الرداء الأبيض

جفري ماركس
ووليم بيتي

Women in White

Geoffrey Marks
and William K. Beatty

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٧ ٠٠ ٣٤٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٢.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٧٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيدة الدكتورة نوال السعداوي.

المحتويات

ثمن الكتابة	٧
الإهداء	١٣
مجموعة من الصور	١٥
القسم الأول: من الآلهة إلى القابلات	٣١
١- الأطباء القدامى	٣٣
٢- النساء الممارسات في العصور الوسطى	٤١
٣- علم التوليد	٥٣
القسم الثاني: النضال في سبيل حقوق النساء في الطب	٦٥
٤- الدكتورة باري	٦٧
٥- الخطوات الأولى: دكتورة هنت، دكتورة فولجر، دكتورة كلارك	٧١
٦- إليزابث بلاكويل	٧٧
٧- إليزابث جاريت أندرسون	٨٩
٨- المعركة من أجل الاعتراف بمكانة الطب النسوي في الولايات المتحدة	٩٩
٩- التقدم صوب المساواة في الخارج	١٠٧
١٠- ماري بوتنام جاكوبي	١١٣
١١- إميلي دننج بارنجر	١١٩
١٢- أليس هاملتون	١٢٩

القسم الثالث: نساء في الميادين ذات الصلة ١٣٥
١٣- التمريض ١٣٧
١٤- فلورانس نايتنجيل ١٤٧
١٥- دوروثيا لند ديكس ١٥٩
١٦- جين آدمز ١٧١
١٧- ماري كوري ١٧٩
ختام ١٩٥
ملاحظات ١٩٩

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدت وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحت أقل حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدق بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّة ورثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وأنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التنهدات، نساء ورجال من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، امال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو.

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.

– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟

– إيه يا حاج!

وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.

– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطُّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.

– كم عمرك؟

– مش فاكرة.

– مش معقولة انتي.

– انتي اللي مش معقولة.

– ازاي؟

– إيه يهمك من عمري؟
– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
– ليه؟
– مش عارفة.

(انتهت المقدمة)[١]

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

[١] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

الإهداء

إلى رائدات الطب في كل مكان،
وإلى المرأة، نصف البشرية، في عالم المرأة العالمي؛
نُهدي هذا الكتاب، تحية تقدير وإعجاب.

دار المعارف بمصر

مجموعة من الصور

«هيجييا» ابنة أسكولاب وإلهة الصحة.

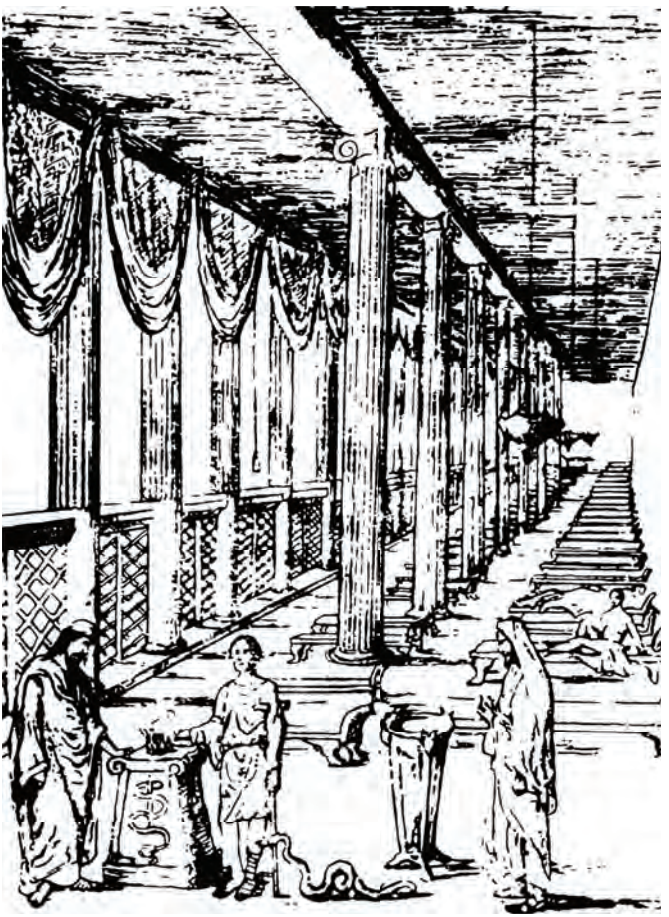

مستشفى أسكولاب في أبيداوروس وقد ظهر فيه الثعبان المقدس.

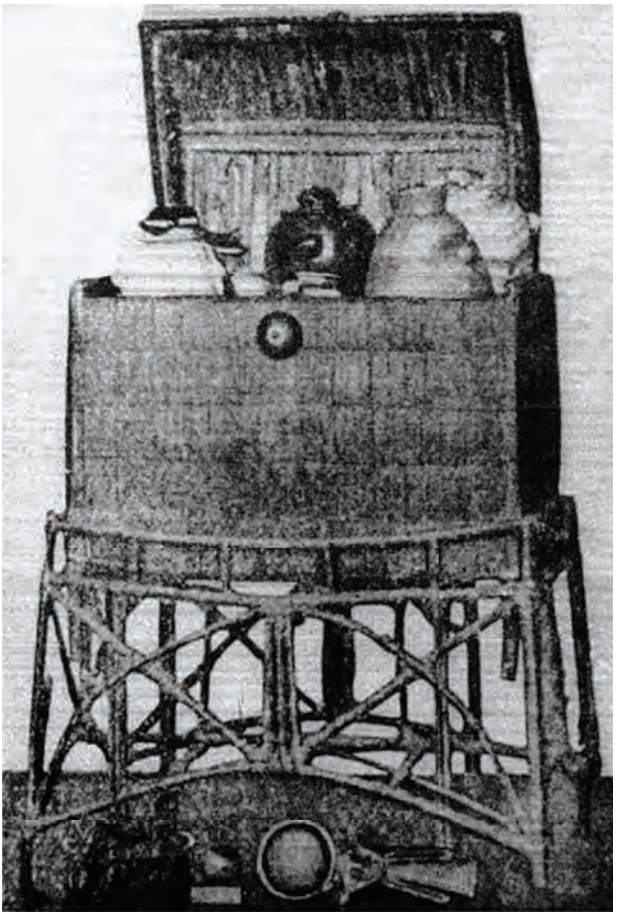

صوان لحفظ الأدوية كانت تستعمله الملكة المصرية «منتوحوتب».

امرأة اسمها «أجنوديس» (٣٠٠ق.م.) مارست مهنة الطب وهي مُتنكرة في هيئة رجل، واكتسبت بعدها حق ممارسة الطب وهي مُرتديةٌ ملابس النساء.

«تروتولا» أول امرأة برزت في تدريس الطب في العصر المسيحي.

«هيلد جارد أوف بنجن» إحدى النساء الرائدات الممارسات.

«لويز بورجوا» قابلة ولَّدت ملكات ونساءً فقيرات (١٦٠٠م).

«ماري لويز لاشابيل» كانت من أعظم القوابل، باشرت ووصفت ٤٠٠٠٠ حالة ولادة (١٨٠٠م).

الدكتور جيمس باري المُتنكر العسكري.

الدكتورة «إليزابث بلاكويل»، وهي من رائدات طالبات الطب وبطلة النساء فيه.

الدكتورة «إميلي بلاكويل» إحدى رائدات تدريس الطب وإخصائيات الإدارة الطبية.

الدكتورة «زاك»، «ماري زاكرزوسكا»، قابلةٌ سافرت إلى الولايات المتحدة للحصول على درجة بكالوريوس الطب.

عيادة نيويورك للنساء والأطفال، قامت بتأسيسها وتمويلها وإدارتها كلٌّ من «إليزابث وإميلي بلاكويل» و«ماري زاكرزوسكا».

الدكتورة «إليزابث جاريت آندرسون» رائدة فتحت أبواب مهنة الطب أمام النساء الإنجليزيات.

الدكتورة «آن برستون»، عضو في أول دفعة خريجي الطب من النساء، أصبحت فيما بعدُ عميدة كلية طب النساء بولاية بنسلفانيا الأمريكية.

الدكتورة «صوفيا جكس بليك» أولى المكافحات الإنجليزيات للحصول على حقوق المرأة في ممارسة مهنة الطب.

«أنا مولاندي مهزوليني» أدخلت طُرقًا جديدة في تدريس التشريح.

الدكتورة «ماري بوتنام جاكوبي» قضت على سوء الظن بقدرة النساء في جامعة باريس.

المدرج الكبير في كلية الجِراحة بجامعة باريس.

الدكتورة «إميلي داننج» أول طبيبة جرَّاحية في خدمة نقَّالات الإسعاف وهي جالسة في إحدى العربات أمام مستشفى «جوفرنور».

الدكتورة «أليس هاملتون» من النساء المكافحات والمتطوعات لخدمة الإنسانية في مجال الطب الصناعي.

«فلورانس نايتنجيل» من المشتغلات بالسياسة والإدارة والتمريض.

«دوروفيا لينـد دكس» بَطلة طب الأمراض العقلية.

مستشفى الأمراض العقلية في هاريسبرج بولاية بنسلفانيا، وهو أحد الأعمال التي حقَّقتها الدكتورة «دوروفيا دكس» أثناء كفاحها الطويل.

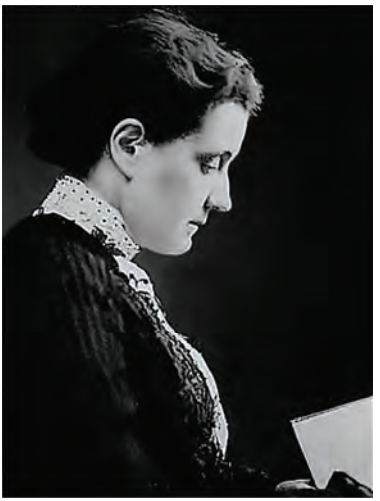

«جين آدمز» مؤسِّسة «هل هاوس».

«ماري كوري» التي أدَّى دأبها وكفاحها الطويل إلى اكتشاف الراديوم.

القسم الأول

من الآلهة إلى القابلات

الفصل الأول

الأطباء القدامى

حقيقيون وأسطوريون

«أُقسم بأبولو الطبيب، وأسكولاب وهيجييا وبناسيا، وجميع الأرباب والربَّات.» هذا هو مستهلُّ قَسَم أبقراط المعتاد الذي كان يُؤدِّيه الأطبَّاء عندما يدخلون مهنة الطب.[1] وفي الأساطير اليونانية كان لأبولو، وهو ابن «زيوس»، أدوارٌ كثيرة؛ فقد كان إله النور والصدق والقانون، والربَّ الراميَ بالسِّهام، يقذف بها مُميتةً ضد قُوى الشر، وكان أيضًا الطبيب المُحسِن الذي يقوم — عن طريق عرَّافته في دلفي — بالوساطة بين الإنسان وآلهته.

أسكولاب

تُحكى عن أصل أسكولاب رواياتٌ شتَّى؛ فبعض الأساطير المُبكِّرة تزعم أنه نِصف إله، وتزعم أخرى أنه كان بشرًا فانيًا، وتتَّفق معظمها على أنه ابن «أبولو»، وأن أمه هي الفتاة كورونيس التي كانت — بحسب رواية هزيود الشاعر اليوناني في القرن ٨ق.م. — ابنة أحد الملوك. والمعتقَد عمومًا أن أسكولاب قامت بإخراجه من بطن أمه كبيرة قابلات الآلهة، أبليثيا، حوالَي سنة ١٣٠٠ق.م. فوق جبل تيثيون المُطلِّ على أبيداوروس في جنوبيِّ بلاد اليونان، وإن كان مُؤرِّخ الفن العصري الهولندي الجنسية ج. سكوتن يتحدث عن «عملٍ فذٍّ لأبولو عند وضع الطفل أسكلبياس بالطريقة القيصرية؛ أي بعمليةٍ جِراحية».[2]

وسواء كانت كورونيس غير مُخلِصة لأبولو — ومن ثَم قتلتها أرتميس أخته التوءَم — أو كان أبولو نفسه قد قتل كورونيس عرَضًا، أو أنها فرَّت مع بشرٍ فانٍ آخَر، فهي

— على كل حال — قد اختفى ذِكرها من الأساطير، وسلَّم أبولو الطفل الوليد إلى خيرون لتربيته، وهو طبيبٌ أسطوري مشهور بمعرفته بالأعشاب.

وحتى مكان ولادة أسكولاب فهو غير مُحقَّق بالتأكيد؛ فالشاعر اليوناني هوميروس (الذي عاش حوالَي ٨٥٠ قبل الميلاد) يجعله في تساليا بشمال اليونان. وكان يعدُّ أسكولاب بشرًا فانيًا؛ فهو «الطبيب الذي لا عيب فيه». وقال عن ابنَيه إنهما «طبيبان طيِّبان خيِّران، وهما ماخاءون وبودواليريوس»، وقد خدما في الجيش اليوناني في زمن تدمير طروادة حوالَي سنة ١٢٠٠ق.م.[3] وقال أيضًا سترابو الجغرافي اليوناني (٦٣ق.م.–٢٤م (؟)) إن مَسقط رأس أسكولاب هو تساليا في تريكا، موضع أول هيكل أُقيمَ لتكريم أسكولاب. وفي أزمنةٍ لاحقة اتَّجه الظن إلى أنه وُلِد في أبيداوروس حيث تركَّزت الديانة الأسكولابية في أفخم وأشهر مَعبد من بين مائتَي مَعبد أقيمت لعبادته في أرجاء العالم الإغريقي.

ولعل حقيقة الأمر أن أسكولاب كان رئيس عشيرة أو أميرًا لتساليا، وتَعلَّم الطب وتَدرَّب عليه. وأيًّا كان أصله وتاريخه الباكر فقد كان لأسكولاب وزوجته أبيوني ابنتان، هما هيجييا وبناسيا.

هيجييا وبناسيا

ابنتا أسكولاب تعيشان معنا حتى اليوم؛ هيجييا تعيش في لفظ «هايجين» في اللغة الإنجليزية؛ بمعنى اتِّباع النظافة لحفظ الصحة.

وتعيش بناسيا في لفظ بهذا النطق يعني دواء كل داء. وكما قالت الدكتورة «كيت كامبل هيردميد»، وهي حُجة أمريكية في النساء في عالم الطب: «يكتفي هوميروس بذِكر ابنَي أسكولاب باعتبارهما كانا يضمدان الجِراح في معركة طروادة، ولكن اسمَي البنتَين باتا من الألفاظ المألوفة فيما يتعلق بالوقاية من المرض.»[4]

ولا تَذكُر المصادرُ المعترَف بها إلا القليل عن أنشطة بناسيا. أما هيجييا فأكثر من اسمٍ باقٍ في الذاكرة؛ فاليونان الذين كانوا يؤمنون بقدرة الطبيعة الشافية وممارسة الاحتياطات الصحية، أقاموا لها مئات التماثيل، وكثيرٌ منها يُمثِّل فتاةً جميلة تُطعِم ثعبانًا من طبق به طعامٌ تحمله في يدها، وهناك تماثيل أخرى لا تُصوِّرها وحدها — وهو شيءٌ نادر بالنسبة لإلهة — إذ تُرى قائمةً بالعلاج تحت إشراف أبيها، أو تُرى حاملةً عصاها الطبية الخاصة، أو حاملةً سلة من الأعشاب الطبية إلى مَرضاها، وأحيانًا تُرى وهي تُعنى بأطفال في أقمطة. وهناك لوحةٌ نذرية من أزمير بتركيا تُصور امرأةً تكشف عن صدرها

المُصاب بالسرطان لهيجييا. وسواء أكانت إلهة أو فانيةً موهوبة (ومن المعقول أن نراها تُشارك هذا الوضع الأخير أباها أسكولاب رئيس عشيرة تساليا) فمن المتَّفَق عليه عمومًا أنها عملت طبيبةً مُمارسة.

وهناك رأيٌ مُخالف يعرضه الجرَّاح الأمريكي ولتر إديسون جين: «إن أفراد عائلة أسكولاب وذريته قد كرَّسوا أنفسهم للمعالجة، أو كانوا يعدونها امتيازًا خاصًّا بهم، وكانوا يُنشئون المزارات ويخدمون في هياكل البطل الإله، وكانت القرابين تُقدَّم لزوجته إبيوني في أبيداوروس.» في حين كانت ابنتاه تخدمانه وتُساعدانه في الطقوس وتُعنَيان بالمرضى. ولم تكُن هيجييا مُداوية، بل كانت تُمثِّل الصحة أيضًا، وكانت تُعاوِن في استقبال المُتوسِّلين وتُعنى بالثعابين المُقدَّسة. والأساطير التي تتعلق بها تُوحي بأن النمو الباكر لتقديسها وعبادتها بمَعزل عن عبادة أسكولاب. وكانت بناكيا مُداوية بالتأكيد؛ فهي التجسيد للقدرة على المُداواة الكاملة عن طريق الأعشاب، وتُمثِّل قدرة الإله الكاملة في فنه.[5]

الثعبان رمزًا للإبراء

وقد يكون عسيرًا أن نُعلِّق قيمةً علاجية على الحيَّة التي أغرَت المرأة بأكل ثمرة الشجرة، ولكن موسى في البَرِّية — بِناءً على أمر الرب — رفع حيَّة من النحاس على عمود، و«إذا كان ثعبان قد عضَّ إنسانًا فإنه إذا ما رأى ثعبان النحاس يَبرأ» (أعداد ٢١: ٩). وتنسب الأساطير الإغريقية للثعبان قدراتٍ سِحريةً مُقترنة بالتنبؤ والأحلام والشفاء. وقال الإغريق أيضًا إن الآلهة يظهرون على الأرض في صورة ثعابين، وكانوا — مثل قدماء المصريين وأهل كريت والهندوس — يُمجِّدون الثعبان باعتباره رفيق الآلهة.

وفي الأزمنة القديمة كان نوعٌ من الثعابين الصفراء غير الضارَّة — وقد انقرض الآن هذا النوع — يعيش مُزدهرًا في منطقة أبيداوروس، وكانت هذه الزواحف أليفة تمامًا ومُدرَّبة على لعق الأجزاء المُصابة من جسم المريض؛ ولذا كانت هذه الثعابين مُعتادة على أن يتناولها الناس بأيديهم، والمريض الذي يُطعِمها الكعك كان يُعَد فألًا حسنًا له أن تدنوَ منه الثعابين.

وفي سنة ٢٩٣ق.م. — عندما تفشَّى الطاعون في روما — طلب أهاليها أن تَفِد عليهم بعثةٌ من معبد أسكولاب في أبيداوروس. وبينما كانت السفينة التي تُقلُّ هذه البعثة صاعدةً في نهر التيبر، تَسلَّل ثعبان من فوق ظهرها وسبَح إلى الشاطئ. وبلغ من إيمان الناس

بقدرة الثعابين المُقدَّسة على الشفاء أنهم أقاموا معبدًا لأسكولاب في الموضع الذي صعِد فيه الثعبان إلى البَر.

وقد اتَّفقت جميع المصادر على أن ابنتَي أسكولاب كانتا تُطعِمان الثعابين، وأسكولاب نفسه قلَّما صوَّروه بغير قضيب قد الْتفَّ حوله ثعبان. والواقع أن العِصيَّ التي تلتفُّ حولها الثعابين ذات تاريخ سابق على أسكولاب بكثير، وصولجان هرمس (إله الطب) — الذي هو الرمز العصري للطب — عبارة عن قضيبٍ يلتفُّ حوله ثعبانان (وكثيرًا ما يخلطون بينه وبين الرمز الأسكولابي)، وهو يقترن في الواقع بعطارد (الذي هو هرمس عند الإغريق) رسول الآلهة، ولكن القضيب الذي يلتفُّ حوله ثعبانٌ واحد (وهو قضيب أسكولاب) أجدر من قضيب هرمس (أو عطارد) المزدوج الثعابين بأن يكون الرمز الحقيقيَّ للطب.

والمُعتقَد أن صولجان هرمس كان — في الأصل — رمزًا أشوريًّا بابليًّا، «يُمثِّل إلهًا له وظائف، من بينها وظائف طبية»، ثم انتقل من الحضارة القديمة إلى حضارة الإغريق والرومان.[6]

وفي مصر القديمة كان الثعبان المفرد — فيما يبدو — رمزًا لنفحة الحياة والسلطان، بينما يرتبط الثعبان المفرد غالبًا بالخصوبة.[7]

وقد ذهب سكوتين إلى أن صولجان هرمس لم يُتَّخذ رمزًا للطب إلا في عهد النهضة، حينما أصبح الصيادلة والكيميائيون مُهتمِّين بالكيمياء، وهي علمٌ مرتبط بعطارد الكوكب وعطارد الإله معًا، وبالمَعدِن الذي سُمِّي باسمه (وهو الزئبق الفلسفي)؛ «إذ كانت مجالات الصيدلة والكيمياء والطب مُتداخلة معًا إلى حدٍّ كبير — في القرنَين ١٦ و١٧ — وهكذا أصبح صولجان هرمس، المنسوب إلى عطارد، «شعارًا طبيًّا صيدليًّا».»[8]

نساء العالم القديم

المُدوَّنات عن ممارسة النساء للطب في الأزمنة القديمة قليلة جدًّا، وقد شاركَت في ذلك عوامل كثيرة، منها ضياع المخطوطات واحتراق المكتبات، والكتبُ والمُدوَّنات التي وصَلَتنا كان يقوم بنسخها الكُتاب أو الرُّهبان بشيء من التحريف أو الأخطاء، ومع هذا بقِيَت لدينا دلائل كافية من المصادر الأدبية والأثرية يُمكِننا أن نستخلص منها نتائج مقبولة.

في العصرَين الحجري والبرونزي كانت هناك نساء جرَّاحات في سومر ومصر وبلاد الإغريق يستخدمن إزميلًا من الصوان، وثقابات من العِصي لشفاء الصداع. وقدماء الأزتك (الذين تتخذ إلهة الشفاء لديهم صورة الثعبان) والهنود الأمريكيون وسكان جُزُر

المحيط الهادي وقبائل الغابات الأفريقية، كانوا جميعًا يستخدمون نساءً مُعالِجات. وكان الصينيون والسياميون يستخدمون النساء في مستشفياتهم بصفة جرَّاحات ومُولِّدات قبل سنة ١٠٠٠ق.م.

وفي مصر يُقال إن أول طبيبة مارسَت المهنة كانت حوالَي سنة ٢٧٣٠ق.م. وكان لمِلكات مصر السبق في المسائل الطبية؛ فمن أمنحتب (٢٣٠٠ق.م.) إلى حتشبسوت (١٥٠٠ق.م.) إلى كليوباترا (٦٩–٣٠ق.م.) كانت النساء الحاكمات في كثير من الأحيان طالبات طب. ومدرسة الطب في هليوبوليس كانت تَرْتادها طالبات منذ سنة ١٥٠٠ق.م. ويُقال إن زوجة موسى — واسمها صافورة (١٢٠٠ق.م.) — درَسَت هناك. جاء في التوراة (سِفر الخروج ٤: ٢٥) أنها «أخذت حجرًا حادًّا وقطعت به غُرلة ابنها». ويُعَد ذلك دليلًا على أنها كانت تُمارِس خِتان الأطفال.

كانت أمراض النساء وما يتعلق بها من جِراحة وعلاج وفن القِبالة، من العلوم التي دُرِّست في المدرسة الطبية النسائية الموجودة بمعبد سايس الواقع بالقرب من مَصبِّ فرع رشيد. وفي معبد سايس كتابةٌ هذا نصها: «لقد أتيت من مدرسة طب هليوبوليس، ودرست في مدرسة النساء بسايس، حيث علَّمتني الأمهات المُقدَّسات كيف أشفي الأمراض.» وتقول الدكتورة هيردميد إن هذا يدل بوضوح على أن الطبيبات كنَّ أستاذات في سايس، ويَقُمن بتعليم التلميذات من جميع أنحاء العالم القديم.[9]

ويُقال إن هيلين الطروادية درَسَت الطب في مصر على يد «بوليدامنا»، وهي زوجة شخص إغريقي اسمه «تونيس». ويبدو أن هيلين تعلَّمَت الاستخدام الطبيَّ لشراب السلوان، وهو العقار الذي كان يستخدمه الأقدمون لإخماد الألم والأحزان؛ فكانت «هيلين ذات الوجه الذي سيَّر في اليم ألف سفينة»[10] تستخدم الأشربة لتُسمِّم أعداءها ولتُداويَ أصدقاءها.

وفي بلاد الإغريق يبدو أن صناعة القبالة كانت برُمَّتها في يد النساء. ويُمكِن أيضًا استنتاج ممارسة النساء للطب من أن الطبيبات حوالَي سنة ٣٠٠ق.م. اتُّهِمن بإجراء عمليات الإجهاض؛ ولذلك مُنِعن نهائيًّا من ممارسة الطب. ويبدو أن نشاطهن لم يكُن مقصورًا على حجرات الولادة.

وحطَّمَت هذا الحظرَ «أجنوديس» تلميذة هيروفيلوس الخلقدوني (٣٠٠ق.م.)، فاتَّخذت زي الرجال، وكانت لها حظوةٌ عظيمة لدى النساء المريضات. ولما كُشِف أمرها ودُعيَت للمُثول أمام المحكمة لمزاولتها الطب بطريق التظاهر الخادع بأنها رجل،

دافعَت عنها نساء أثينا دفاعًا حارًّا وقُلن للقضاة: «لستم أزواجنا، بل أنتم عداتنا إذا أنتم أدَنتم أجنوديس التي تُنقِذ الأرواح.»[11] وعندئذٍ سمحوا لها بأن تُصفِّف شعرها وترتديَ من الثياب ما تشاء.

وسقطت كورنثوس في يد الرومان سنة ١٤٦ق.م. ووقَعَت مئات النساء الإغريقيات أسيراتٍ في أيديهم، فبِيعَت النساء الطبيبات منهن بأغلى الأثمان في سوق الرقيق بمدينة روما.

وفي الحِقبة الأخيرة للإمبراطورية الرومانية، كانت النساء المُمارسات يَقِفن على قدم المساواة مع المُمارسين من الأطبَّاء الرجال، وكان الوصف القانوني للأطباء: «الأطباء إما ذكور وإما إناث.» وقد أثنى سنيكا (٤ق.م. (؟)–٦٥ب.م. (؟)) السياسي والفيلسوف الروماني على طبيبته ذات الأنامل البارعة. وفي القرون التالية أَلِف الرجال في علم أمراض النساء وفي صناعة القبالة، في حين كانت النساء يَقُمن بالتنفيذ العملي الذي لم يكُن مقصورًا على ولادة الأطفال وأمراض النساء، بل كانت النساء تُساعد آباءهن وأزواجهن وأشقَّاءهن الأطبَّاء في النشاط الطبي كله.

النساء في العهد المسيحي المُبكِّر

ولما تسلَّمَت المسيحية السُّلطة تَعرَّض وضع المرأة الاجتماعي للهبوط؛ فالكنيسة في أوائل عهدها كانت تُؤكِّد دُونيَّة المرأة. وفي سنة ٥٨١م كان آباء الكنيسة يُعلنون أن المرأة حيوانٌ ناطق، وأن النساء بهائم لا أرواح لها، وأصبح تعليم المرأة في حالة توقُّف تام تقريبًا،[12] ومع ذلك كانت هناك قلة من النساء لم تذهب ولم تثبط هِمَّتها ووصَلت إلينا أسماؤهن.

ومن بين هاتيك النساء القِدِّيسة بريدجيت (٤٥٣–٥٢٥م) التي تمكَّنَت من ممارسة الطب والقبالة في أيرلندا، ولا بد أنها كانت ذات نُفوذ كبير؛ لأنها تمكَّنَت من إقناع الحكام بنفي المُشعوِذين أدعياء الطب من البلاد.

وهناك أيضًا القِديسة سكولاستيكا عشيقة القِديس بنديكت (٤٨٠–٥٤٤م) التي صحِبَته في أنحاء إيطاليا حينما كان الطاعون مُتفشيًا، وقاما معًا بتقديم العَون للمرضى وتعليم الآخرين كيف يفعلون ذلك. وفيما بعدُ أُنشئت المستشفيات ودُرِّبت المُمرضات على غسل أبدان المرضى وإعطائهم الدواء والطعام، وعلى الصلاة مع المُحتضرين.[13]

وهناك القِديسة «دالبورجا» (المُتوفَّاة ٧٧٩م)، وهي أميرةٌ إنجليزية درَسَت الطب وأسَّسَت ديرًا في هايدنهايم بألمانيا، وتُبيِّنها الصور وفي إحدى يدَيها قِنِّينة بول وفي يدها الأخرى ضمادات.

وقد أُطلقَ اسم ليلة القِديسة دالبورجا على عشيَّة أول مايو؛ حيث يُقال إن الساحرات يذهبن إلى اجتماعٍ مُحدَّد من قبل، ولأن أول مايو هو أيضًا عيد القِديسة دالبورجا.

وبعد نهاية الألف سنة الأولى بعد ميلاد المسيح، لا قبل ذلك، بدأت المُدوَّنات التاريخية مرةً أخرى تَذكُر لنا أسماء طبيبات مُمارسات مشهورات.

الفصل الثاني

النساء الممارسات في العصور الوسطى

تروتولا ومدرسة سالرنو

كان تأسيس مدرسة سالرنو الطبية في جنوب إيطاليا رسميًّا على يد قسطنطين الإفريقي سنة ١٠٧٥م. غير أن مدرسةً عملية للطب كانت مُزدهرة هناك قبل ذلك على مدى مائة سنة على الأقل، وكانت هذه المدرسة مشتركة للجنسَين، وليس بها أي تمييز ديني، وفيها عدد من المُدرسات. وكانت أشهر امرأة فيها هي تروتولا، ولقبها «كبيرة الأطباء». وكان رودلف (أوراعُول) مالكورون (أو مالاكورونا) معروفًا بأنه أهم طبيب في غرب فرنسا في القرن الحادي عشر، وكان قد درَّس في مدرسة سالرنو بعض الوقت في الفترة ما بين سنة ١٠٤٠ وسنة ١٠٥٩م. وقد ذكرَ أنه لم يجد هناك إلا مُعلمًا واحدًا كفؤًا له، بحكمته في الحُجة وفي الرد على أسئلته، وهذا المُعلم امرأة، ويبدو مُؤكَّدًا أن هذه المرأة الحكيمة التي يُشير إليها هي تروتولا.

ويَرِد ذِكرها في الأدب والأسطورة تحت أسماءٍ مُتنوعة؛ تروتا، تروكتا، تروتولو، تروكولا؛ وتنويعات أخرى كثيرة تشمل كل حروف اسمها، كما يُشار إليها بأنها «زوجة بلاتريوس» و«المرأة العاقلة» و«إيروس جوليا» و«إيروسيان». وقام النُّساخ بنقل أعمالها الشهيرة في علم أمراض النساء وفن التوليد. ومع مرور الزمن يتطرق الإهمال إلى أسماء مُؤلِّفي الأعمال التي يقوم النُّساخ بنقلها. وكانت كتبها — في معظم الأحيان — تحمل اسم كاتب مسيحي هو «إيروس» أو «إيروسيان»؛ مما أدَّى إلى التساؤل: «هل تروتولا وُجِدت حقيقةً؟»

وقد راجعت الدكتورة هيردميد المخطوطات بعناية، وكذلك الطبعات التي نُشرت من أعمال تروتولا، كما تَرِد على أقلام أولئك المُؤرِّخين الذين شكُّوا في هُوية، بل ووجود، مُؤلِّفة كتاب تروتولا الكبير والصغير. وقد أخذت الدكتورة على عاتقها إثبات أن تروتولا كانت «شخصًا حقيقيًّا جدًّا في القرن الحادي عشر، وكبيرة أطبَّاء، وليست مجرد قابلة عادية، بل ولا شخصية أسطورية كما ذهب قول البعض، وأن الكتاب الذي ظل منسوبًا إليها عِدَّة قرون صحيحٌ ولم يكتبه رجل.» واستخلصت الدكتورة هيردميد من القرائن والأدلة أنه من المُمكِن أن يُقال «بدون خوف من التناقض إن كتابات تروتولا ظلَّت قرابةَ خمسة قرون بعد وفاتها مَوضع تقدير كبير، وحظِيَت بتوزيعٍ عريض، وليس هناك أي مصدر على الإطلاق يُبرِّر الشك في صحة هُويتها أو الشك في أنها مُؤلِّفة الكتب أو الأعمال المنسوبة إليها.»[1]

وتُوافِقها على ذلك مؤرخةٌ حديثة أخرى هي سيسيليا متلر قائلةً: «لقد خلطوا بين تروتولا وشخصياتٍ شتَّى. وقيل إنَّ الاسم إنْ هو إلا اسمٌ جمعي للقابلات عمومًا، ولكن الاتفاق الآن تامٌّ على أن تروتولا لها وجودها المستقل.»[2]

وليس المعروف عن تروتولا — من حيث حياتها الخاصة — كثيرًا؛ فقد كانت زوجة جون بلاتاريوس، ولها — على الأقل — ولدان، هما جون وماتيو، وأصبح عدد من ذُريتها جرَّاحين. وقد قام الزوجان ومعهما ابنهما جون بتجميع دائرة معارف طبية سُمِّيت «الموجز العملي». وجون الابن أَلَّف أيضًا كتابًا عن البول اسمه «القواعد الخاصة بالبول».

ويبلغ المعروف عن عملها أكثر من ذلك؛ فقد كان يستشيرها طبيًّا الرجال والنساء. وفي علم أمراض النساء وفي القبالة كانت سابقة لزمنها بكثير، بل كانت تُجري الجِراحات القيصرية. ومن بين حالاتها مريضةٌ أُحيلت إليها من زميل في الكلية لتُجريَ لها جِراحة، وقد شخَّص هذا الزميل الحالة بأنها «فتق»، ولكن تروتولا شخَّصتها خراجًا، وبزلته وجفَّفته، ثم ردَّت المريضة إلى بيتها مُزوَّدةً بزيوتٍ طبية لإتمام شفائها.

وليس من المُرجَّح أن تروتولا شرحت جسمًا بشريًّا؛ لأن في ذلك خرقًا وتحديًا لقوانين الكنيسة؛ وبالتالي فتشخيصها قائم — إلى حدٍّ كبير — على الأعراض التي شرحتها المريضة. واستنادًا إلى ما ذكره سلفاتوري دي رنزي — مُؤلِّف الأجزاء الخمسة في تاريخ الطب الإيطالي (١٨٤٤–١٨٤٨م) وناشر مخطوطات كوبنهاجن الخاصة بمدرسة سالرنو — كانت تعليمات تروتولا إلى تلاميذها عملية: إذا ما وصَلتَ إلى المريض فسَلْه عن مكان ألمه،

ثم جس نبضه وتحسَّس جلده لتعرف ما إذا كان محمومًا، وسَلْه إذا ما مرَّت به رعدة، وسَلْه عن الوقت الذي بدأ فيه الألم، وتحرَّ منه إذا كان ألمه في الليل أسوأ منه في النهار، وراقِبْ تعبير وجهه، وافحص لُيونة بطنه، وسَلْه إذا كان تَبوُّله سهلًا، وانظر بدقة إلى البول، وافحص جسمه بحثًا عن المَواطن الحسَّاسة، وإن لم تجد شيئًا فسَلْه عن الذين استشارهم من الأطباء، وماذا كان تشخيصهم، وسَلْه هل سبقت له نوبةٌ مُماثلة من الألم؛ فمتى عرفت سبب مرضه سَهُل عليك تحديد العلاج.[3]

وأعظم أعمال تروتولا هو كتابها عن أمراض النساء. أجل إن الكثير من مادَّته مستمَد من عِدَّة مصادر سابقة، وأنه في مواضع الأصالة لا يتجاوز المستوى العاديَّ للمعلومات الطبية في القرن الحادي عشر، بيدَ أن كتابها كان رسالةً عملية جدًّا في علم أمراض النساء وفن القبالة، بحيث عدُّوه أكبر مَرجع حُجة للطبيبات والقابلات، وظلُّوا ينسخونه ويرجعون إليه على مدى مئات السنين. ولم تكُن تروتولا دكتورًا في الطب؛ فأول درجة دكتور في الطب مُنِحت في سالرنو سنة ١١٨٠م، وللرجال فقط فيما يبدو، ولكن النساء كنَّ يَحصُلن على دبلومةٍ خاصة في القرنَين الثالث عشر والرابع عشر. وفي سنة ١٤٣٠م مُنِحت دكتوراه الطب إلى كونستنزا كالندا.

ومن بين الطبيبات في سالرنو عدد لم يترددن في التأليف في الموضوعات العلمية التي عُدَّت في القرون التالية غير لائقة بأن تَدرُسها النساء. وخير هؤلاء النساء السالونيات — كما كنَّ يدَّعين — امرأة من روما تُدعى آبيلا، وجرَّاحة تُسمى مركورياداً، وربيكا من آل جوارنا، والتي كان من بين أفراد أسرتها ملوك وعدد من أمراء الكنيسة.

هيلدجارد أوف بنجن ورئيسات أديِرة غرب أوروبا

في أوائل القرن الثاني عشر لم يكُن هناك أطبَّاء مُرخَّص لهم بمزاولة المهنة (مُجازَون)، وكان معظم أطباء ذلك العصر رهبانًا. والواقع أنه لم يكُن على الراهب إلا أن ينسخ مخطوطًا طبيًّا واحدًا كي يَنعَت نفسه بأنه طبيب. وفي مَجمع ترنت (سنة ١١٢٥م) وفي مجمع لاتران (سنة ١١٣٩م) قرَّرت الكنيسة أنه غير مسموح للرهبان أن يَفصِدوا الدم أو يقوموا بجِراحات، أما الفصد وعلاج الجروح وتجبير العظام فمتروكٌ أمرها للنساء والحلَّاقين.

وكانت هذه هي الفترة التي شهِدَت نشأة ونموَّ كثير من الزوايا والمعتزلات الخاصة بالنساء، وقامت الكثيرات من رئيسات الأديرة بأدوارٍ هامَّة في الطب؛ فهذه هلويز (١١٠١–١١٦٤م) التي يَذكُرها الناس بصفةٍ خاصة بسبب حبها لأبيلار، لعلها كانت أعلم طبيبة في فرنسا، وقد تعلَّمَت على يد أبيلار الذي كان طبيبًا وفيلسوفًا في ذات الوقت، وبعد وفاته في سنة ١١٤٢م كرَّسَت حياتها لتعليم وممارسة الطب في البرقليط، وهو معتزَل مَبني للنساء في إقليم شمبانيا.

وأسَّسَت إليزابث شوناو (١١٢٩–١١٦٥م) ديرًا للراهبات البندكتيات، قُرْب ترير في غرب ألمانيا على نهر الموزيل قرب حدود اللوكسمبرج. ومع أنها كانت تُلقَّب بكبيرة الأطباء في سنة ١١٥٧م، إلا أن ذِكرها لم يُخلَّد بسبب مهارتها الطبية وعطفها على الفقراء والمرضى، وإنما بالأخص بسبب تنبؤاتها ورؤياها.

وهيراد اللندسبرجية (المتوفَّاة ١١٩٥م) كانت رئيسة دير هومنبرج في الألزاس، وكان الدير يقبع فوق قمة القِديسة أوديليا في جبال الفوج، وتُحيط به قلاع ومنازل دينية أخرى. وفي سنة ١١٨٧م شيَّدت هيراد مستشفًى كبيرًا فوق أراضي ديرها، وصارت كبيرة أطبَّائه.

وهناك رئيسات أديرة مشهورات في القرن الثاني عشر، منهن جرترود الروبرسدوفية، وجرترود كونتسة بلاتين أوف نيفيل، وليوبا الفولدوية، وأشهرهن جميعًا هيلدجارد أوف بنجن (١٠٩٨–١١٨٠م) في إقليم الراين الألماني. وقد وُلِدت هيلدجارد من أبوَين نبيلين في بيكلهايم على نهر ناهي قُرْب سبونهايم، جنوبي غربي ماينز، ووُجِّهت منذ حداثتها إلى الدين كي تترهب، فقضت كل حياتها تقريبًا بين أسوار الديور البندكتية. وفي سن الثامنة أرسلوها إلى قُرْب «ديسيبودنبرج» لتَدرُس على يد رئيسة الدير، وهي عمتها يوتا. وفي سن الثلاثين خلَفَت عمتها في رئاسة الدير.

وكانت هيلدجارد منذ طفولتها الباكرة تَنْتابها أحلام يقظة غريبة. ويروي الطبيب والمؤرخ الإنجليزي تشارلز سنجر (١٨٧٦–١٩٤٥م) عنها أنها قالت: «هذه الرؤى التي رأيتُها لم أشهدها في منام، ولا في حُلم، ولا في حالة جنون، ولا بعينيَّ الجسديَّتَين، ولا بسمعي البدني، ولا في أماكن خفيَّة، بل وأنا مُتيقِّظة مُتنبِهة، بعينَي الفكر وبالسمع الباطن، أدركتها في مكانٍ مكشوف وبإرادة الله. أما كيف تم هذا فأمرٌ عسير حقًّا على الجسد البشري أن يُفصِح عنه أو يُفسِّره.»[4]

ويعتقد الدكتور لودر برنتون، وهو طبيب من العهد الفيكتوري، أن هيلدجارد أنثى هستيرية، ومن الجائز أن هذا هو أساس رؤاها، ومع ذلك فهي كلها رؤًى ذات تَشابُه واضح، وتُصوِّر الهالة البصرية المُعتادة للمُصابين بالصداع النِّصفي، وهو عبارة عن نُقطٍ مُضيئة فوق خلفية لامعة بها خطوط تقوية مُتعرجة.[5]

ولكن سواء أكانت تُعاني من صداعٍ نِصفي أم نوبات صرع، أو من تقلصات عضلية، أو من هستيريا كما ذهب كثيرٌ من الثقات، أو كانت رؤياها كُشوفًا حقيقية، فإن رؤاها كانت واقعية جدًّا بالنسبة لها.

ولم تكُن هيلدجارد موهوبةً ذات عقل نشط وذهن كفء فحَسْب، بل كانت أيضًا ذات طاقة كبيرة ومَقدرة أدبية عظيمة، وكتاباتها الواسعة المدى تنمُّ على أنشطتها المتنوعة وقدرتها الخارقة على التحليق الخيالي. ويُقال إنها أَلَّفت ١٤ عملًا، منها ما يقع في عِدَّة مُجلَّدات؛ رسالات طبية ونفسانية، وأعمالًا في التعليم الديني، وتقارير عن رؤاها وتنبؤاتها. وقد تنبَّأت سلفًا بسقوط الإمبراطورية الرومانية المُقدَّسة، وكان ذلك قبل حدوثه بسبعة قرون، وتنبَّأت بإصلاح الكنيسة الذي سيَتمُّ بعد وفاتها بأربعمائة سنة، وذكرت أن سبب ذلك — إلى حدٍّ ما — هو فساد الإكليروس.

وفي كتاباتها الطبية والعملية — التي وصفتها الدكتورة هيردميد بأنها أهم إسهامات لاتينية علمية في أوروبا في القرون الوسطى —[6] بشَّرَت هيلدجارد بمُكتشَفاتٍ تالية عن الدورة الدموية، وأسباب العدوى والتسمم الذاتي، وأفعال الأعصاب التي مصدرها المخ وكيمياء الدم، ولها فضل رسالتَين طبيتَين على الأقل؛ الكتاب الطبي البسيط، والكتاب الطبي المركب؛ ورسالة صغيرة في الطب الإكلينيكي «الأسباب والعلاجات». والكتاب البسيط يتحدث عن الأعشاب والنباتات والمعادن والأحجار الكريمة ومواد الغذاء. وينسب مؤرخٌ طبي جليل من بوميرانيا — هو كيرت بوليكارب يواقيم شبرنجل (١٧٦٦–١٨٣٣م) — إلى هيلدجارد استخدام السرخس لمقاومة كل أعمال السحر، واستخدام الرنجة في علاج الكحة، واستعمال نبات البيقية لعلاج الثآليل.[7]

وفي سنة ١١٤٧م شيَّدت هيلدجارد وبعض راهباتها ديرًا جديدًا في «روبرتسبرج» على التِّلال المُطلة على نهر ناهي، في الضفة المقابلة لبلدةٍ هامَّة في العصور الوسطى هي بنجن، حيث يلتقي نهر ناهي بنهر الراين. وكان الراين هو الطريق الرئيسي لألمانيا الغربية، فكان مَوقع هيلدجارد مُلائمًا لمراقبة حركة المرور فيه وأنشطة الناس. وكانت تعرف حوض «ناهي» و«جلان» معرفةً وثيقة، ورحلت شمالًا حتى كولونيا، وشرقًا حتى

فرنكفورت على نهر ماين، وجنوبًا حتى روتنبرج على التاوير، وكانت رِحلاتها بدافع من خدمة الدين، ولكن جهودها للإنعاش الروحي كثيرًا ما كانت مُوجَّهة ضد طائفة «كاتاري» المُضطهَدة بقسوة، وهم جماعة هراطقة البيجنزيين انتشرت نِحلتهم عبر إقليم الراين في القرن الثاني عشر. وكانت حماستها الدينية المُفرِطة تُقابِلها من جهةٍ أخرى أنها في أثناء تلك الرِّحلات عينها كانت تُعلِّم الطب والثيولوجيا (اللاهوت)، وتُقدِّم النصح إلى رئيسات الديور الكبيرات والصغيرات، وإلى الراهبات.

وكانت تركب الحِصان في أسفارها، وتصحبها كوكبةٌ من الراهبات والخادمات. وكان ذلك في القرن الثاني عشر وفي ظروفٍ شاقَّة خشِنة؛ مما يُعَد عملًا مُجهِدًا جدًّا لأي امرأة، ولكنها ظلَّت تقوم بهذه الرِّحلات إلى أن قاربَت الثمانين، ومعظم مُعاصريها لم يُعمَّروا إلى نصف هذه المدة.

وما لم تستطع هيلدجارد أن تُحقِّقه بشخصها وصَلت إليه بقلمها؛ فكانت على اتصالٍ مستمر بمايانس؛ مَقر كرسي كبير الأساقفة الذي تقع «بنجن» داخل دائرة سلطانه. كما كتبت بإفاضة إلى رجال الكنيسة في مدن بكل أنحاء ألمانيا والأراضي المُنخفضة وأوروبا الوسطى، ومراسلاتها مع القديس برنار أوف كليرفو — الذي كان حينذاك يُنادي بالحروب الصليبية المعروفة بِاسمه — ومع أربعة بابوات تربَّعوا على الكرسي الرسولي في مدة حياتها الطويلة — وهم أيجنيوس الثالث، وأنسطاسيوس الرابع، وأدريان الرابع، وإسكندر الثالث. ومع الإمبراطورَين كونراد وفردريك ذي اللحية الحمراء، جعلتها وسط التيَّار الرئيسي للتاريخ الأوروبي. وكانت رسائلها «تُملي على البابوات وعلى الأباطرة والملوك ما ينبغي عليهم عمله».[8] وكانت لها اتصالات بهنري الثاني ملك إنجلترا وزوجته إليانور أوف أكويتان، وهي مطلقة لويس السابع ملك فرنسا.

وقد ماتت هيلدجارد في ١٧ سبتمبر سنة ١١٨٠ وهي في الثانية والثمانين من عمرها. ومع أن لقب قِديسة أُلحِقَ بِاسمها فيما بعدُ إلا أنها في الواقع لم تُطوَّب رسميًّا ضِمن قائمة القديسين. وقد جرَت محاولات لرفعها إلى مصافِّهم في عهد جريجوري التاسع (١٢٣٧م) وفي عهد إنوسنت الرابع (١٢٤٣م) وفي عهد يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٧م)، ولكن جميع تلك المساعي أخفقت. وكما قال الدكتور سنجر: «لقد زعموا لها معجزات شفاء وأعمالًا أخرى عجيبة، ولكنها لم تكُن معجزات كافية أو كانت إثباتاتها غير كافية. ومن تتبَّعوا خط حياتها بنزاهة في وثائقها سيُوافِقون على قرار الكنيسة. لقد كانت روحها نارية وتَنبُّئية ونبيلة من وجهاتٍ كثيرة، ولكنها لم تكُن قِديسة بأي مفهوم لهذه الكلمة.»[9]

القرن الثالث عشر وحتى عصر النهضة

ولم تشهد السنوات التي أعقبت وفاة هيلدجارد أوف بنجن نساءً طبيباتٍ كاتبات ومُمارسات في مثل منزلتها أو قدرها، ولا مُعلمات طب يُضارِعن تروتولا، ولكن ليس معنى هذا أن النساء لم يعملن بنشاط في الطب والجِراحة.

وبعض الأسماء التي انحدرت إلينا قد تبدو دليلًا على أن نساءً من سلالةٍ ملَكية كان لهن اشتغالٌ جِدِّي بالطب، وكثيرات منهن أنشأن مستشفياتٍ عمِلن فيها أيضًا، ومن بين هؤلاء بلانش القشتالية والدة لويس التاسع ملك فرنسا، وبياتريس السافوية وهي حماته، ومرجريت البرغونية ملِكة صقلية؛ وابنة بلانش وأختان لبلانش، هما أوراكا ملِكة البرتغال، وبرنجاريا ملِكة قشتالة؛ ثم اليصابات الأرغونية التي خلَفت أوراكا على عرش البرتغال، والملِكة هدويج ملكة سيليسيا البولندية وزوجة ابنها الأميرة آنا البوهيمية.

وفي إيطاليا، وحيث لم تُغلَق الجامعات قط في وجوه النساء، كانت سالرنو وبولونيا تُخرِّجان باستمرارٍ النساء الممارسات للطب. وقد يكون الدافع إلى هذا هو المرسوم الذي أصدره شارل دوق كالابريا الذي ينصُّ على أن تقوم نساءٌ مُمارسات بعلاج النساء من جميع الأمراض لا في حالات الوضع فحسب؛ وبذلك أوجد الحاجة إلى جرَّاحاتٍ مُدرَّبات.

وقد اكتشف جيمس والش — وهو طبيب وعالمٌ أمريكي في العشرينيات من هذا القرن — أن عالم التشريح موندينو دي لوتزي (١٢٧٠–١٣٢٦م) كان يُحلُّ مُساعِدته ألسندرا جيلياني (١٣٠٧–١٣٢٦م) في منزلةٍ عظيمة من التقدير؛ «فهي قادرة على أن تُنظِّف بمهارةٍ قُصوى أصغر شريان أو وريد، وكذلك كل تفريعات الأوعية الدموية، من غير أن تُمزِّقها أو تشقَّها، ثم تعدُّها للبيان العملي بأن تملأها بالسوائل المُتعددة الألوان، التي تتجمد بعد أن تنساب إلى داخل العروق من غير أن تُدمر هذه الأوعية، وهي قادرة على أن تُصور هذه الأوعية نفسها بكل تشعُّباتها الدقيقة على أكمل وجه، وتُلونها تلوينًا طبيعيًّا جدًّا بحيث إنها تُعِين الأستاذ على حُسنِ الشرح والتعليم، وتجلب له عظيم الشهرة وجميل التقدير.»[10]

وفي سنة ١٣٩٠ خلَفَت دوروثيا بوكي والدها بصفة أستاذة للطب والفلسفة الأخلاقية في بولونيا، وعلَّمَت الطلبة هناك على مدى أربعين سنة.

وواصلت الراهبات أعمالهن الطبية؛ فهذه هي القِديسة كاترين من سينيا (المتوفَّاة سنة ١٣٨٠م)، وهي ابنة دبَّاغ جلود، كرَّسَت حياتها للعناية بالمرضى، ولا سيَّما المُصابين منهم بالطاعون والأوبئة المُعدية. وفي القرن الخامس عشر أكسبَت أعمال طبيبتَين إيطاليتين

صاحبتَيهما لقب قِديسة، وهما كاترين البولونية (١٤٠٣–١٤٦٣م) رئيسة دير راهبات شارل المسكين، التي علَّمت الراهبات الطب كي يُعالِجن مرضاهن ولا يكتفين بتمريضهم، وشمِل تعليمهن تأويل البول والنبض وتشخيص المرض، وكيفية التعرف على بوادر الموت وعلاماته، وفي الحالات المُميتة كن يُصلِّين مع مرضاهن. والأخرى هي كاترين الجنوية، صُغرى خمسة أطفال في أسرة فيسكي النبيلة، وكانت معروفة بشدة ولائها للمرضى. وأثناء وباء الطاعون لم تتردد في الانتقال لتعيش وسط المُصابين وعالَجتهم. وأي مناقشة للقِديسات الطبيبات لا بد أن تتضمَّن اسم بريدجيت الاسكندنافية (١٣٠٤–١٣٧٣م) مُؤسِّسة الرهبنة البريدجيتية، ولعلها عالقة بالأذهان بسبب دير صهيون الذي أقامه ووهبه هنري الخامس سنة ١٤١٥م، وصار أفضل مدرسة لتعليم الطب في إنجلترا. وكانت تعمل في إنجلترا في ذلك الحين امرأةٌ أخرى، هي سيسيليا الأكسفوردية التي عمِلَت جرَّاحة للبلاط الملكي لدى فيليبا زوجة إدوارد الثالث.

وفي أوائل القرن الخامس التمست جون أرملة «وليم أوف لي» — الذي قُتِل في حملة هنري الرابع ضد «أوين جلندور أوف ويلز» — من الملك أن يأذن لها في كسب معاشها من ممارسة الطب، «عسى أن يَرُوق سُموَّكم وفخامتكم السامية أن تمنحوا للمذكورة نزيلة ملجأ المساكين خطابًا ممهورًا بخاتمكم الشريف، يسمح لها بالتجول في القُطر لممارسة فنها، بحيث لا يعترض سبيلَها أو يُزعجها أحدٌ من الناس الذين يزورونها بسبب فنها ذاك. وأناشدكم ذلك بِاسم الله وعلى سبيل الإحسان.»[11] ولسنا ندري هل أُجيبت إلى مُلتمَسها هذا أم لا، ولكن في سنة ١٤٢١م تَقدَّم أطبَّاء إنجلترا بمُلتمَس إلى البرلمان، يطلبون ألا يُسمَح لأي شخص بمزاولة مهنة الطب ما لم يكُن حاصلًا على درجةٍ علمية في الطب من إحدى الجامعات، وألا يُسمَح لأي امرأة بممارسة هذه المهنة تحت أي ظروف كانت.

وفي فرنسا مارسَت النساء فن العلاج العام بالإضافة إلى القبالة؛ فهذا لويس التاسع كانت تصحبه في الحملة الصليبية السادسة (١٢٤٨–١٢٥٤م) امرأةٌ طبيبة، وحوالَي نهاية القرن الثالث عشر كانت قائمة المُمارسين في باريس تضمُّ ٣٨ طبيبًا، من بينهم أسماء ثماني نساء.

وفي سنة ١٣١١ أصدر فيليب العادل مرسومًا يُحرِّم على أي جرَّاح — ذكرًا كان أو أنثى، جرَّاحًا أو جرَّاحة — أن يُمارس مهنة في باريس ما لم يكُن قد أدَّى امتحانًا دقيقًا وأجازه أساتذة الجِراحة العُدول. ويبدو أن هذا المرسوم جعل النساء على قدم المساواة مع الرجال، ولكن هذه المساواة النظرية لم تَحُل عمليًّا دون التمييز الجنسي ضد النساء

عند منح التراخيص. وفيما بين سنة ١٣١٢ وسنة ١٣٢٧م حرَّم رئيس دير القديسة جنفييف الفرنسي عددًا من النساء من الكنيسة؛ لأنهن مارَسن الطب بدون ترخيص، غير أن إحداهن — وهي كلاريس الروتوماجية — تحدَّت أمر الحرمان وواصلت الممارسة.

وفي سنة ١٣٢٢م اقتِيدَت جاكوبا فيليس — وهي امرأة من عائلةٍ طيبة — أمام محكمة باريس على يد عميد وأساتذة كلية الطب، متَّهَمةً بأنها مارست الطب في المدينة والضواحي، خلافًا للأمر القديم الذي يُحرِّم على أي شخص لم يدرس ويحصل على شهادة أستاذ في الطب من الكلية معتمدة من مُديرها، وكان نص الاتهام كما يلي:

إن جاكوبا المذكورة:

(١) زارت كثيرين من المرضى المُصابين بأمراضٍ شديدة في باريس وضواحيها، وأنها فحصت بولهم ولمستهم وجسَّت نبضهم وأطرافهم وأجسامهم.

(٢) وأنها بعد هذا الفحص كانت تقول لأولئك الناس: «سأشفيكم بإذن الله إذا وثِقتم بي.» وتَعقِد معهم اتفاقًا وتتقاضى منهم نقودًا.

(٣) وأنها بعد ذلك الاتفاق المعقود بين المذكورة وبين أولئك الناس المرضى أو أصدقائهم بأنها ستشفيهم من مرضهم الباطني أو جِراحهم الخارجية، كانت المذكورة آنفًا تزورهم عِدَّة مرَّات بانتظام واستمرار فاحصةً بولهم ثم تجسُّ وتتحسَّس أطرافهم.

(٤) وبعد ذلك كانت المذكورة تُعطي المذكورين أشربة ومُقوِّيات للبنية ومُليِّنات ومُهضِّمات سائلة وغير سائلة وعطريات وجرعات، فكانوا يشربونها أمامها وبِناءً على أوامرها، دأبت على ممارسة ذلك مع أنها غير مُجازة من رئيس جامعة باريس وعميد الأساتذة.

(٥) وأنها كثيرًا ما نُبِّهت وحُذِّرت ومُنِعت.

(٦) ولكنها مضت في أعمالها كالسابق.[12]

وفي محاولة لكسب القضية استدعى الاتهام ثمانية رجال ونساء ليشهدوا بأن جاكوبا استخدمت فعلًا وسائل التشخيص والعلاج المُبيَّنة في الاتهام، ولكن الشهود مضَوا يقولون إنها طبيبةٌ عاقلة ورشيدة، وإنها عالَجتهم بنجاح، بل وأضاف بضعة منهم أن أطباءً ذكروا أسماءهم قد نبذوهم يأسًا من حالاتهم؛ الأمر الذي أحرج المُشتغلين بالمهنة ككلٍّ وكلية الطب بوجهٍ خاص، وشهِد الجميع بأن جاكوبا لم تكُن تَعقِد أي اتفاقات مالية مُقدَّمًا، وأن المرضى كانوا ينقدونها الأجر الذي يرَونه مُناسبًا بعد أن تشفيَهم.

ولقد كان موضع اعتراض الأطباء — في الحقيقة — أنها تستخدم كل الأساليب الأصولية في التشخيص والعلاج.

وفي خطبة ردِّها على الاتهام، قالت جاكوبا إن التشريع الذي وجَّهوا إليها الاتهام على أساسه كان المقصود منه قمع المُغفَّلين الجاهلين بفن الطب، وطالبت بأن تُحاكَم بناءً على نتائج أعمالها، ثم مضت تتحدث عن الاحتياج العام إلى طبيبات:

> «إنه من الأفضل والأليَق أن تقوم امرأةٌ رشيدة تعلَّمت الفن بزيارة المرأة المريضة لتسألها وتستوضحها عما يتعلق بطبيعتها الخاصة وأعضاء جسمها الخفيَّة، ذلك أفضل وأليَق من أن يقوم به أحد من الرجال؛ إذ ليس مشروعًا له أن يرى ويتفحص هذه الأعضاء، ولا أن يتحسَّس بيدَيه ثديَيها وبطنها وقدمَيها وهلمَّ جرًّا؛ فإن الرجل ينبغي أن يتحاشى بل ويفرَّ من الاطلاع على خفايا النساء وأسرارهن وصحبتهن. وكانت المرأة قبل اليوم أهوَن عليها أن تموت من أن تكشف أسرار أنوثتها لرجل؛ لتَعلُّق ذلك بشرف جنسها الأنثوي ولما يُسبِّبه لها من الخزي، وكانت هذه الأسباب وراء هلاك نساء كثيرات. وكذلك هلك رجالٌ كثيرون بسبب عِللهم؛ لأنهم لم يرضَوا أن يزورهم الأطباء حتى لا يطَّلعوا على أعضائهم الخفيَّة. وهذه كلها أمورٌ معروفة للعام والخاص وتناولتها الشائعات؛ فالعميد والأساتذة لا يُمكِن أن يُنكِروها.»[13]

وتجاهَل الردُّ الذي قدَّمه الاتهام كلامها عن الطبيبات والحاجة إليهن، وركَّز كل قوته على جاكوبا نفسها، فقالوا إنها ما دامت لم تحصل على إجازة الكلية فلا بد أن تكون جاهلة تمامًا بالطب، أما بخصوص من شفَتهم فإنهم واثقون من أن رجلًا مُجازًا في الفن المذكور أقدر على الشفاء من مثل هذه المرأة. «وقالوا أيضًا إنه ما دامت النساء ممنوعات من أن يَكنَّ مُحاميات أو شاهدات في القضايا الجنائية، فمن الواجب منعهن من ممارسة الطب؛ لأن قتل إنسان أسوأ من خسران قضية.»[14]

وكانت النتيجة حكمًا مُسبقًا، فمُنِعت جاكوبا من ممارسة مهنة العلاج، ولم تكُن بالطبع الوحيدة التي لقيَت هذه المعاملة من كلية الطب.

وفي سنة ١٣٥٢م أصدر ملك فرنسا جون الطيب قانون ممارسة الطب على يد نساء مؤهلات لذلك خصوصًا، ولكن الجرَّاح الكبير «جي دي شولياك» (١٣٠٠–١٣٧٥م) ظلَّ مُتحيزًا لمنع النساء بسبب جنسهن، وأخيرًا وافق على السماح للنساء المُدرَّبات تدريبًا لائقًا بالفصد وإعطاء الأعشاب وتجهيز الأشربة وتجبير الكسور والقيام بالقبالة.

وفي أجزاءٍ أخرى من أوروبا كانت النساء نشيطات؛ ففي سنة ١٣٩٤م أُجيزت خمس عشرة امرأة لممارسة الطب في فرنكفورت الواقعة على الماين، ومن بينهن جرَّاحةٌ مرموقة هي ابنة هانز در فولف الذي قام بتعليمها، وحصلت على عِدَّة أنواط لمعالجة الجرحى. وكذلك مرجريت النابولية، وهي أخصائية في العيون، وقد صارت الطبيبة الخاصة للملك ليدسلاوس سنة ١٤١٤م. وفي سنة ١٤٠٦م عُيِّن الإمبراطور الروماني المُقدَّس سيجسموند نساءً بمُرتَّبات لعلاج الفقراء؛ لأن الأطباء الرجال رفضوا الذَّهاب إلى بيوت أولئك المرضى أو علاجهم بدون مُقابل.

وكانت هناك بضع نساء مُمارِسات يهوديات، برغم الوضع الحرِج لليهود في القرون الوسطى. وكان المعتقَد أن لليهوديات درايةً خاصة ومهارات طبية واستعدادات لا يوجد نظيرها لدى الذكور. ومن المعروف أنه حوالَي سنة ١٣٢٦م كانت سارة السانجيلية ترأس مدرسةً طبية خاصة في مدينة مونبلييه الجامعية بجنوب فرنسا. وكانت امرأةٌ تُدعى زولين تُمارِس الطب في فرنكفورت. في سنة ١٤١٩م منح الأسقف جوهان الثاني امرأةً أخرى اسمها سارة ترخيصها بمزاولة الطب في فيرزبرج. وكانت جاكوبا تُنعَت أحيانًا باليهودية. ومن بين معاصراتها اللواتي حُوكِمن امرأةٌ تُدعى بيلوتا.

ولم يتم قَبول النساء في المهنة الطبية إلا في المستقبل البعيد، وظلَّت حُجَج جاكوبا التي قدَّمتها في محاكمتها مُتقدمةً على زمانها بعد ستمائة سنة من ذلك التاريخ.

الفصل الثالث

علم التوليد

إنه لأمرٌ مُثير للعَجب — وكأنه مُفاجأة — أن نكتشف أن القرون الماضية كان فيها رجالٌ مُولِّدون كما كان فيها نساءٌ قابلات. وكان احتراف الرجل لهذه المهنة مَدعاة للزِّراية بوجهٍ عام، وفي كثير من المناطق كان اعتراض الناس قويًّا ضد الرجال المُولِّدين، مثلما صاروا — فيما بعد — مُتعصِّبين ضد النساء الطبيبات؛ إذ كان المعتقَد أنه مما يُنافي اللياقة والحياء أن يلمس النفساءَ ووليدها رجلٌ غريب. وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكُن قد اعتُرف بالذكور أعضاءً في المهنة الطبية، لهم تَخصُّصهم في أمراض النساء وفن القبالة. وبالرغم من هذا الوضع فمنذ أقدم العصور أَلَّف الرجال في الموضوع، وكانت جهودهم لرفع مستويات القبالة مُجْدية للجميع.

وقد وضع سورانوس الإفيسوسي (٩٨–١٣٨م) في كتابه لطالبات الطب المعايير الصحيحة للقابلة؛ فينبغي أن تكون عارفة بالقراءة والكتابة، وخالية الذهن من الخرافات، بالإضافة إلى تَوقُّد الذهن وحِدَّة النظر والسمع، ويجب أن تكون ذات ذراعَين ورجلين قويَّتَين، ويدَين ناعمتين، وأصابع طويلة نحيلة، وأظافر قصيرة نظيفة. ويجب أن تكون مُتقِنة للتشريح وأصول الصحة والعلاجيات، وقادرة على التمييز بين أحوال الجسم السوية وغير السوية، وأخيرًا يجب أن تُحب عملها وتصون الأسرار بشرف. وباختصارٍ تكون القابلة أقدر الناس على معرفة كل ما يتعلق بالعلاجيات والغذائيات والجِراحة والصيدلة، وهي التي تستطيع أن تُعطيَ النصيحة الجيدة، لا تُربكها التعقيدات المفاجئة، وتكون مُتأهبة لإنقاذ حياة مريضتها ما أمكن ذلك؛ لأنها كثيرًا ما تُدعى لزيارة من عِلتهن شديدة.[1]

وهذه الصورة التي رسمها سورانوس لم يُكتَب لها أن تتحقق إلا في القرن السادس عشر، وما زالت الصورة المثالية لقابلته بعيدةً كل البعد عن قابلة اليوم، التي يسود

الاعتقاد بأنها امرأة لا يكاد يتجاوز صنيعها أن تُساعد الأخريات في المخاض والولادة. وقد شهدت القرون ١٦ و١٧ و١٨ سلسلة من القابلات البارزات المكانة.

لويز بورجوا

وُلِدت لويز بورجوا في الحي الأرستقراطي المُسمَّى «سان جرمان» خارج أسوار باريس، ولم تدَّعِ الأسرة لنفسها عضوية الطبقة النبيلة، وإن كان والدها قطعًا من الأثرياء ذوي المكانة. وتعلَّمَت لويز القراءة والكتابة وتزوَّجت في وقتٍ مُبكِّر. كان زوجها مارتان بورسييه تلميذًا لجرَّاح الجيش العظيم أستاذ القبالة أمبرواز باريه (١٥١٠–١٥٩٠م)، وظل مُقيمًا في بيت باريه بصفته مُساعده لمدة عشرين سنة. وتقول بعض الروايات إن لويز أيضًا تتلمذت على باريه، ولكنه كان يُشارف السبعين عندما تزوَّجت بورسييه؛ ولذا فالأرجح أنها تتلمذت على زوجها. وعلى كل حال فإنها كانت تعرف باريه؛ إذ كتبت في أحد كتبها أنها رأت الجرَّاح العظيم باريه راقدًا على فِراش موته، ومع أنه كان في الثمانين إلا أن ذهنه كان صافيًا كالعادة، وكان كعادته مُتلهفًا على أن يتعلم شيئًا ممن يزورونه.[2]

وقد ترتَّب على تقاليد باريه ما وصفوه بأنه «عصرٌ جديد في الجِراحة، أحدث تقدمًا عظيمًا في علم التوليد». ولا نعلم بالتأكيد متى ثار اهتمام باريه بعلم التوليد، ولكن ذلك ربما كان قد حدث في السنوات الثلاث الواقعة في منتصف العقد الرابع من القرن، التي قضاها طبيبًا مُقيمًا في مستشفى أوتيل دييه بـ «باريس»، حيث كان من المُؤكَّد أن الأفعال الفظيعة لكثيرات من القابلات ملأته فزعًا وجزعًا.[3]

ويبدو أن لويز — التي كان لديها استعدادٌ فطري للقبالة — اكتسبت خبرتها من الممارسة على فقراء الجيرة التي أقامت فيها مع زوجها. وكان هذا من حسن حظها؛ ففي أثناء الاضطرابات السياسية التي حدَثَت في سنة ١٥٨٨-١٥٨٩م، والتي انتهت بتولِّي هنري الرابع العرش، استحال على زوجها أن يكسب عيشهما، وحسب رواية وليم جوردويل — وهو طبيب فيلادلفي في القرن التاسع عشر — يبدو أن بورسييه «كان رجلًا حسن الهيئة وزوجًا ودودًا؛ لأن زوجته تتحدث عنه بكل إعزاز، وتُقرُّ بدَينها العظيم له في معرفتها بالقبالة، غير أنه كان غير بارع في كسب المال وعاش بغير منصب، وكانت أسرته تزداد عددًا أسرع مما تزداد ممارسته وكسبه، فلم يكُن الحال مُرضيًا.»[4]

ولم يكُن مُباحًا في باريس لأي امرأة أن تُمارِس القبالة إلا إذا صارت «مُولِّدة قانونية»، وكانت لويز قد مارست القبالة بين الفقراء خمس سنوات بدون هذا الترخيص. وبما

أنها الآن مُضطرَّة لأن تبحث لها عن مريضاتٍ أكثر ثراءً لتَعُول أسرتها، فلن يسعها أن تَرُوغ من القانون، ويقتضي القَبول في قائمة المُولِّدات القانونيات — والتي صارت نقابة للقابلات — تزكية من طبيب وجرَّاحَين وقابلتَين قانونيتين. ولم يكُن في الحصول على تزكية الثلاثة الأُول صعوبةٌ ما، ولم يكُن الشأن كذلك مع القابلتَين. ولما أرادت المُولِّدات أن يعرفن طبيعة عمل زوجها وعلِمن أنه جرَّاح، قُلن أولًا إنه ينبغي أن يُساعدها، وقُلن ثانيًا إن مكانته ستُضفي عليها امتيازًا غير عادل وتفوقًا على سائر القابلات؛ «فنحن لا نقبل في قائمتنا إلا زوجات التجار فقط؛ حتى لا تكسد سوقنا ويُضارَّ عملنا.»[5]

وأخيرًا حصلت على ترخيصها، وسرعان ما ازداد عدد عميلاتها بين الأثرياء، ثم بين النبلاء.

وكانت مدام بورسييه في السادسة والثلاثين، عندما دُعيَت للعناية بالملكة ماري دي ميدتشي قرينة هنري الرابع، وكانت العادة المتَّبَعة في ذلك الحين أن يستخدم رجال البلاط مُولِّدين من الذكور لتوليد عشيقاتهم، ولكن الملك — بالرغم من هذا — تعوَّد أن يعتمد على السيدة ديبوي التي أشرفت أربع مرَّات على مخاض عشيقته الحسناء جبرييل؛ لذا كان مفهومًا أن يُفضِّل امرأة لتوليد زوجته. وقد ثبَت أن ثقته في موضعها؛ فقد عُنيت مدام بورسيه بالملكة في سبع ولادات، ثم في ولادة من سيَغدو مستقبلًا لويس الثالث عشر. كتبت:

> «وأحضَروا إلى الداخل كرسيَّ الولادة، وكان مُغطًّى بالمُخمَل القِرمزي. وحوالَي الساعة الرابعة صباحًا اختلط بمخاض الملكة وأوجاعه مغصٌ شديد، زاد في ألمها الفظيع من غير أن يُساعدها على الوضع. وبين الفَينة والفَينة كان الملك يوفد أحد الأطباء، فيدخل ليرى الملكة ويتحدث إليَّ كي يعرف ماذا يجري، فكان الأطبَّاء يسألونني: لو كانت هذه امرأةً عادية وكنت وحدك إزاء هذه الحالة، فماذا كنت فاعلة؟ فأطلب منهم بعض الأدوية، فكانوا يأمرون بإحضارها فورًا من الصيدلي الذي كان يقترح عليهم غيرها قائلًا إنها أفادت كثيرًا في حالاتٍ مُماثلة. ولما كنت أعرف شدة ولاء الصيدلي في خدمة جلالتها، ولعِلمي أن دواءه إن لم ينفعها كل النفع الذي يزعمه فهو لن يضرَّها؛ لذا كنت لا أعترض عليه وأعطيها إياه.»[6]

وظلَّت مدام بورسييه متَّصِلة بالبلاط لمدة ٢٧ سنة. وفي سنة ١٦٢٧م ماتت دوقة أورليان بحُمَّى نفاس بريتونية خبيثة وهي تحت إشرافها، ثم قدَّموا تقريرًا تشريحيًّا

مُنطويًا على انتقاد لها، فردَّت عليهم كتابةً ونشرَت ردَّها الذي بلغ من إفحامه أن أحدًا من الأطباء لم يجرؤ على قَبول تحدِّيها، ولكن عملها في البلاط انتهى، وكرَّسَت السنوات التسع الباقية من عمرها لكتابة مذكراتها.

وكانت مدام بورسييه أول قابلة تنشر عملًا عن فن القبالة، وكان ذلك في سنة ١٦٠٩م، ثم ظهرت طبعةٌ ثانية سنة ١٦١٧م، وثالثة (مُوسَّعة كثيرًا) في سنة ١٦٢٦م، وصدرت الطبعة السادسة سنة ١٦٣٤م مُذيَّلةً بمُلحَق («مجموعة من الأسرار») حددت فيه الخطوط العريضة لعلاج كثير من الأمراض طبيًّا. واستمرَّت الطبعات الجديدة في الظهور لأكثر من مائة سنة، وكان من مُبتكَراتها طريقة الوضع القسري قبل أوانه في حالات النزيف الحاد.

«عندما تكون الحامل قد مُنِيت بفقد كبير من الدم، فلا بد من إخراج الطفل قسرًا باليد. وقد حدث لزوجة عضو في مجلس الشيوخ — وهي حامل في شهره السادس — أن ظهرت عليها هذه الأعراض، فأولَدَتها بأن قلبت وضع الجنين. واتَّضح أن هذا الإجراء لم يكُن قبل أوانه ولا بساعةٍ واحدة؛ وبذلك أنقذت حياتها وعاش الطفل يومَين. ولو كنت عرفت قبل ذلك الحين أن هذا الإجراء خليق بأن يُوقِف النزف، لكنت بذلك أنقذت حياة دوقة مونبازون.»[7]

وفي مُؤلَّفها الذي نشرَته سنة ١٦٠٩م — وهو مُهدًى إلى ماري دي ميدتشي — ذكرَت ما لا يقلُّ عن ١٢ وضعًا يمكن أن يوجد فيه الجنين داخل الرحم، وحدَّدت قواعد مُعينة للتصدِّي لكل وضع منها.

وفي طبعة سنة ١٦٢٦م أضافت فصلًا عنوانه «نصيحة إلى ابنتي» — وكانت الابنة قابلة كذلك — وفيه وصفت بعض المواقف التي كان عليها أن تتصدى لها؛ فقد كانت القابلة مُطالَبة بأن تَبْقى مع المريضة خمسة أسابيع قبل مَولد الطفل، وكانت الأسرة في اللحظة الحاسمة تدخل الحجرة وتتمشى جيئةً وذَهابًا مع الحامل الوشيكة الوضع، والحامل من الممكن أن تضع وليدها واقفةً أو راكعةً أو على الفِراش أو على كرسي الولادة الذي يرجع تصميمه الأساسي إلى أبقراط. وذكرت كيف احتشد مائتا شخص في نفس حجرة الولادة بعد ولادة أحد الأمراء أبناء الملك.

وعندما كان يتعين عليها أن تردَّ إلى الحياة وليدًا يبدو عليه أنه فارَقها، كانت تصبُّ النبيذ الدافئ من فمها إلى فم المولود كي يخترق البلغم المُتراكم، وتُدلِّك جسمه بقوة، وتغسله بالنبيذ الدافئ والماء الدافئ.

وكانت مدام بورسييه تنال جزاء خدماتها ألف دوقية ذهبية عن مَولد الصبي، وستمائة عن مَولد الفتاة، وتَصِلها — فضلًا عن هذا — هدايا كثيرة، ولم يتحقق قطُّ ما وعدها به الملك من معاشٍ مدى الحياة، مع أنها أنقذت حياة عدد من أطفاله الملكيين.

وقبل وفاتها بسنة التمسَت قابلات باريس من كلية الطب أن تُكلِّفها بإلقاء دروس عامة في علم التوليد، ولكن أعضاء الكلية — الذين أزعجتهم المشاحنات بين الأطبَّاء والحلَّاقين والجرَّاحين — رفضوا مُلتمَسهن.

ولمدام بورسييه تلميذةٌ خاصة نجيبة هي مرجريت دي تير دي لا مارش (١٦٣٨–١٧٠٦م)، ظلَّت سنوات كثيرة مُشرِفةً على القابلات بمستشفى أوتيل دييه، حيث أنشأت دراسةً مدتها ثلاثة أشهُر من التعليم والتدريب تُعلِّمهن فيها — من بين أشياء أخرى — كيف يتصدَّين لحالاتهن بدون مساعدة جرَّاح. وفي سنة ١٦٧٧م نشرت كتابًا من التعليمات للقابلات، تبيَّن منه أنها أستاذة في ذلك الفن كما أنها مُعلمةٌ مرموقة.

قابلات إنجليزيات

شهِد القرن السابع عشر بإنجلترا تحسينات كثيرة في فن القبالة، تمَّت على يد المُولِّدين الذكور والمُولِّدات الإناث على السواء. وكان برسيفال ويلوجبي (١٥٩٦–١٦٨٥م) يحتفظ بسِجلات لحالاته، وقد نشر طائفةً منها بعنوان «ملاحظات في فن القبالة»، وكان هدفه رفع مستوى مهارة قابلات الريف، وهن في الغالب نساء لم يتلقَّين أي تدريب صحيح؛ «كي أُعلمهن مِثل تلك الوسائل التي استخدمتها بنجاحٍ كبير».[8]

ولم يَقصر تعليمه على الولادة الطبيعية؛ فالولادة غير السوية كانت كثيرة الحدوث، وسببها عادةً تلك العِلة المسمَّاة كُساح الأطفال. وكانت القابلات غير المُدرَّبات يتصدَّين لتلك الحالة باستخدام «كُلَّاب القدر وإبر الحزم والملاعق الفِضية وخطاطيف وسكاكين التسقيف؛ كي يُظهرن المهارات الموهومة». ولمنع هذه الأساليب الوحشية كان يُدرب تلميذاته على ما يُسميه العملية اليدوية السهلة.[9] وكان مُتنبهًا إلى الحاجة لأداةٍ علمية حقًّا، ولعله سمِع شائعات عن الكلاب المخاضي الذي كان قد اخترعه آل شمبرلين، وهم أسرة من المُولِّدين الذكور، ولكنهم لم يجعلوا اختراعهم هذا علنيًّا إلا بعد وفاة ويلوجبي بثلاثين سنة.

وقد عِلم ويلوجبي فن القبالة لإحدى ابنتَيه، ويبدو أنها نجحت نجاحًا عظيمًا في هذا الفن، وكانت تُساعد أباها في الحالات الصعبة وفي كثير جدًّا من الحالات. وبسبب التحامل الشديد ضد الممارسين الذكور كانت مس ويلوجبي هي القابلة المنشودة المثالية.

وقد شجَّعت القابلات على ترويج هذا التحامل، وكنَّ يتبادلن التراشق الحادَّ بالألفاظ مع زملائهن الذكور. وفي سنة ١٦٣٤م عندما حاوَل بيتر تشمبرلين الثالث (١٦٠١–١٦٨٣م) أن يُؤسِّس اتحادًا للمُولِّدين من الجنسَين يكون هو على رأسه. قاوَمته المُولِّدات، وربما أسأن فَهْم دوافعه أو خِفن من السلطة التي قد يُخوِّلها لنفسه بذلك المنصب، فاتَّهَمنه بالتدخل في عملهن. وهذا مما يدعو للأسف؛ لأن آل تشمبرلين كانوا يؤمنون حقيقةً بأن مُولِّدي ومُولِّدات لندن ينبغي أن يكونوا أحسن تدريبًا وتعليمًا، وكان جزء من برنامجهم المقترَح أن يُيسروا ذلك التعليم. وكانت هذه ثانيَ محاولة يبذلها آل تشمبرلين لتنظيم المُولِّدين؛ فقد سبقتها عريضة التِماس قدَّمها بيتر الكبير (١٥٦٠–١٦٣١م) وبيتر الأصغر (١٥٧٢–١٦٢٦م) إلى السير فرانسس بيكون عضو المجلس الخاص لإنشاء جمعية للمُولِّدين، ولكنها رفضت على أساس أن الحكم الذاتيَّ للمُولِّدين «أمر ليس ضروريًّا ولا مُناسبًا».[10]

وأشهر قابلات تلك الفترة هما «جين شارب ومسز إليزابث سلير».

وبعد أن ظلَّت جين شارب تُمارِس مهنتها لمدة ثلاثين سنةً نشرت «الرفيق الكامل للقابلة» في سنة ١٦٧١م، وكانت تتمنَّى أن يضمن كتابها للعامة من الناس مخاضًا مأمونًا وسريعًا كالذي تتمتع به نساء الطبقة النبيلة الرقيقات التكوين. وكان واضحًا أنها مُتحاملة ضد زملائها المُولِّدين الذكور؛ لأنها نصحت قابلات إنجلترا أن يجعلن اعتمادهن على الله أكبر من اعتمادهن على جماعة الأطبَّاء.

وكانت «إليزابث سلير» مُولِّدةً مُمتازة؛ إذ إنها مُتعلمة تعليمًا حسنًا ومَركزها المالي متين. وقد عقدت العزم على ألا تدع الأمور على ما هي عليه، فناضلت في سبيل قضية القبالة، وفي اعتقادها أن مكانة المهنة لن تتحقق إلا إذا نظمت القابلات أنفسهن في الدراسة والعمل.

وقد حُكِم على مسز سلير الصريحة المُفوَّهة بالوقوف في آلة التعذيب أكثر من مرة؛ ففي ٣٠ من أبريل سنة ١٦٨٠م دُعِيت للمُثول أمام اللورد سكروجز كبير القضاة بتهمة الخيانة العظمى، وكان قوام التهمة أن «إليزابث سلير بالاشتراك مع خونةٍ أشرار في أبروشية سانت كليمنتس دينز اجتمعوا عمدًا وبطريقةٍ شيطانية، واتَّحدوا واتَّفقوا معًا

ثم عمدًا وبطريقةٍ شيطانية، وبخبث وشر وغدر أجمَعوا رأيهم على التسبب في موت مولانا الملك المذكور وهلاكه هلاكًا مُحقَّقًا، وأن يخلعوه ويحرموه من تاجه وحكومته، وأن يتدخلوا ويُقيموا في المملكة الديانية الرومانية.»[11]

وجاء قرار المُحلَّفين بأنها غير مُذنِبة، وكالعادة المتَّبَعة طالَبوا مسز سلير أن تُعطيَ كلًّا منهم جُنيهًا، فكتبت إلى رئيس المُحلَّفين مُعتذرةً عن عدم الدفع، وعارضة عليه بدلًا من ذلك: «أرجوك يا سيِّدي أن تَقبَل خِدماتي المُتواضعة لك ولكل السادة الأماثل أعضاء مجموعتك، وكذلك السيِّدات عقيلتك وعقيلات حضراتهم. وإذا راقَكم ذلك فإني مُستعدَّة أن أخدمهن في مخاضهن بإخلاص لا يقلُّ عن إخلاصكم الذي خدمتم به العدالة في قضيَّتي.»[12]

وجمعت إحصائيات تُبين أنه في المدة من ١٦٤٢ إلى ١٦٦٢م، قضت ٦٠٠٠ امرأة إنجليزية نَحبهن أثناء المخاض، ووُلِد ٥٠٠٠ طفل ميِّتين، كما وقع ١٣٠٠٠ إجهاض، وزعمت أن ثلثَي هذه الخسائر راجع إلى نقص مهارة القائمات بالقبالة.

ووضعت خُططًا لمستشفًى ملكي حسن التزويد بالفنيين، ويُعَد نموذجًا للأناقة والنظافة، بل وتضمَّنت برنامجًا لتدبير المال الذي يحتاج إليه المشروع. وفي يونيو ١٦٨٧م قدَّمت إلى الملك جيمس الثاني «مشروعًا لإنشاء مستشفًى ملكي، وتدبير إيراد مِقدارُه خمسة أو ستة آلاف جنيه سنويًّا، عن طريق ولأجل إنشاء هيئة من القابلات البارعات ورعاية اللُّقطاء المتروكين الذين يُقبَلون بذلك المستشفى.»[13] ووافَق الملك على المُضيِّ في الموضوع، ثم نسِي كل شيء بصدده.

ولكن حماسة إليزابث سلير لم تَفتُر عندما قصَّر الملك في البر بوعده، ولم تقلَّ حماستها عما كانت عليه في المناسبات الأخرى، وفي هذه المرة لم يشدُّوها إلى آلة التعذيب فحسب، بل أجبروها على أن تشهد بعينَيها إحراق كتبها، وهي عقوبةٌ بالغة القسوة في وقتٍ كان اقتناء مكتبة بذخًا عظيمًا.

وكان في إنجلترا قابلاتٌ مرموقاتٌ أخريات؛ فهذه هستر شو (التي لمعت سنة ١٦٣٤م) من أبروشية باركنج بلندن، تقاضت ألف جنيه تقريبًا في أغسطس سنة ١٦٦٦م أجرًا على براعتها من أبراهام باورت، وهو من النُّبلاء.

وفي ١٠ يونيو سنة ١٦٨٧م تولَّت مسز لاباني توليد ماري أوف مودينا الملكة زوجة جيمس الثاني، حين وضعت جيمس فرانسس إدوارد الذي لُقِّب فيما بعدُ المطالب بالعرش. وقد زعم كثيرون أن الأمير وُلِد ميتًا، وأن مسز لاباني قامت بتهريب طفل غريب وأحلَّته

محله، ولكن هيو تشمبرلين — الذي كان المفروض أن يتولى الحالة لولا أنه كان مشغولًا بمريضة في تشاتام — أعلن أن هذا الزعم سخيف. وبرغم هذه الشائعات «تلقَّت من الملك، عن يد سيدني لورد جودولفن، أجرًا ضخمًا مقداره ٥٠٠ جنيه، وهو مبلغٌ كافٍ لتعويضها عن براعتها المبذولة وعن أي خسائر قد تكون تعرَّضت لها بسبب تشويه سُمْعتها.»[14]

جوستن دتريشن سيجموندين

نمت القبالة في ألمانيا أبطأ من نموها في فرنسا وإنجلترا، ومع هذا أنجب القرن السابع عشر قابلةً مُمتازة في شخص جوستن دتريشن سيجموندين (١٦٥٠–١٧٠٥م).

وقد مات والد جوستن — وهو قس إنجيلي في رونستوك بسيليزيا — عندما كانت في الرابعة؛ فلم تتلقَّ من التعليم إلا القليل.

وفي سن السابعة عشرة تزوَّجت مُعلم فروسية، وبعد سنتَين شعرت بأنها حامل، فأرسلت تستدعي قابلة فقالت لها إنها في المخاض، ولكن شيئًا لم يَحدث. وأكَّدت تشخيصَ القابلة الأولى ثلاثُ قوابل أخريات، وأخيرًا فحصتها زوجة جندي واكتشفت أنها ليست في حالة مخاضهن على الإطلاق، وأنها ليست حاملًا أصلًا، فدفعتها هذه التجربة إلى ضرورة تعلم كل ما يمكن أن تتعلمه عن التكوين الجسدي والوظائف الخاصة بجنسها، فقرأت رسالتَين عن جنس الذكور وجنس الإناث كتبها رينيه دي جراف (١٦٤١–١٦٧٣م) من دلفت بهولندا، فكان لها تأثيرٌ كبير على قرارها بأن تغدوَ قابلةً علمية حقًّا.

وظلَّت اثنتَي عشرة سنة تُمارِس القبالة بين صفوف الفقراء المحليين، وعلَّمَت قابلاتٍ أخريات كنَّ كثيرًا ما يستدعينها للاستشارة. ولما اتَّسعت دائرة شهرتها استخدمتها سيدات الطبقة العليا في ليجنتز، فيما يُسمى الآن بولندا. وبمرور الوقت عُيِّنت قابلة لبلاط أمير براندنبرج المنتخب وقابلة للعائلة المالكة البروسية. وفي سنة ١٦٨٨م دُعيَت إلى برلين لتُشرِف على مخاض زوجة فردريك الأول ملك بروسيا (١٦٥٧–١٧١٣م).

وبعد سنة نشرت على نفقتها الخاصة مجلدًا عن القبالة به صورٌ كثيرة بالحفر على النحاس، وكثير منها رسومٌ تخطيطية بيدها شخصيًّا، تُصور حالات مريضاتها. وكانت تُفضل الكتابة بالألمانية على اللاتينية المألوفة في هذه الموضوعات؛ كي تكون مفهومة للقابلات (على نحوِ ما كتب «باريه» قبل ذلك بقرن من الزمان بفرنسيةٍ بسيطة ليفهمها

الحلَّاقون الجرَّاحون الذين لا يستطيعون القراءة باللاتينية)، ووُوجِهت فراو سيجموندين بنقدٍ عنيف، ولكن الكتاب أُعيدَ طبعه ست مرَّات وتُرجِم إلى الهولندية.

ونادت فراو سيجموندين بإعطاء الطبيعة فرصة إتمام المخاض بدون تَدخُّل، ونصحت القابلات أن يَدرُسن كيف يَقلبن وضع الأطفال الذين يكون نزولهم في وضعٍ رديء؛ حتى لا يَلحق الأمهاتِ في أثناء الوضع إلا أقلُّ ضرر. وكانت أدواتها في هذه العملية أولية جدًّا؛ أنشوطة أو خيطٌ تلفُّه حول القدم كي تجذب به القدمَين إلى أسفل، وتستخدم أحيانًا خُطافًا غير حاد، وكانت تستخدم أسلوب تمزيق الكيس النخطي (أو قرن الماء) لإيقاف النزيف، وهي طريقةٌ استخدمها — في نفس الوقت تقريبًا — مُعاصرها الفرنسي موريسو (١٦٣٧–١٧٠٩م) الذي كان كتابه عن أمراض الحمل (١٨٦٨م) هو الحُجة المعتمَد، إلى أن حلَّت محلَّه أعمالُ مدام بوافان التي نُشِرت ما بين ١٨١٢ و١٨٣٣م.

القابلات الفرنسيات في القرن الثامن عشر

وُلِدت «أنجليك مرجريت ليبورسييه دي كودراي» (١٧١٢–١٧٨٩م) في كليرمون فيران بالأوفرنيى، ودرست بمستشفى أوتيل دي دييه بباريس، ورُخِّص لها بالمزاولة سنة ١٧٤٠م، وبعد ذلك بقليل صارت كبيرة قابلات المستشفى. وكانت أساليبها في التعليم فريدة، ويبدو أنها سبقت الإنجليزي وليم سميلي (١٦٩٧–١٧٦٣م)، وإن عُزِي إليه الفضل في الابتكار، إلى استخدام مانكان يُمثل جذع امرأة، وقد صُنِع بحيث تستطيع أن تُدرِّب تلميذاتها بوساطته على عمليات الولادة. وفي ١٧٥٩م كلَّفَتها لجنةٌ ملكية بزيارة مستشفيات القبالة في مقاطعات فرنسا وإلقاء محاضرات فيها، واستمر راتبها — وهو ثلاثة آلاف جنيه فرنسي سنويًّا — يُصرَف لها بصفة معاش عندما تقاعدت، وطُبِع كتابها عن القبالة الذي نُشِر لأول مرة سنة ١٧٥٩م خمس مرَّات.

ومدام ماري-جونيه ديجيس (١٧٣٠–١٧٩٧م) تعلَّمَت القبالة لأول مرة على يد والدتها القابلة، ثم على يد زوجها «لوي ديجيس»، وهو مُوظَّف بصحة باريس. وعمِلَت مدام ديجيس قابلةً طبية قضائية (أي خبيرة قبالة) أمام محاكم باريس، وفي سجن شاتيليه قُرْب شالروا في بلجيكا. وعُيِّنت في ١٧٧٥م كبيرة قابلات في مستشفى أوتيل دي دييه بباريس، حيث أعادت تنظيم قسم الولادة من أساسه.

وقد أتمَّت ماري لويز لاشابيل (١٧٦٩–١٨٢١م) — وهي ابنة مدام ديجيس — عمل أمها، وكانت وهي طفلةٌ الرفيق المُلازم لأمها، وأثبتت أنها تلميذةٌ شديدة الذكاء. وفي سن الخامسة عشرة تولَّت بنفسها عملية ولادة في منتهى الصعوبة، فأنقذت حياة الأم والوليد معًا. وترمَّلت وهي في سن السادسة والعشرين. ولما كانت تعول ابنة لها فقد اتَّجهت اتجاهًا جِديًّا إلى ممارسة القبالة. وفي سنة ١٨٩٧م خلَفت والدتها في منصب كبيرة قابلات مستشفى أوتيل دي دييه. وفيما بعد، عندما نظمت مستشفى الولادة، عُيِّنت فيه كبيرةً للمُولِّدات، وعملت تحت رئاسة جان لوي بودلوك (١٧٤٦–١٨١٠م) كبير مُعلمي القبالة بالمستشفى وأعظم علماء الولادة في باريس. وكان بودلوك نفسه فيما مضى تلميذًا للقابلات، وكان يغبط مدام لاشابيل على يدَيها المرنتَين، ويُعجَب بقدراتها العقلية، ويعدُّها أبرع قابلات زمانها في الولادات الصعبة. وتمكَّنَت مدام لاشابيل من انتزاع فسحة من الوقت للدراسة في هايدلبرج أقدم جامعات ألمانيا، وعند عودتها إلى باريس طُلِب إليها أن تُنظم مستشفًى للولادة وللأطفال في بور رويال جنوب غربي فرساي.

وقد جمعت مدام لاشابيل أثناء حياتها مادَّةً كافية لكتاب من ثلاثة مجلدات عنوانه «الممارسة العملية للتوليد، أو ذكريات وملاحظات مختارة». وقد نُسِّق ونُشِر على يد ابن أخيها أنطوان ديجيس (١٧٨٧–١٨٣٨م) الأستاذ بكلية طب مونبلييه بعد وفاتها بأربع سنوات بمرض السرطان في المَعدة. وهذه المادة العلمية قائمة على أساس أربعين ألف حالة قامت بتجميع إحصاءاتها. وكانت تعتقد أنه ينبغي استخدام الأدوات في أضيق نطاق (ولا تُستعمل إطلاقًا لمجرد تقصير أمد المخاض)، وذكرت أنها شخصيًّا لم تتدخل في عمل الطبيعة إلا في أقل من ٢٪ من حالاتها. ولم تنجح إلا بقدرٍ ضئيل جدًّا في مطالبتها بإبعاد كل الأشخاص غير الضروريين من حجرة الولادة. ولقيَت بعض مُبتكَراتها في توجيه وإدارة المخاض حظًّا أوفر من النجاح.

ولا بد أن هذه الرسالة الضخمة، التي تُغطي كل وجوه القبالة، كانت فوق مستوى القابلة النمطية كثيرًا جدًّا، خاصة وأنها خالية من الرسوم، والواقع أنها وُصِفت بأنها «نصبٌ تذكاري أقامه ابن أخ وفيٌّ لعمته البارعة».[15]

ومع هذا فقد قامت مدام لاشابيل بدورٍ رائد في إحداث كثير من التغييرات لصالح المرأة الحامل والوليد، تلك التغييرات التي ظهرت قُرْب نهاية القرن الثامن عشر.

أما ماري آن فيكتور جيلان (١٧٧٣–١٨٤٧م) التي قال البعض إنها ألمع خبيرات القبالة في زمانها، فوُلِدت في ضاحية مونتري قُرْب باريس، وعلَّمَتها الراهبات في مستشفى

بايتامب جنوبيَّ باريس بثلاثين ميلًا. وفي سن الرابعة والعشرين تزوَّجت «لوي بوافان»، وهو مُساعد في إدارة الأملاك الوطنية، وسُرعان ما ترمَّلت ولها ابنةٌ وحيدة، فدرَست القبالة وحصلت على إجازتها في سنة ١٨٠٠م، واستقرَّت في فرساي، ولكنها بعد أن قُتلت وحيدتها في حادث عادت إلى باريس حيث عملت إحدى عشرة سنة تحت رئاسة مدام لاشابيل، ونشبت بينهما قطيعة بسبب ضرب تافه من الغَيرة، وليس — كما زعم البعض — بسبب نشر أول كتاب لها عن القبالة؛ فذلك لم يظهر إلا بعد تلك القطيعة. ورفضت مدام بوافان عِدَّة عروض مُغْرية، وقبِلَت وظيفة بأجرٍ أشبه بأجور الخدم في مستشفًى للمُومِسات. ولما تقاعدت بعد خمس وثلاثين سنة من الخدمة كان معاشها من الضآلة بحيث ماتت بعد سنة واحدة من الشلل والفاقة.

وهذا المُلخَّص لا يكشف عن حقيقة قدر هذه المرأة ومنزلتها، فقد نشرت عددًا من الكتب فيما بين سنة ١٨١٤–١٨٣٣م. وكان آخر أعمالها يحوي إحدى وأربعين لوحة ومائة وتسعة عشر شكلًا قامت بتلوينها جميعًا بنفسها. وقد وصف هنتر روب، الكاتب الطبي في أواخر القرن ١٩، كتابها هذا بأنه أحدث كتاب مُمكِن قبل ظهور البكتريولوجيا.[16] وقد عهِد إليها جيوم ديبويترين، أمهر جرَّاحي زمنه، بِابنته كي تُولدها في مخاضٍ كان يُنذِر بالتعسر، قائلًا عنها إن لها في كلِّ طرفِ أنملة من أناملها عينًا مُبصِرة!

وفي سنة ١٨٢٧م منحتها جامعة ماربورج بألمانيا شهادة الدكتوراه الفخرية في الطب. وهذا شرفٌ قلما أُضفيَ على النساء.

ويقول تشارلس د. ميجس الأستاذ بكلية جيفرسون الطبية في فيلادلفيا ومؤلف «النساء وأمراضهن» (١٨٤٩م) عن مدام بوافان: إن «كتابتها تدل على أنها كانت من أعلم الأطباء. ولما كانت قد حظِيَت بممارسة المهنة على نطاقٍ واسع جدًّا فإن عِلمها وخبرتها الإكلينيكية العظيمة ومعرفتها الشخصية أخلق بالاعتماد عليها من جميع الأطباء المذكورين مُجتمعين ...»[17]

آل زيبولد: الأم والابنة

رجينا فون زيبولد، زوجة طبيب في بلاط دارمشتات بألمانيا، وابنتها شارلوت فون زيبولد (١٧٦١–١٨٥٩م)، كلتاهما حصلتا على لقب «دكتور في التوليد» من جامعة جيسن. وكانت الأم قد حصلت في وقتٍ سابق على دبلوم القبالة من مدرسة للقابلات في فيرزبورج،

أما الدكتوراه من جيسن فكانت فخرية (١٨١٥م). أما شارلوت التي كانت قد درست في جوتنجن في ١٨١١ و١٨١٢م، فتزوَّجت من جيسن سنة ١٨١٧م وعملت هناك.

وفي سنة تَخرُّج شارلوت فون زيبولد ماتت الأميرة شارلوت الإنجليزية وطفلها معًا أثناء الوضع، وبعد سنتَين دُعيَت شارلوت فون زيبولد إلى إنجلترا لتوليد دوقة كنت التي ستغدو الملكة فيكتوريا، ولو أنها تُركت لرعاية قابلة كالتي تولَّت الأميرة شارلوت لما كُتِب لفيكتوريا أن تتولى العرش.

وعن هؤلاء وغيرهن من القابلات في القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩ تقتبس الدكتورة هيردميد قول هنتر روب: «إنهن لا ينبغي أن يُحكَم عليهن على مستوى القابلات المُنحطِّ في أيامنا؛ فقد كان عملهن هامًّا للغاية، وكانت تجرِبتهن وخبرتهن مما لا يكاد يوجد في زمانهن ما يُضارعهما ... إن مثل أولئك القابلات يَفُقن — من وجوهٍ كثيرة — طبيب الولادة المُعتاد حتى في أيامنا هذه ... فملاحظتهن الدقيقة وثباتهن على تقاليد الممارسة والبداهة السديدة ضروريةٌ اليوم كما كانت في القرن ١٨.»[18]

إن «مستوى القبالة المُنحط اليوم»، الذي وصفه روب سنة ١٨٩١، هو المسئول — إلى حدٍّ كبير — عن اختفاء القابلات عمليًّا منذ أوائل القرن ٢٠ في البلاد المتقدمة. ولكن في السبعينيات، وبسبب العجز في عدد أطباء التوليد المُحترفين، بدأ الناس يُشجعون التدريب على القبالة، وبدأت القابلات يظهرن باعتبارهن عناصر شِبه طبية عالية التدريب.

القسم الثاني

النضال في سبيل حقوق النساء في الطب

الفصل الرابع

الدكتورة باري

إن الصعاب التي واجهت امرأة القرن ١٩ المُصمِّمة على تحصيل تعليم طبي والوصول إلى مكانةٍ مهنية، والمدى الذي كان عليها أن تذهب إليه في كفاحها في ذلك السبيل، إنما تُصوِّره جيدًا وتُمثِّله حالة الدكتور جيمس باري (١٧٩٧–١٨٦٥م).

فعندما تُوفي الدكتور باري تبيَّن من تشريح الجثة أن «سيادته» لم يكُن امرأة فحسب، بل وكان أيضًا أمًّا لطفلٍ واحد على الأقل. وكان تَخفِّيها — الذي استمرَّ أكثر من نصف قرن — أمرًا يصعب تصديقه؛ فلا بد أنها كانت مُمثلةً بارعة؛ لأن الدكتور جيمس لم يَخدُم كمُفتش عام للجيش البريطاني من ١٨٥٦–١٨٦٥م فحسب، بل صار أيضًا نائب رئيس القسم الطبي بالجيش.

وتاريخ جيمس باري (واسمها الأصلي غير معروف) قبل ذلك اليوم من سنة ١٨١٢م الذي برزت فيه وفي يدها دبلوم من جامعة إدنبره يَلفُّه الغموض. وكما عبَّر عن ذلك الدكتور ألفريد سوين تيلور: «متى وأين وكيف قضى باري دراسته الطبية، ذلك أمرٌ غير معروف، ولكنه تمكَّن من الحصول على دبلوم يُفيد أنه دكتور في الطب من إدنبره وهو في الخامسة عشرة من عمره فقط.»[1]

ولكن هذه الطبيبة كانت حتمًا ذات حسَب ونشأة؛ فما إن تبيَّن جنس الدكتور باري بعد وفاته على حقيقته حتى نشِطَت طواحين الشائعات تطحن بكل نشاط، وأُشيعت الأقوال بأنها ابنةٌ غير شرعية للأمير الوصي على العرش من سيدةٍ اسكتلندية معروفة، وهذا يتَّفق وسُمعة من صار — فيما بعد — الملك جورج الرابع. ولما كانت الأم المُجلَّلة بالعار مُدرِكةً أن هذه الأنثى التي لا حاميَ لها ستُضطرُّ إلى شق طريقها في عالم الرجال؛ لذا قرَّرت أن تُزودها بكل مميزات الرجال.

وهذا لا يقتصر على الزي والتعليم العام، بل امتدَّ أيضًا إلى إعدادها لدخول مدرسة طبية. ويروج الدكتور «لافجوي» هذه الصورة بافتراض أن الدكتور باري «لعلها تنتمي إلى ذلك الطِّراز العُذري من النساء الذي يتمثل جيدًا في مهنة الطب، وهذا النمط من النساء يتقزز من العلاقات السوية في الحياة، ويَهرُب إلى مجالاتٍ شتَّى من الخدمة.»[2]

ومهما يكن من أمر خلفية الدكتور باري ودوافعها، فالذي يبدو واضحًا أن الناس تقبَّلوها على النحو الذي قدَّمت نفسها به إليهم، وقد وصفها الجنرال الإنجليزي جورج توماس، إيرل أليمول كما بدت له في سنة ١٨١٩م، بهذه الكلمات: «كان ثَمة شخص في ذلك الوقت في رأس الرجاء الصالح له تصرفاتٌ مُتطرفة استرعت انتباه الجميع، وهو الدكتور جيمس باري، وهو جرَّاح الحامية والمُستشار الطبي للحاكم. وقد وصفه لي لورد تشارلز (سومرست) بأنه أبرع الأطباء وأشد الرجال تمردًا وتقلبًا ... وبعد ذلك بقليلٍ جلست بجواره على العشاء في أحد مطاعم الفرقة ... فكان أسلوبه في المحادثة أرقى مما يُسمع عادةً على موائد الجيش في تلك الأيام التي كانت امتحاناتها غير تنافسية.»[3]

وكان تَرقِّي الدكتور باري في الجيش لافتًا للنظر. يقول الدكتور برانتون: «في الواقع أن تَرقِّيَها كان أشبه بقفزات القنغر، فكانت أحيانًا تقفز درجتَين في المرة الواحدة.»[4] وفي سنة ١٨٢٧م كانت قد ارتفعت إلى رتبة رائد جرَّاح.

كانت تتقلد سيفًا وتستخدم المِبضع ببراعة، وتنقَّلت في أصقاعٍ كثيرة من الكرة الأرضية. وكانت أساليبها في الجِراحة تدل على تمكن، وكسبت لها استحسان أندادِها. ومع أنها لم تَظفر بأي نوط أو لقب شرف من أي نوع، إلا أن شجاعتها — ولا سما في «واترلو» و «بلاكلافا » — استحقَّت التسجيل والتنويه. وشاركت في الخدمة العسكرية في أوروبا وجنوب أفريقيا وكندا وجمايكا والهند، ولعلها كانت في سكوتاري (بتركيا) سنة ١٨٥٤ في الوقت الذي كانت فيه هناك فلورانس نايتنجيل.

ولا شك أن الروغان من نظرات الجيش النفَّاذة في الميدان عملٌ خارق. وقد قضت الدكتورة باري أكثر من خمسين سنة عضوًا في هيئة ضباط الجيش ممتازة من غير أن يتضح سرها، رغم قِصر قامتها ونحافة بنيتها وصوتها الحاد الذي يميل للصرير، مما كان يثير عليها سخرية زملائها الضباط. ولكن الدكتورة باري تدربت حتى صارت تحذق إصابة الهدف، وكل من عرَّض في استخفافٍ بذقنها الأجرد وميلها للعزلة وشدة عنايتها بزيها أو رفضها شرب الكحول بأي صورة، كان يتعرض لدعوتها إياه للمبارزة بالمسدسات. وفي إحدى المناسبات التي وصلت إلينا أنباؤها ضاقت بمضايقات أو مغايظات

أحد الضباط، فدعته للمبارزة وأصابته في رئته، وقد جرح الدكتور باري نفسه في مبارزة بعد ذلك.

كانت سريعةَ الغضب، مما أدى إلى اشتباكها في عدد من المشاجرات. وكثيرًا ما وُصفت بعدم الطاعة للرؤساء، وفي مناسبات كثيرة أعيدت إلى بيتها تحت التحفظ، كي تواجه إجراءات المحاكمات العسكرية، بيد أنها كانت تُعاد للخدمة بدون عقاب. والواقع أنه لم يكن من غير المألوف لها أن تحصل على ترقية في الطريق. وهذه المحاباة تغدو مفهومة عندما تدرك أن شجاعتها لم تكن موضع شك، وكذلك ولاؤها للواجب وبراعتها كطبيب.

وقد رفضت الدكتور باري العلاج الطبي في مرضها الأخير. ولما كشف فحص جثتها أنها امرأة، استبدَّ الغيظ والغضب بالرسميين في وزارة الحرب وفي قيادة القسم الطبي المشهورة بمحافظتها، وعجزوا عن تجاهل الحقيقة.

فلا جدوى من الاحتجاج بأنها كانت رجلًا بلا شك، لأن سجلات الجيش تقول ذلك، ولأن شعرها كان قصيرًا، وكانت تلبس بنطلونًا، ولما كان نبش رماد الموتى مما لا فائدة فيه، فقد قررت السلطات أن الدكتور باري رجل، وذكروا ذلك في شهادة الوفاة، وعلى صحيفة الرخام فوق قبرها في كنسال جرين بلندن.

وذهب بعض الناس إلى أن هؤلاء الرجال في وزارة الحرب كانوا يعرفون حقيقتها طيلة الوقت، وأن هذا هو السر في محاباتها. ومهما يكن من شيء فقد اختفت كل مدوناتها بصورة غامضة.

الفصل الخامس

الخطوات الأولى: دكتورة هنت، دكتورة فولجر، دكتورة كلارك

في الولايات المتحدة بدأت الحركة الحديثة لقَبول المرأة في المهنة الطبية، ويُعزى — وبحق — نجاحها النهائي إلى وجود الرائدات المُبجَّلات من مثيلات الشقيقتَين بلاكويل وماري زاكرتزويسكا وماري بوتمان جاكوبي وإميل دننج بارنجر، ولكن سبقَتهنَّ نساء مهَّدن لهن الطريق.

ومنذ زمن الهجرة إلى العالم الجديد عند بليموث روك والنساءُ والرجال يُمارسون الطب على السواء في نيو إنجلند. وكان هذا ينبغي أن يكون مُتوقعًا؛ ففي أيام الاستيطان والتعمير كان النساء يعملن جنبًا إلى جنب مع الرجال في الحقوق والحوانيت، وكانت الزوجات والأمهات يحملن على كواهلهن مسئولية العناية الطبية للأسرة.

وفي تلك الأيام لم تكُن ثَمة مدارس طبية، وكثير من الأطباء علَّموا أنفسهم بأنفسهم، والشبان كانوا يَغْدون أطبَّاء بعد فترة تمرين لدى طبيب مُمارس. ولم تكُن أمام النساء فرص من هذا القبيل، فظلَّت خِدماتهن على أساسٍ دون المهني إلى أن تولَّى تعليمَهن أطباءُ مُعيَّنون، ولا سيما من الكويكر، ولسوء الطالع لم تُحفَظ لنا من أسماء أوائل الطبيبات إلا قلة.

وأول اسم لأنثى مارست الطب وصل إلينا هو اسم «الدكتور» ميليكين، من ماونت ديزرت، في مين. وفي ميريلاند في أوائل القرن ١٧ برزت كاثراين هبدن زوجة توماس الذي كان يبيع العقاقير والأكفان، ويبدو أنها مارست الصيدلة والطب معًا. وتدل السِّجلات على أنها تلقَّت تسعمائة رطل من الطباق من المدعو رتشارد لورانس مُقابل خدمة طبية، وأنها «أجْرَت جِراحة في ساق الدكتور جون جريتويل … وأنها تولَّت تغذيته لمدة سبعة أسابيع أو نحوها.»[1]

ومسز فرانس كومز، وهي التي تمرَّنَت لدى أول طبيب في كنتوكي وهو جورج هرت، مارست الطب في وقتٍ مُبكر إلى سنة ١٧٨٠م. وقد وصفوها بأنها «امرأةٌ ذات ذهن قوي، وأصالة — أو طرافة — في المَسلك كبيرة، وخصوبة في القريحة، وقوة في الطبع، وشُهْرتها كجرَّاحة وطبيبة ومُولِّدة قد امتدَّت فيما وراء حدود الولاية.»[2]

وشرعت الدكتورة ماري لافندر (١٧٧٦–١٨٤٥م) في ممارسة التوليد وطب الأطفال في سافانا بجورجيا سنة ١٨١٤م. وبعد أمدٍ قصير اجتاح المدينةَ وباءُ الحُمى الصفراء فقضى على نسبةٍ كبيرة من أهلها، بالإضافة إلى حريقٍ كبير وعاصفةٍ استوائية، فأنشأت الدكتورة لافندر خدمة لزيارة المرضى الفقراء وعملت فيها كمُمرضة وطبيبة. وكان الأطباء المحليون يحترمونها أجلَّ احترام. وتضمَّن تأبينها تخليدًا لذكرى خدمتها المثابرة بلا كلل للمجتمع؛ «ففي كل يوم من أيام السنة كانت عربتها ذات المقعد الواحد بحِصانها الأبيض الشهير (وهو تقريبًا في مِثل سن سيدته) تُشاهَد ضاربةً في الطُّرقات المُتعرجة بين حارات المدينة مُحمَّلةً بالبُن والسكر والشاي والبرغل، بل وأحيانًا بالحشايا والبطاطين للفقراء والمرضى. وكانت تعمل لهم طبيبة ومُمرضة ومُدبرة بيت ومُوزعة صدقات، وتقوم أخيرًا بالتسرية الرُّوحية عنهم أيضًا ...»[3]

ودرست الدكتورة سارة ا. آدمز (١٧٧٩–١٨٤٦م) من كارولينا الجنوبية الطب تحت إشراف الدكتور ملتون أنتوني مؤسس كلية طب جورجيا، وأسست لها عيادة في أوجستا، قبل مائة سنة تقريبًا من قَبول الجمعية الطبية في ولاية جورجيا لأول امرأة في عضويتها.

هاريوت ك. هنت

ولما أُنشئت مدارس الطب الأمريكية سارت على النهج الأوروبي العام، الذي كان يمنع المرأة من التقدم للحصول على درجةٍ علمية في الطب؛ ولهذا السبب شرع عددٌ من النساء في الممارسة بدون مزيَّة الدرجة العلمية، وهي المُؤهِّل الوحيد الذي يسمح لهن بالتجربة العلمية. وازدهرت كثرة هؤلاء الممارسات، ولكن ذلك لم يجعلهن أقل استعدادًا للنضال في سبيل تعليم طبي بمعنى الكلمة.

ومن بين النساء اللاتي مارسن الطب بدون دبلوم هاريوت ك. هنت (١٨٠٥–١٨٧٥م) التي استقرَّت في بوسطن سنة ١٨٣٢م، وسرعان ما حذا كثيراتٌ حذوها. وكان إسهامها في القضية النسوية الطبية هو النضال الذي كافحت به منذ عام ١٨٤٧م لقبول

النساء في مدرسة الطب، وباتت محاولتها بلا جدوى حتى ١٨٥٠م حين أقدم عميد مدرسة الطب بهارفرد — وهو أوليفر وندل هولمز (والد فقيه القانون المشهور) — على عرض طلبها للقبول في كلية الطب. وبحسب رواية الدكتور لافجوي وجدت الكلية أنه ما من سبب في اللوائح يحرم المرأة حق حضور محاضرات في الطب. وقال الأعضاء إن الدكتورة هنت في وُسعها أن تحضر المحاضرات، ولكنهم لم يتقيدوا بقرار فيما يتعلق بالدرجة،[4] ولكن الطلاب قابلوا ذلك بقراراتٍ اضطرَّت الدكتورة هنت للانسحاب:

- تقرَّر أنه ما من امرأةٍ تتمتع بحياءٍ حقيقي يمكن أن ترضى بالحضور بين الرجال أثناء المناقشات في موضوعاتٍ يتحتم أن تَرِد في مجال طالب الطب.
- وتقرَّر أننا نعترض على أن تُفرَض علينا صحبة أي أنثى مُصمِّمة على تجريد نفسها من جنسها والتضحية باحتشامها بالظهور بين الرجال في قاعة المحاضرات.[5]

وهناك كاتبٌ آخر هو الدكتور كارول لوبات، يُقدم صورةً مختلفة قليلًا جدًّا لما حدث عندئذٍ: إن جامعة هارفرد نفسها حاولت سنة ١٨٥٠م أن يكون التعليم بها مشتركًا، تحت عمادة أوليفر ويندل هولمز، فقبِلَت امرأةً واحدة وثلاثة طلبة زنوج.

وكان رد الفعل لهذا الاندفاع الليبرالي (التحرُّري) أن تمرَّد الطلبة وأثاروا شغبًا. ومع أن الاحتجاج الأساسي كان ضد قبول الطلبة الزنوج إلا أن المرأة — وهي مس هاريوت هنت — تحتَّم عليها أن تسحب طلب التحاقها أيضًا.»[6]

ولكن القرارات، وهي خالية من الإشارة إلى الزنوج، تبدو مؤيدة لتصوُّر الدكتور «لافجوي» لا الدكتور لوبات.

ليديا فولجر فاولر

وفي حوالَي ذلك الوقت الذي حاولت فيه هاريوت هنت أن تدخل هارفرد، كانت ليديا فولجر فاولر (١٨٢٢–١٨٧٩م) تُحاول أن تجد مدرسة لها في نيويورك، وكانت خلفيَّتاهما مُختلفتَين؛ فقد وُلِدت ليديا فولجر في نانتوكيت، وهي جزيرةٌ بعيدة عن ساحل ماساشوستس، ويمكن تعقُّب نسب أسرتها إلى جون فولجر الذي وصل إلى أمريكا سنة ١٦٣٥م في سن السابعة عشرة (وكان جون فولجر بالصدفة جد بنيامين فرنكلين لأمه)، وكان معظم آل فولجر مُعلمين ومُفكرين وعلميين؛ ولذا حظِيَت ليديا بتعليم ليس في متناول عامة النساء.

وتزوَّجت ليديا وهي في الثانية والعشرين، وكان زوجها لورنزو نايلز فاولر شديد الإيمان بفِراسة الجمجمة، وهي العلم المزعوم الذي يدَّعي أن الخواصَّ العقلية والطبع يمكن استنباطهما من نتوءات الجمجمة. وسرعان ما تعلَّقت ليديا بذلك العلم المزعوم، وحاضرت مجموعات من النساء لا في الفِراسة فحسب، بل أيضًا في التشريع والفسيولوجيا وأصول الصحة العامة، وألَّفت كتبًا أولية في هذه الموضوعات وما يتصل بها، ومن بينها دروسٌ مبسَّطة في الفلك (١٨٤٧م) ودروسٌ مبسَّطة في الفسيولوجيا (١٨٤٨م). وبسبب احتكاكها عن كثب بالمسائل العلمية وشبه العلمية اتجهت أفكارها صوب الطب، ولكن أين عساها تذهب لتتعلم وتحصل على درجةٍ علمية في الطب؟ إن إليزابث بلاكويل — كما سنرى فيما بعد — قُبِلت بضربةِ حظٍ أشبه بالفلتة في كلية جنيفا بنيويورك في نوفمبر ١٨٤٧م، وتخرَّجت في شهر يناير ١٩٤٩م، ولكن المؤسَّسات الرسمية الطبية بوجهٍ عامٍّ كانت ترفض قَبول النساء.

كانت هذه هي الفترة التي بدأ فيها النساء النضال في سبيل حقوقهن. وفي أول مؤتمر عُقِد في «سنيكا فولز» بنيويورك في سنة ١٨٤٨م حرَّرن ثمانيَ عشرة مُظلمة في «إعلان المشاعر» صُغْنه على غِرار «إعلان الاستقلال». وقد وقَّع ذلك الهجومَ مائةٌ من الراديكاليات (أي المُتطرفات) فحظِي ذلك الإعلان بكثير من الدعاية، ومعظمها سيئ، ولكن مجموعتَين من رجال الطب المُستقلِّي الرأي إحداهما في روشستر والأخرى في سيراكوزة، وكانتا تُنظمان مدرسةً جديدة للطب هي كلية الطب المركزية بنيويورك في سيراكوزة قرَّرتا انتهاج سياسة التعليم المختلط، ولما فتحت أبوابها في ٥ نوفمبر سنة ١٨٤٩م كانت ليديا فولجر فاولر إحدى ثلاث نساء من مجموع المقبولين، وهو اثنان وتسعون طالبًا.

وكانت سمعة الكلية سيئة؛ لأنها تُناصر عقائد طبية غير مقبولة بوجهٍ عام من رجال الطب الرسميين، مثل الانتقائية والمعالجة المثلية. والانتقائية هي تَخيُّر ما يبدو أفضل السمات من واحد من الأنظمة الطبية المتنافسة، مع الإلحاح على استخدام العلاجات النباتية. والمعالجة المثلية تقوم على افتراض أن الشبيه يشفي الشبيه، وتدَّعي أن العقاقير التي تُحدِث أعراضًا مُعيَّنة مُحدَّدة في الأصحَّاء خليقة أن تشفيَ الأمراض التي تُحدِث نفس هذه الأعراض، وبشرط إعطاء هذه العقاقير بجرعاتٍ غاية في الضآلة. ولم تُعمَّر الكلية الطبية المركزية طويلًا؛ لأن مُؤسِّسيها سرعان ما اختلفوا حول أهدافها وكيفية إدارتها. وفي مدى سنة كانت قد انشقَّت إلى كلية روشستر الطبية الانتقائية (التي أُغلقت سنة ١٨٥٢م)، وإلى كلية سيراكوزة الطبية الانتقائية التي عُمِّرت حتى ١٨٥٥م، ولكن الكلية استمرَّت مدةً كافية لمنح درجة الدكتوراه في الطب إلى ليديا فولجر فاولر سنة ١٨٥٠م.

وبعد عام عُيِّنت الدكتورة فاولر أستاذًا للقبالة وأمراض النساء والأطفال في كلية روشستر؛ وبذلك صارت أول امرأة تشغل كرسي الأستاذية في مدرسةٍ طبية مُرخَّص بها قانونًا في الولايات المتحدة. وفي صيف سنة ١٨٥١م خطبت في جمعية الطب الانتقائي بنيويورك، فكانت أيضًا أول مرة تظهر فيها امرأةٌ أمام جمعيةٍ نظامية للأطباء.

وبعد أن أغلقت كلية روشستر أبوابها سنة ١٨٥٢م مارست الدكتورة فاولر الطب في نيويورك سيتي لمدة إحدى عشرة سنة، وكانت في الوقت نفسه تُحاضر فصولًا من النساء في كلية الطب المتروبوليتان الانتقائية، وكانت محترمة جدًّا كطبيبة ومُحاضِرة وكاتبةٍ طبية اجتماعية. ومما لا شك فيه أنها كانت حقيقةً أن تحظى بمستقبلٍ طيب لو لم يُقرِّر زوجها الانتقال إلى لندن ليُمارِس فيها فِراسة الجماجم. وكانت النقلة مُجْدية عليه؛ لأن الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت توَّجا فِراسة الجماجم بإقرارهما إيَّاه حين سمحا بقراءة جماجم أطفالهما، ولكن هذه النقلة كانت سببًا في إسدال ستائر النسيان على ليديا فاولر؛ لأنها لم تستطع أن تُثبت نفسها هناك فيما يبدو، وماتت في لندن بالالتهاب الرئوي وهي في سن السابعة والخمسين.

نانسي تالبوت كلارك

في أواخر الأربعينيات من القرن التاسع عشر، أصدرت ولاية ماساشوستس قانونًا يُطالِب بتعليم الفسيولوجيا في جميع المدارس العامة بالولاية، وسبَّب هذا مشكلة للنساء اللواتي يُرِدن تعليم البنات؛ لأن قِلة منهن هن اللواتي يمتلكن المُؤهِّل الضروريَّ لتدريس هذه المادة، ولكن نانسي تالبوت كلارك (١٨٢٥–١٩٠١م) — وهي أرملةٌ شابَّة لطبيب أسنان — قرَّرت أن تُؤهِّل نفسها لذلك.

وكانت الفسيولوجيا تُدرَّس في كليات الطب، ولكن ما من كليةٍ كانت تَقبَل التلميذات، ومع هذا قرَّرت أن تُحاول على كل حال. وعن طريق أقاربها قدَّمت نانسي طلبًا للقبول في كلية طب كليفلند. وكانت المدرسة قد تأسَّست في أوائل الثلاثينيات كقسمٍ طبي من كلية «وسترن ريزيرف»، ولكنها ظلَّت قائمة بالاسم فقط حتى نوفمبر سنة ١٨٤٤م.

وقد يكون طلب مسز كلارك هو الحافز إلى عقد اجتماع للكلية في ١٢ فبراير سنة ١٨٥٠م، اقترح فيه «قبول السيدات المحترمات في المحاضرات على قدم المساواة مع الرجال المهذبين». ولكن عندما قُدِّم اقتراحٌ آخر بأن يتضمن ذلك أيضًا قبول الزنوج المحترمين لم

يحصل أيٌّ من الاقتراحَين على الموافقة.[7] ومع هذا وبدون خطوة رسمية أخرى من جانب الكلية، قُيِّدت مسز كلارك في عام ١٨٥٠–١٨٥١م.

وبعد ابتداء العام الدراسي بيومٍ واحد — في ٥ نوفمبر سنة ١٨٥١م — تراجعت الكلية وأصدرت قرارًا بالإجماع بأنه من غير اللائق قبول طالبات في المحاضرات،[8] ولكن هذا القرار لم يُطبَّق على مسز كلارك التي مكثت حتى تخرَّجت في مارس ١٨٥٢م.

وكانت الدكتورة كلارك قد تخلَّت في ذلك الحين عن فكرة التعليم، وشرعت تُمارس الطب في بوستن سنة ١٨٥٢م. وفي السنة التالية تقدَّمت بطلب للعضوية في جمعية ماساشوستس الطبية، وكانت الطبيبات الأخريات في المنطقة لا يتمتعن مثلها بمِيزة حمل درجة في الطب من مدرسةٍ نظامية رسمية. وهذا الفارق قد لا يؤثر على المرضى، ولكنها رأت فيه إسفينًا تقتحم به أبواب جميع جمعيات الذكور الطبية.

ومن حيث الشكل كانت مُؤهَّلة للعضوية؛ فقوانين جمعية ماساشوستس الطبية لا تشير إلى جنس العضو (فلم تكن هناك طبيبات ليدخلن في الاعتبار عند سن القانون)، ولكن بعض الاحتياطات في القانون كانت تنصُّ على منع الظلم عن «رجال الطب»، فاستندت الجمعية على ذلك، وأرسلت تعليماتها إلى الجمعيات الإقليمية التابعة لها، والتي تقدم الطلبات عن طريقها، بألا تنظر إلا في طلبات الذكور فقط.

وهكذا انتصرت نانسي تالبوت كلارك في نضالها للحصول على تعليمٍ طبي، ولكنها خسِرت معركتها للحصول على مساواة في الوضع الاجتماعي.

الفصل السادس

إليزابث بلاكويل

في أكتوبر سنة ١٨٤٧م تلقَّى الدكتور تشارلز أ. لي، عميد كلية جنيفا الطبية الواقعة في شمال ولاية نيويورك، رسالة من الدكتور جوزيف وارنجتن بفيلادلفيا تُوصي بسيدةٍ شابَّة اسمها إليزابث بلاكويل، كانت تدرس دراسةً خاصة في عيادته، وكانت هذه السيدة قد كتبت إلى معظم المدارس الطبية الكبرى طلبات لقبولها بها فرفضتها جميعًا. وقال الدكتور وارنجتن إنه «بما أن جنيفا في الأرياف، فعسى أن تكون أكثر تحررًا من التحامل من مدارس المدن الكبرى، ولعلها تنظر في تسجيل طالبة بها.»[1]

والعميد لي سيدٌ ريفي مُتقدم في السن عصبي المزاج؛ لذلك حمل مشكلته إلى رئيس الجامعة بنيامين هيل الذي كان ضد الاقتراح، ولكنه لم يشَأ أن يرفض رجاء الدكتور وارنجتن بطريقٍ مباشر؛ فالدكتور وارنجتن من طائفة الأصحاب «الكويكر». وقد قال الدكتور هيل للدكتور لي إن الكويكر يتوقعون من الآخرين أن يُشاركوهم آراءهم التحرُّرية، ولكنه وجد له مَخرجًا؛ فالطلاب معظمهم من فِتيان الريف القادمين من القُرى والمزارع المُجاورة، وفيهم طِيبة قلب إلا أنهم ميَّالون للفظاظة، فلن يُطيقوا وجود أنثى بين صفوفهم؛ فالأوفق أن يُترَك القرار للطلبة ثم يُخطَر الدكتور وارنجتن (بكل أسف) بقرارهم.

وطرح الدكتور لي الموضوع على هيئة الطلبة، وبيَّن لهم أن القرار بالقبول يجب أن يَصدُر بالإجماع، وطلب منهم الإسراع بالاقتراع. وكانت ثقته بنتيجة الاقتراع تكاد تُضارع ثقة الدكتور هيل، ولكنهما لم يُدخِلا في حسابهما طريقة تفكير أبناء الفلَّاحين والتُّجار والميكانيكيين هؤلاء، الذين كانوا يدرسون بجِدٍّ أسابيع كثيرة مع قليل جدًّا من الراحة. وبدا الاقتراح مُبشرًا بإثارة كافية لجذب اهتمامهم، وتعاقبت الخُطب، بعضها جادٌّ وبعضها

ساخر، وبعضها هازل؛ فاستمرَّ التداول حتى المساء، وكانت النتيجة قرارًا إجماعيًّا بأن الآنسة إليزابث بلاكويل يجب أن تُقبَل زميلةً لهم في الدراسة.

وصُعِق العميد، فلم يَخطُر بباله أن هيئة الطلبة قد ترى في قبول طالبة أنثى تسريةً لطيفة، ولا خطر لإليزابث بلاكويل خاطر كهذا عندما تلقَّت نسخة من قرار الترحيب الذي نصه:

> «نُقرر: أن أحد مبادئ الحكومة الجمهورية أن يكون التعليم شاملًا للجنسين كليهما، وأن باب كل فرع من فروع التعليم ينبغي أن يكون مفتوحًا أمام الجميع، وأن طلب إليزابث بلاكويل بأن تغدوَ عضوًا في فرقتنا يُقابَل بموافقتنا التامة. وإننا إذ نُبْدي هذا الترحيب الإجماعيَّ نتعهد بأنه لن يكون في سلوكنا شيءٌ يجعلها تندم على القدوم إلى هذه المؤسسة.»[2]

الأيام الأولى

وُلِدت إليزابث بلاكويل (١٨٢١–١٩١٠م) في بريستول بإنجلترا، وهي ابنة صمويل بلاكويل. ولم يكُن مستر بلاكويل عضوًا في كنيسة إنجلترا فحسب، بل كان مُنشقًّا عاليَ الصوت على الكنيسة الإنجليكانية. وفي الثلاثينيات من القرن ١٩ كانت المدارس الجيدة الوحيدة هي التي تُديرها الكنيسة بإنجلترا، وكان أبناء المُنشقين عليها ممنوعين من دخولها، وكان مستر بلاكويل يريد لأطفاله — بنين وبنات على السواء — أن يحظَوا بتعليمٍ جيد جدًّا، فتوصَّل إلى ذلك باستخدام المُؤدِّبين، ولكن مستر بلاكويل كان — كالكثيرين ممن هم على شاكلته — يرنو بشوق إلى العالم الجديد وما فيه من حرية التفكير وغير ذلك من المُثل الديمقراطية. وفي سنة ١٨٣٢م دمَّرت النيران معمل مستر بلاكويل لتكرير السكر في بريستول، فكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها، وقرَّر أن يبنيَ مصنعه الجديد في أمريكا.

وقد وجد آل بلاكويل في القُطر الجديد أصدقاء من بين الناس الذين يُشاركونهم أفكارهم عن مشكلات زمنهم؛ أي من أنصار إلغاء الرِّق وزعماء حركة المطالبة بحقوق المرأة. وفي سنة ١٨٣٨م انتقلوا إلى سنسناتي، وهي يومئذٍ مدينةٌ صغيرة، ولكنها مُزدهرة على نهر أوهايو، وقد تمَّت الرحلة من نيويورك بزَورق في قناة، ثم بعربة للسفر على مراحل، وبزَورق في النهر.

وما كادت الأسرة تستقرُّ في سنسناتي حتى تُوفي مستر بلاكويل تاركًا زوجته وأطفاله التسعة في ضِيق، وسرعان ما وجد الابن الأكبر هنري عملًا في محكمة سنسناتي، بيدَ أن مكاسبه لم تكُن كافية لمصروفات البيت، فكان من الضروري أن تصنع البنات الثلاث الكبيرات (آنا وماريان وإليزابث) شيئًا ما، ولكن ما هو؟

وكما لاحظ جون بليك أمين المكتبة القومية للطب: «كان العملان الوحيدان المفتوحان أمام المرأة المُتعلمة هما: الكتابة — وقليلون من الجنسَين من لديهم الموهبة الكافية للكتابة — ثم التعليم. ولما كانت لجان المدارس قد اكتشف أنها تستطيع استئجار النساء بنصف الأجر الذي يطلبه الرجال أو أقل، فقد خطر لهم أن النساء هن — بعد كل شيء — المُعلمات الطبيعيات للصغير ... ولذا بدأت كثيرات من زعيمات حركة المطالبة بحقوق المرأة، وكثيرات من أوائل الطبيبات في أمريكا، حياتهن العملية مُدرسات.»[3]

وافتتحت الشقيقات الثلاث مدرسةً داخلية للشابَّات، وصارت إليزابث بنت السابعة عشرة، والتي لا يكاد طولها يتجاوز خمس أقدام، ضابطة النظام. وبعد أربعة أيام حصل الشقيقان الأكبران على عملٍ مُستقر يكفي لاحتياجات الأسرة، فأغلقت الأخوات الثلاث المدرسة.

وفي ذلك الحين كانت إليزابث «واحدة من نساء الجيل الجديد الساخطات»، وقد ضاقت بما تراه من مشكلات التعليم النسوي،[4] وصارت تقبل التلميذات في دروسٍ خاصة حتى سنة ١٨٤٤م عندما تلقَّت عرضًا لتتولَّى تنظيم مدرسة للبنات في هندرسون بولاية كنتوكي. وأسرعت بالقبول، ولكنها لم تلبث إلا فترةً دراسية واحدة في هندرسون؛ فالحياة في اتصالٍ مباشر بالرق كانت أقسى من احتمال إليزابث نصيرة إلغاء الرق.

«إن كراهيتي للرق تزداد في كل يوم.» هكذا كتبت يوم ٤ من أبريل سنة ١٨٤٤م ... «وأحسبني أشاهد الرق هنا في أشد صوره تلطفًا ... ولكن الحياة وسط كائنات تُمتهن كرامتهم إلى أقصى حدٍّ جسديًّا وعقليًّا، كائنات تكدح من بكرة الصباح إلى مَوهِن من الليل، ويزجرهم ويصفعهم كل إنسان، ويتلقَّون التوبيخ طول النهار، ويُلامون بلا مُسوغ، وليس لديهم الهمة على الرد، وليست هناك أي مراعاة لمشاعرهم، ولا أمل لهم في المستقبل، رائحتهم فظيعة، وكل ما يمسُّهم قبيح كالشيطان ... إن الحياة وسط هؤلاء وأنا عاجزة تمامًا عن مساعدتهم لأمرٌ بغيض إلى نفسي جدًّا، ولن أبقى طويلًا هنا بأي شكل.»[5]

واستقالت من عملها، وعادت إلى سنسناتي حيث آل بيتشر وآل ستو وآل تشانتج، الذين يُشاركونها أفكارها ومشاعرها.

قرار العمل

وقبل مُضيِّ مدة طويلة على عودتها إلى سنسناتي قالت لها صديقةٌ مريضة بالسرطان وهي تحتضر: «أنتِ شغوف بالدرس، ولديكِ الصحة ووقت الفراغ، فلماذا لا تدرسين الطب؟ لو أن من يُعالجني طبيبةٌ سيدة لكانت جنَّبتني أسوأ آلامي.» ورفضت إليزابث الفكرة وعدَّتها مُستحيلة، قائلةً إنها: «تكره كل ما يتَّصل بالجسد، ولا تُطيق رؤية كتاب طبي.»[6]

وحاولت إليزابث أن تطرد الفكرة من ذهنها، ولكن الفكرة أبَت أن تُفارقه، لم تكُن هي نصيرةً مُتحمسة لحقوق المرأة فحسب، وإنما لم تكُن امرأةً أمريكية في عام ١٨٤٥م قد انتظمت بمدرسةٍ أمريكية للطب، وكما كتبت فيما بعد: «إن قوةً أعظم مِراسًا من نفسي بدأت تقودني وقتئذٍ وفيما بعد، فإذا أمامي هدف لا مناص لي من محاولة بُلوغه.»[7]

وما إن حزمت أمرها على تحطيم التقاليد التي تستبعد المرأة عن مجال الطب، حتى كانت أول خطوة هي الحصول على المال لمصروفات تعليمها، فظلَّت سنتَين تعمل مُعلمة في مدرسة في كارولينا الشمالية أولًا ثم كارولينا الجنوبية. وفي آشقيل قام المُبجَّل جون ديكسون — ناظر المدرسة الذي عمِل فيما مضى طبيبًا — بإقراضها كتبًا في الطب. وفي شارلستون أباح لها الدكتور صمويل ه. ديكسون — وهو طبيبٌ مُمتاز وأستاذ في كلية الطب — استخدامًا مطلقًا لمكتبته الطبية الواسعة، وقام بإرشادها في دراستها علوم الطب الأساسية.

وبحلول صيف سنة ١٨٤٧م كانت إليزابث مُستعدة، وكانت أول نقلة لها إلى فيلادلفيا حيث عملت مع الدكتور جوزيف وارنجتن في عيادته، وحضرت محاضراته، ودرست التشريح في مدرسةٍ خاصة يَملِكها الدكتور ألان، وهو من الكويكر أيضًا. وبدا دخول كلية للطب مُستحيلًا، وكان اقتراح بعض الأطباء أن الأمل الوحيد أمامها أن تتنكَّر في زي رجل، وتدخل مدرسة للطب في فيلادلفيا (حيث يُساندها بعض الطلبة الجديرين بالثقة في هذا التمويه) أو أن تذهب للدراسة في باريس. وقال لها ناصحها الكويكري: «يا إليزابث، لا جدوى من المحاولة؛ فلن تحصلي على القبول في هذه المدارس، ويجب عليك أن تذهبي إلى باريس وتتخذي زي الرجال لتحصلي على المعرفة الضرورية.»[8] وكانت إليزابث مُستعدة للتفكير جديًّا في هذا الاقتراح، وكان صديقها حريًّا أن يُثبِّط عزمها قائلًا في وصف باريس إنها «مدينة فيها إباحيةٌ مُخيفة بحيث تجرح فيها مشاعرك جميعًا ... فالرذيلة فيها هي المناخ العام.»[9] ولكن بالنسبة لإليزابث كان خوض «حرب صليبية

خلقية، والسير في طريق العدل والعقل السليم يقتضي المُضيَّ في وضح النهار»؛ ولذلك كان الاقتراحان كلاهما غير مقبول لديها.[10]

وأنفذت طلبات بالالتحاق إلى كل مدرسة طب كبيرة، وكل المدارس الأقل منها مكانة، ولم يُجشم بعضها نفسه مئونة الرد، والردود الواردة كانت معظمها رفضًا قاطعًا، ولكن في ٧ من نوفمبر سنة ١٨٤٧م سُجِّل اسم إليزابث بلاكويل في دفاتر القسم الطبي بجامعة جنيفا.

مدرسة الطب

وفي جنيفا تمخَّضت الأشياء عن أمورٍ تختلف تمامًا عما توقَّعته الكلية وهيئة الطلاب. كانت الكلية تخشى أن ينتهز الطلبة فرصة وصول الآنسة بلاكويل للقيام بحركات شغب أكثر من المُعتاد منهم. وبرغم تَعهُّدهم بألا يَصدُر منهم سلوك يدعوها للندم على القدوم، فقد يكون الطلبة مُبيِّتين في قرارة سرائرهم شيئًا آخر، إلا أن إليزابث الحييَّة المُتحفظة، ولكن في عزم وإصرار، سرعان ما كسبَت إعجابهم، بل ومودَّتهم. وقد قال أحد زملائها في الدرس بعد ذلك بسنين، هو الدكتور ستيفن سميث: «ولأول مرة ألقيت محاضرة من غير أن تحدث فيها أدنى مقاطعة أو شوشرة. وكانت كل كلمة تُسمَع بوضوحٍ تام وكأنها كلامٌ مُوجَّه إلى شخصٍ واحد في الحجرة. وثبت أن هذا التحول المُفاجئ الذي حدث للفرقة من عصابة من المُتهورين المُتمردين على كل قانون إلى سادةٍ مُهذَّبين لمجرد وجود سيدة بينهم أصبح سلوكًا دائمًا بكل آثاره.»[11]

وفي مدى أسبوع أو أسبوعَين من وصولها توجَّه إليها أستاذ التشريح — الدكتور جيمس ويبستر — بالرجاء أن تظلَّ خارج قاعة درسه لِعدَّة أيام؛ لأنه سيُحاضر خلالها عن الجهاز التناسلي. وردَّت عليه إليزابث بخطابٍ انتقَت ألفاظه بعناية، قائلةً إن دراسة التشريح دراسةٌ جِدية، وإن كل فروعها وموضوعاتها تعكس مجد الخالق وحكمته؛ ولذا فهي لا تتصور أن رجلًا مثله كرَّس نفسه للعلم قد يُزعجه أن يكون الطالب رقم ١٣٠ مُرتديًا قبعةً نسائية، ولكن إذا كان ذلك سيُقلِّل من تحرُّجه فإنه ليَسرُّها أن تخلع غطاء رأسها المُتميز، وتجلس في الصف الأخير. ومضت محاضرات التشريح في مسارها ونظامها المُعتادَين، وأصبح الدكتور ويبستر بعد ذلك صديقها المُخلِص، بل وعندما أجفل الدكتور لي أمام فكرة ممارسة امرأة للجِراحة، ساند الدكتور ويبستر حقها في ذلك.

ولئن كان رفاق الفرقة الدراسية والكلية قد قبِلوا وجودها هناك بلا مناقشة، فلم يكُن الحال كذلك من جانب أهالي جنيفا الطيبين الذين عدُّوها إما امرأةً سيئة السمعة وإما مخبولة. وكانت إليزابث مشغولة جدًّا بحيث لم تجد مُتسعًا لإلقاء بالها إلى محاولاتهم نبذها وتجنُّبها، بيدَ أنها وجدت في موقفهم منها إرهاصًا بالتحامل الذي تُزمِع أن تُواجِهه مستقبلًا. وفي يناير سنة ١٨٤٩م كان عليها أن تؤديَ امتحانها النهائي؛ فإذا نجحت في اجتيازه يكون من حقها حمل لقب دكتور في الطب. واستولى الذُّعر على إدارة الجامعة؛ فإن هي منحت الدكتوراه في الطب لامرأةٍ لصارت المدرسة أضحوكة، كما قالوا. وهدَّد الدكتور ويبستر دفاعًا عن إليزابث؛ فهي قد أدَّت رسوم الدراسة وأتمَّت جميع الدراسات الضرورية في كل المواد، فماذا يُراد منها أكثر من هذا؟ وتزعزع موقف الإدارة. وأخيرًا عندما أُعلنت نتائج الامتحانات، وتبيَّن أنها حصلت على أعلى مستوًى في فرقتها، استسلمت الإدارة. وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٤٩م سلَّمها الدكتور هيل درجة الدكتوراه.

لقد عُدَّ حضور إليزابث وتَخرُّجها من جنيفا بمثابة ضربة حظ، ولم تصبح سابقة يُقاس إليها، ولم تتخرج من مدرسة الطب بها سوى امرأة أخرى هي ماري روجرز في سنة ١٨٥٦م. وحتى إميلي بلاكويل (١٨٢٦–١٩١٠م) — وهي شقيقة إليزابث — فقد رفضوا طلب قبولها هناك.

ولئن كانت درجة الدكتوراه في الطب من جنيفا هي كل ما يحتاج إليه رجلٌ كي يبدأ ممارسة مهنة الطب بنجاح، فإن الوقت لم يَطل بالدكتورة إليزابث بلاكويل لتُدرك أن ذلك ليس كافيًا لامرأة، فقرَّرت أن تزور إنجلترا، وبعدها تُحاول مزيدًا من الدراسات الطبية الإضافية في فرنسا.

وكانت مدة إقامتها في إنجلترا أشبه بأعياد نصر؛ لأن مؤهلاتها وكفاحها نُشِر عنهما الكثير داخل وخارج نطاق المهنة، فأُقيمت لها حفلاتٌ كثيرة، وكان عليها أن تحضر محاضرات وتزور مستشفيات.

وأما وصولها إلى باريس فكان نوعًا من خيبة الأمل، فما من أحدٍ كان قد سمِع بها. ولما علِم الأطباء الفرنسيون أن الدكتورة بلاكويل تنوي الدراسة في مستشفيات باريس العامة، عارَضوا الفكرة مُعارضةً حاسمة، فكانت المُؤسَّسة الوحيدة المفتوحة أمامها هي مستشفى الولادة، وهي مَركز للقبالة تدرس فيه فتَياتٌ قادمات من كل أنحاء فرنسا ويتدرَّبن ليُصبحن مُولِّدات. ولما كانت درجة إليزابث العلمية غير مُعترَف بها في نظر السلطة، فسبيلها الوحيد للدخول في المنظمة هو سبيل أي فتاة في الثامنة عشرة تريد أن

تكون تلميذة قبالة. ومعنى هذا أن تكون تحت إشراف صارم، وسجينة عمليًّا، فضلًا عما يُطلَب منها القيام به من أعمالٍ حقيرة. ولم تتردد إليزابث، فما هو وزن الوضع العلمي إذا كان يحول دون فرصتها في دراسة فن التوليد في مستشفًى يولد بها ٣٠٠٠ طفل كلَّ سنة؟ وصادَقها كبير الأطباء المُقيمين إيبوليت بلوت الذي أراها حالاته غير العادية، وأعطاها دروسًا خاصة، وعرفها بالمكتشفات المُثيرة التي توصَّل إليها علماء فرنسيون.

وفي ٤ من نوفمبر سنة ١٨٤٩م وقع حادثٌ كاد يقضي على عملها وهو في مستهله؛ فبينما هي تُعالج طفلًا مُصابًا بالتهابٍ حادٍّ في عينَيه، «طرطشت» نقطة من السائل المُلوَّث بالميكروب واقتحمت عينها اليسرى. وعند المساء كانت عينها قد ورِمت وأقفلت. ولما كان لا يوجد في ذلك الزمن علاجٌ أكيد ضد الالتهاب الحاد في العين، فقد صار موضع التساؤل إمكان إنقاذ إحدى العينَين، ورقدت إليزابث في الظلام ثلاثة أسابيع تحت عناية الدكتور بلوت، وبعد مدة شُفيَت عينها اليمنى، ولكن لم توجد وسيلة لإنقاذ عينها الأخرى التي تحتَّمت إزالتها بعد ذلك ببضع سنين لتجنُّب التهاب العين اليمنى السليمة.

ومضت شهورٌ كثيرة قبل أن تتمكن حتى من استعمال عينها اليمنى السليمة للقراءة، وعندئذٍ علِمَت أنها يجب أن تتخلى عن أمنيتها في أن تكون جرَّاحة. ومن سخرية القدر أن الأطباء الفرنسيين الذين ندموا على موقفهم منها صاروا يدعونها الآن إلى العيادات والمحاضرات في أي مستشفًى تختارها، ولكنها بدلًا من ذلك أمضت فترة استجمام في جرينبرج بألمانيا، وعادت إلى لندن في بداية أكتوبر عام ١٨٥٠م، وهناك سمح لها بالدراسة في أي عنبر، ومتابعة زيارات أي طبيب أو جرَّاح في مستشفى القِديس بارثلوميو ممن يرغبون في إتاحة تسهيلات قِسمه لها.[12] وكان القسم الوحيد الذي مُنِعت من دخوله هو قسم أمراض النساء. وحضرت المحاضرات في المستشفى، بما فيها محاضرات التشريح الباثولوجي التي يُلقيها جيمس باجيت. ويعدُّ هنري جيمس بيجلو جرَّاح نيو إنجلند المرموق محاضرات باجيت غايةً في الأهمية، حتى إنه كان يُسافر أسبوعيًّا من باريس إلى لندن لسماعها.

وفي ذلك الوقت الْتقَت إليزابث بلاكويل بفلورانس نايتنجيل، وهي الابنة الصغرى لأسرةٍ ثرية من الطبقة العليا. ولم يبدُ لإليزابث أنه من المحتمل أن تتمكن فلورانس إطلاقًا من تحطيم الأغلال التي يفرضها عليها مولدها ونسبها وحسبها ومركزها الاجتماعي. وقد اعترفت الدكتورة بلاكويل فيما بعدُ أنها مَدينة لفلورانس نايتنجيل بأنها «نبَّهتها إلى أن صيانة وسلامة الصحة العامة هي الهدف الأسمى من الطب؛ فهي أساسه وإكليله.»[13]

وفكَّرت الدكتورة بلاكويل جديًّا في الاستقرار بلندن، ولكنها كانت فقيرة للغاية، وليس لديها رأسمال تَركَن إليه، وينتابها الفزع من الاستدانة.[14] وفي ٢٧ من يوليو ١٨٥١م أبحرت إلى نيويورك، وهناك اتَّضح لها أن فكرة الاستقرار والشروع في ممارسة المهنة أصعب مما كانت تظن. وكانت المشكلة الأولى هي وجود «مساحة للعيادة»؛ كانت هناك «حجرات كثيرة للإيجار»، ولكن عندما كانت المالكات يعرفن فيمَ ستُستخدم الحجرات كنَّ يُغلِقن الأبواب في وجهها بسرعة، فاضطُرَّت لاستئجار طابق بأكمله في بيتٍ مفروش، وهو أكثر مما تحتاج إليه ومما تستطيع تحمُّل تكاليفه؛ لأنه على حد تعبير مالكة البيت «لا أحد آخر يمكن أن يطلب منه الاشتراك في الطابق مع طبيبةٍ أنثى».[15]

ها هي الآن الدكتورة بلاكويل صاحبة عيادة، ولكن لا مرضى لديها. وكانت لافتتها الصغيرة لا تجلب لها إلا خطابات مُهينة تُصارحها بأنها غير مرغوب فيها في هذا الجوار. وظلَّت كل جهودها عقيمة للعثور على وظيفة بين أطباء المستشفى، فلا قيمة للمؤهلات لأنها امرأة.

ووجدت إليزابث أمامها ساعات طويلة بلا عمل، فشرعت تكتب سلسلة محاضرات عن التربية البدنية للفتَيات، وكان الموضوع قد أثار اهتمام الشقيقات من آل بلاكويل منذ أيام وجودهن في بريستول. ولما تمَّت السلسلة استأجرت إليزابث بدروم كنيسة، ونشرت إعلانًا مُتواضعًا في النيويورك تايمز، فكانت هذه الخطوة نقطة تَحوُّل في حياتها المهنية.

كان عدد الحاضرين قليلًا، ولكنه جمهورٌ ذكي من بيئة مجموعة ذات نفوذ من نساء طائفة الكويكر. ولم تُدهشهن الأفكار المُستنيرة التي أدلت بها هذه الطبيبة فحسب، بل ووافَقنَها على آرائها السديدة في اللبس والتغذية والتدريب البدني والتربية، وكانت النتيجة أنه صارت لديها مجموعةٌ صغيرة خاصة من المريضات الثريات، بيدَ أنها نظرت إلى هذا النجاح على أنه مجرد خطوة نحو الأهداف التي عملت لها بجدٍّ عظيم؛ فقد كانت لها رسالة غلابة؛ أن تُعالِج المحرومين من نساء وأطفال الأكواخ الحقيرة. أجل إن المستشفيات والمستوصفات حاولت أن تُعنى بهم، ولكنها تعتقد أن هذه المؤسَّسات لا تقوم بما فيه الكفاية في هذا السبيل، ثم إنها ممنوعة من العمل عن طريقها. وبمساعدةٍ مادية من بعض الصديقات، فتحت عيادةً صغيرة قُرْب ميدان تومكين على الجانب الشرقي المُنخفض، وهو من أسوأ الأحياء، حيث كانت تقضي هناك ثلاثة أيام كلَّ أسبوع (وفي الليل أيضًا عند الحاجة) لخدمة من لا تَصِلهم مساعدات المدنية. ومن هذه البداية الصغيرة نما «مستوصف نيويورك لفقراء النساء والأطفال» الذي تأسَّس عام ١٨٥٤م.

زملاء ومشروعات

أما وقد صارت إليزابث مُستقرة تمامًا، فقد شجَّعت شقيقتها إميلي على أن تدخل ميدان الطب. ولم يكُن طريق إميلي أسهل من طريقها؛ فقد حضرت الدروس في كلية راش الطبية بشيكاغو خلال عام ١٨٥٢–١٨٥٣م، ولكنها مُنِعت من الاستمرار بقرار من الجمعية الطبية لولاية إلينوي. وعندما منحت كلية الطب بكليفلند عميدها في مُستهل عام ١٨٥٣–١٨٥٤م «حرية التصرف في قَبول الطالبات»،[16] انتهزت إميلي هذه الثغرة على الفور، وتخرَّجت في عام ١٨٥٤م، وكانت إحدى المرأتَين في فرقتها، ثم ذهبت إلى إدنبره لتَدرُس علم الولادة على السير جيمس ي. سمبسون مولد الملكة فيكتوريا. وبعد عودتها إلى نيويورك في عام ١٨٥٦م (في الوقت المُلائم لمساعدة إليزابث في مخاطرتها الأخيرة)، كتب السير جيمس إلى إميلي قائلًا: «نادرًا ما التقيت بطبيبٍ شابٍّ أفضل منك معرفة باللغات القديمة والحديثة، أو أعظم اطلاعًا على الأدب والعلم والتفاصيل العملية لمهنته. واسمحي لي أن أضيف أنك في علاقتك بالمرضى وفي عنايتك وعلاجك الرحيمَين لهم وجدتك امرأة بمعنى الكلمة، كاملة الأنوثة.»[17]

وأثناء غياب إميلي في الخارج وصلت المرأة التي كُتِب لها أن تكون ثالثة المجموعة، وبدون مقدمات طرَقنَ باب إليزابث، إنها ماري زاكر سيفسكا (١٨٢٩–١٩٠٢م)، وهي بولندية في السادسة والعشرين من عمرها، كانت رئيسة المُولِّدات في مستشفى الرحمة ببرلين، وكان في أسرتها ثلاثة أجيال من النساء بين شهيرات القابلات. ولما جاءت ماري إلى أمريكا لدراسة الطب واجَهَتها المُثبِّطات المعتادة، فنصحها الأطباء الألمان أن تتَّجه إلى التمريض، فزادها ذلك تمسكًا بخطتها، ولكن سرعان ما نفدت نقودها، وعندئذٍ أشار عليها شخص في بيت «من لا أصدقاء لهم» بأن تُقابل الدكتورة بلاكويل.

وأُعجبت بها الدكتورة بلاكويل فدعتها للعمل في المستوصف، ودرَّبتها على الإنجليزية التي كانت تتكلمها ماري بتَعثُّر، ورتَّبت لها الذهاب إلى مدرسةٍ طبية. وكتبت إليزابث إلى إميلي في ١٢ مايو سنة ١٨٥٤م: «إن مَعدِنها حسن، وسأبذل قُصارى جهدي لاستخراج خير ما فيها، لا بد أن تحصل على درجة في الطب.»[18] وفي سنة ١٨٥٦م حصلت ماري على دكتوراه الطب من كلية طب كليفلند، وكانت واحدة من أربع نساء في دفعتها.

وفي ١٢ مايو سنة ١٨٥٧م حقَّقَت الدكتورة بلاكويل أحد أهدافها؛ فبعد حملةٍ عاصفة من جمع التبرعات بقيادة الدكتورة زاك (وهو الاسم الذي صارت تُعرَف به اختصارًا الدكتورة ماري سيفسكا)، فتح مستشفى نيويورك للنساء والأطفال في قرية

جرينتش، فكانت أول مستشفًى للنساء في العالم كما قالت ماري.[19] وبالرغم من أن الغوغاء الناقمة اقتحموا المبنى في مناسبتَين كانت فيهما مريضة بالداخل تحتضر، إلا أن بلاكويل والدكتورة زاك عالَجنَ أكثر من ٣٠٠٠ مريضة في العام الأول. وكانت فكرة وجود مستشفًى تُديره النساء بأكمله مصدر إزعاج لكثيرين جدًّا من الناس، لولا أن إليزابث كانت مؤيدة من الكويكر.

وحقَّقَت المستشفى هدفًا آخر من أهداف الدكتورة إليزابث؛ فمع أنه في سنة ١٨٥٧م صارت الصعوبات أقل مما كانت أمام المرأة للحصول على دكتوراه الطب، إلا أن مستقبل الكثيرات كان ينتهي بالتخرج؛ لأنه ما من مستشفًى في البلاد يرضى بقبول امرأة طبيبة امتياز أو نائبة، ولكن مستشفى نيويورك أتاح للدكتورات فرصة اكتساب الخبرة فيه. ومنذ سنة ١٨٦٨م حتى سنة ١٨٩٩م كان المستشفى النسائي يُدير مدرستَه الطبيةُ النسائية أيضًا.

العودة إلى إنجلترا

ومنذ إقامة الدكتورة بلاكويل في إنجلترا سنة ١٨٥٠–١٨٥١م كانت تَحلُم بالممارسة في أرض مولدها. وبينما كانت تعمل في نيويورك ظلَّت على صلة باللوائح الطبية الإنجليزية، وكان لديها عِلمٌ مُسبَّق بالقانون الطبي الصادر سنة ١٨٥٨م. وهذا التشريع يَكفُل للأطباء الحاصلين على مؤهلاتٍ أجنبية الحق في التسجيل بإنجلترا بدون امتحان، إذا كانوا مُمارسين عاملين فعلًا ببريطانيا العظمى قبل شهر أكتوبر سنة ١٨٥٨م، فعادت إلى إنجلترا في أغسطس سنة ١٨٥٨م لتشرع في الممارسة وتستفيد من القانون الجديد، وحصلت على ما يرضيها من «تسجيلها في السجل الطبي في أول يناير سنة ١٨٥٩م طبيبة مُعترفًا بها في أرض مولدها».[20] وفي ٢ مارس حاضرت في معهد ماريلبون عن التعليم الطبي النسوي، فكانت أول طبيبة يُعترف بها في بريطانيا.

وكان مما يُسعِد الدكتورة بلاكويل أن تبقى في إنجلترا، ولكن المستشفى استدعاها للعودة، وظلَّت بنيويورك حتى افتتاح مدرسة الطب النسوية، وصار في مقدورها أن تنسحب من المشروعات المُزدهرة التي رعتها.

وواصلت الدكتورة إميلي بلاكويل العمل الذي بدأ، فعملت رئيس اللجنة الطبية بالمستشفى وعميدة لمدرسة الطب من ١٨٦٩ إلى ١٨٩٩م. وعلى حد قول المُعلم الطبي فردريك س. ويت: «إن الدكتورة إليزابث بلاكويل معروفة على مدًى أوسع بسبب سبقها

في التخرج، غير أن الأخت الصغرى كانت أفضل تعليمًا منها، وكانت تقوم بمعظم العمل الإداري في مؤسسات نيويورك، وأصبحت أول طبيبة تعمل بتَوسُّع في الجِراحات الكبرى.»[21]

وفي سنة ١٨٦٩م عادت إليزابث إلى وطنها الحبيب إنجلترا، وهناك كتبت وحاضرت عن الجوانب الاجتماعية والخلقية للطب، وماتت في سن التاسعة والثمانين، بعد أن كرَّست حياتها «لتلك الغايات الخلقية التي من أجلها شرَعَت في دراسة الطب».[22]

الفصل السابع

إليزابث جاريت أندرسون

في أواسط الخمسينيات في القرن ١٩ كان يُنظَر بقتامة إلى المرأة غير المُتزوجة التي لا يتَّفق لها أن تكون ذات ثروة مستقلة؛ فعليها إما أن تُقاسيَ طول حياتها وضع القريبة غير المرغوب فيها، أو أن تُحاوِل العمل لتَعُول نفسها. وبالنسبة للسيدات المُهذَّبات سليلات الطبقتَين العليا والوسطى كانت فرص العمل محدودة؛ في وُسعهن أن يكنَّ مرافقات مأجورات يشغلن لدى مخدومتهن منزلةً وُسطى بين عضو دوني في الأسرة وبين خادم راقية، أو أن يعملن مُربِّيات.

وكان من أهداف حركة حقوق المرأة النامية في إنجلترا الوصول إلى التحرر من هذا الوضع. ومن سنة ١٧٩٢م كتبت ماري ولستونكرافت (١٧٥٩–١٧٩٧م) دفاعًا عن حقوق المرأة قالت فيه: «لقد حان الوقت لإشعال ثورة في الأحوال النسوية لتستردَّ النساء كرامتهن المفقودة، ولكي يعملن، ولكي يُصلحن العالم بإصلاح أنفسهن ... ويقينًا أنه يجوز للنساء أن يدرسن فن المُداواة ليُصبحن طبيبات كما أنهن مُمرضات.»[1] ولما كانت إنجلترا يومئذٍ تعدُّ النساء بدون حقوق فقد صدمتها هذه الفكرة، ولم يحدث تقدمٌ ما حتى انقضت خمسون سنة على وفاة ماري ولستونكرافت، ولكن في سنة ١٨٥٩م استأجرت مدام بوديشون (١٨٢٧–١٨٩١م) — واسمها قبل الزواج بربارا لي سميث — حجرات في لنجهام بليس بلندن، وافتتحت أول مكتب تشغيل لإتاحة وظائف مُشرفة غير يدوية (ذات ياقة بيضاء) للنساء، واجتذب المكتب لا «السيدات» العزبات فحَسْب اللواتي يُرِدن عملًا، بل أيضًا الفتَيات الساخطات على حياة الكسل في بيوت أسرهن.

ومن بين الصنف الأخير كانت إليزابث جاريت (١٨٣٦–١٩١٧م)، وترتيبها الثانية بين عشرة أطفال أنجبهم نيوسن جاريت رجل الأعمال الثري في ألدبرج بمقاطعة سافولك،

من زوجته التي كان اسمها قبل الزواج لويزا دانل. ومثل صمويل بلاكويل، كان مستر جاريت يؤمن بأن أطفاله يجب أن يحظَوا بتعليمٍ أعلى من المستوى السائد.

وفي سن الثالثة والعشرين كانت حياة إليزابث من ألطف ما يكون، ولكنها شعرت بأنها يجب أن تصنع شيئًا لتستخدم قدراتها وتعليمها، وشجَّعتها زميلةٌ قديمة من زميلات الدراسة هي إميلي ديفيز (١٨٣٠–١٩٢١م)، كانت تؤمن منذ وقتٍ طويل بضرورة إتاحة الفرصة للمرأة للحصول على تعليمٍ أفضل، وأن المهن — ولا سيَّما الطب — يجب أن تفتح أبوابها لها. ولم تشعر إميلي ديفيز أنها شخصيًّا «تصلح رائدة في الطب؛ فهي بحاجة إلى مساعدة في هذا الجزء من برنامجها».[2] وكانت أهدافها الشخصية أن تقوم مدارس بنات جيدة بها مُعلمون ومُعلمات مؤهَّلون، وقبول النساء في الامتحانات العامة والجامعات.

اتخاذ قرار

وفي سنة ١٨٥٩م تخلَّفت إليزابث بعض الوقت في لندن قبل أن تذهب لزيارة إميلي في جيتسهيد حيث كان والدها راعيَ الكنيسة. وأثناء وجودها بلندن قابلت إليزابث بلاكويل، وكانت قد قُيِّدت لتَوِّها في السِّجل الطبي. قابلتها في مكتب مدام بوديشون، ثم حضرت سلسلة محاضراتها الثلاث عن «الطب كمهنة للسيدات».

وفي ذلك الحين لم تكُن إليزابث جاريت قد عقَدت العزم على الاشتغال بالطب، ولكن الدكتورة بلاكويل قفزت إلى استنتاج أنها عقدت عزمها على ذلك. وكانت المرأة الأصغر سنًّا (إليزابث جاريت) مبهورة جدًّا بحيث لم تستطع تعديل تفكير الكبرى (إليزابث بلاكويل). وقد كتبت فيما بعدُ تقول: «أتذكَّر أنني شعرت بالذهول وكأنني أُلقيَ بي فجأةً وسط مهمة أكثر مني بكثير.» أما الدكتورة بلاكويل فتتذكر مس جاريت في صورة «سيدة شابَّة لامعة ذكية أُثيرَ فيها الاهتمام بدراسة الطب.»[3]

ولما وصلت إليزابث جاريت إلى جيتسهيد كانت لا تزال غير مُستقرة الرأي، وتولَّت «إميلي ديفيز» وزن جانبَي القرار فقالت: «الآن وقد أشرت إلى هذا يا إليزابث أعتقد أنك الشخص المثالي لإدخال نساء إنجلترا مجال مهنة الطب.»[4]

ولما أخبرت إليزابث والدَيها بنيَّتها دُهِش مستر جاريت وتحيَّر، وكتبت إلى إميلي ديفيز تقول: «أظنه لا يحب هذا، أو هو — على الأقل — يُفضل استقراري لأغدوَ سيدةً شابَّة ليست لها أنشطةٌ مُحرِجة ...»[5]

وكان مستر جاريت رجلًا عادلًا، فقال لابنته إنه وإن لم يُقرَّ خُطَطها ولن يُساندها فيها مساندةً إيجابية، إلا أنه لن يقف في طريقها. ثم لان في موقفه هذا إلى حد مصاحبة ابنته في جولةٍ مرَّا بها بكبار الأطباء الاستشاريين في هارلي ستريت، يَنشُدان النصح؛ ففي سنة ١٨٦٠م كان من المستفظَع من المرأة أن تذهب للطبيب بمفردها.

وكان الاستقبال الذي لِقياه منهم لا يتَّصف بالدفء؛ فقد سارَع زعماء المهنة هؤلاء إلى توضيح أن التعليم الطبي للمرأة مضيعة للوقت؛ لأنه لن يُقيد اسم امرأة في السجل الطبي، وبدون ذلك لن تُباح للآنسة جاريت أن تُمارس الطب بصفةٍ قانونية في إنجلترا.

وكان موقفهم هذا تحديًا لإيمان مستر جاريت بالمساواة في التعليم بين الرجال والنساء، فسارَع بالاحتجاج. وكانت ابنته قد أخبرته أن اسم إليزابث بلاكويل مُدوَّن في السجل الطبي في وقتٍ سابق من ذلك العام. وردُّوا على اعتراضه بقولهم: «إن الدرجات الأجنبية لم تعد مقبولة كما كان الحال عندما قُيِّدت المرأة القادمة من أمريكا في السجل، وما من لجنة امتحان بريطانية يمكنها مطلقًا أن تقبل إدخال أي امرأة امتحاناتها.»[6] (وكان الحصول على ترخيص من لجنة امتحان شرطًا مُسبقًا أساسيًّا للقيد في السجل.)

وفعل هذا الاستقبال فِعله في زحزحة مستر جاريت عن موقفه المُحايد. ولما سأل أحد هؤلاء الأطباء إليزابث لماذا لم تصبح مُمرضة بدلًا من طبيبة، ردَّت عليه بسرعة: «لأني أُفضِّل أن أكسب ألف جنيه بدلًا من عشرين جنيهًا في السنة.» فكسبته بهذا الرد إلى صفها.[7]

ومرةً أخرى قامت إميلي ديفيز بدور الحافز، وكانت صديقتها إميليا باتن مُتزوجة من راسل جنري مسجل لندن، وكان آل جنري أصدقاء للدكتورة بلاكويل. ولما عادت الدكتورة بلاكويل إلى أمريكا في سنة ١٨٥٩م كان آل جنري قد وعدوها بمقابلة أي امرأة تريد التقدم للتدريب على الطب. ورتَّب شقيق إميلي ديفيز — وهو جون لين راعي كنيسة المسيح في ماريلبون — المقابلة بينهم وبين إليزابث جاريت.

وكان اتصالًا سعيدًا، وكتبت إليزابث إلى إميلي في ٤ يوليو سنة ١٨٦٠م: «كان مستر ومسز جنري غاية في اللطف والعطف والمعاونة هذا الصباح، ووجدنا شخصًا يمكن أن يُعتمد عليه في إعطاء والدي فكرةً مؤيدة بشدة للحركة ... فقد تحدَّث مستر جنري عن وليم هاوز، وقد تبيَّن لي أن مستر هاوز هذا هو الذي يعرفه أبي جيدًا؛ فمنذ سنواتٍ قليلة كانت بينهما صلاتُ عمل كبيرة، وأنا واثقة بأن رأيه سيكون له وزنه عنده ...»[8]

وكان مستر هاوز عضوًا في لجنة مُديري مستشفى ميدلسكس، فعرض اقتراحًا عمليًّا؛ فقَبْل أن تُواجِه الآنسة جاريت المشاقَّ والتحاملات، بل الاضطهادات، في مدرسةٍ

طبية، لماذا لا تستوثق أولًا من أن الحياة في الطب تُلائمها حقًّا؟ واقترح أن تعمل ستة أشهُر كمُمرضة في عنبر الجِراحة بالمستشفى. وكان مستر هاوز يعتقد أن مناظر وأصوات وروائح عنبر العمليات ستكون بمثابة اختبار عسير. وأمسكت إليزابث بنفسها بالفرصة. وكانت ميدلسكس من مستشفيات لندن التعليمية العظيمة، فلْتَدخله كمُمرضة، وعندئذٍ تصنع كل شيء ممكن لتتحوَّل إلى طالبة طب.

في مستشفى ميدلسكس

لم تكُن درجة الذكاء العالية شيئًا مألوفًا بين مُمرضات ذلك الوقت. وقد سُرَّت مسز يارو (كبيرة المُمرضات) من هذه المُجنَّدة الجديدة التي لم تكُن تفهم الأوامر فحسب، بل وتُنفذها بلا تقصير. واستطاع ظرفها ولباقتها أن يكسبا لها مودَّة زميلاتها المُمرضات، اللواتي ظننَّها ستتجاهلهن أو تستعلي عيلهن. وكان أفضل شيء هو ما تركته من أثر على أطباء المستشفى، ولا سيَّما عميد مدرسة الطب، وهو ت. و. تن، وكذا على كبير الأطباء النواب واسمه ويليز. وقد أفضت إليهما بهدفها من العمل بالمستشفى، وقد بذلا كل ما في وُسعهما لمساعدتها، فرتَّبا لها الحضور أثناء إجراء الجِراحات ومصاحبة الطلبة في دوراتهم على المرضى، وأن ترى أنواعًا كثيرة من الحالات التي تمرُّ بالعيادة الخارجية. وكان قرار إليزابث بالشروع في الاشتغال بالطب، مُوجهًا إلى حدٍّ كبير لتحسين وتعزيز قضية حق المرأة في المساواة في التعليم، وأما الآن فقد أحبَّت العمل لذاته.

وكانت خطوتها التالية أن تعرض دفع المصروفات التي يؤديها طلبة الطب، مُحتجةً بأنها — فعلًا — تقضي كطالبة طب وقتًا أكثر مما تُمضيه كمُمرضة، واعتقدت أنهم إذا ما قبِلوا منها مصروفات طالب فلا بد — تلقائيًّا — أن يعترفوا بأنها طالبة طب كاملة الحقوق، ولكن إدارة المستشفى لم تقع في هذا الفخ، وأبلغت الآنسة جاريت أن المستشفى يسرُّها أن تتعلم فيها كل ما تستطيع أن تتعلمه، ولكن بوصفها هاوية لا أكثر. ومع ذلك مُنِحت استخدامًا مؤقتًا لحجرةٍ لطيفة جدًّا، تستطيع فيها أن تقرأ وتحتفظ بأشيائها. وسألت مستر دي مورجان أمين صندوق المستشفى: ألا يمكن — يومًا ما — أن يَقبلوها طالبة؟ فأجابها بأن ذلك لم يحدث في بريطانيا؛ فمن المؤكد أنه ما من كلية في لندن يمكن أن تقبلها؛ فإن كانت مُصممة على أن تغدوَ طالبة طب فعليها بالذهاب إلى أمريكا. فقالت إليزابث: «مع هذا سأبذل كل جهدي لأحصل على التعليم في إنجلترا وبطريقةٍ قانونية، وإن كنت أعتقد أن الكثير يمكن عمله بطريقٍ غير قانوني.»[9]

وبينما كانت إليزابث تتعلم الشيء الكثير عن طريق الملاحظة، كانت ممنوعة من حضور المحاضرات، وخفَّ والدها لنجدتها، وعرض أن يُوقِّع بالوفاء على أي وثيقة بأجر أي عدد من المُدرسين الخصوصيين يُوافقون على التدريس لها. وتخلَّت عن كل تظاهر بأنها مُمرضة؛ إذ كان وقتها في المستشفى مُخصصًا للدراسة الإكلينيكية تحت إشراف مُدرسيها الخصوصيين. وبعد لَأْيٍ حصلت على الإذن بحضور المحاضرات، وتم لها هذا بالاتصال بالأساتذة فُرادى، فتطلب منهم بلطفٍ شديد وتواضُع إذا كان لديهم اعتراض على حضور محاضراتهم، وقلَّ من اعترض منهم؛ فها هي امرأةٌ مُتواضعة ذات هدف تُحاول أن تمضيَ قُدمًا، ويقينًا أنها ليست واحدة من أولئك المناضلات في الحركة النسوية اللواتي يخدشن الاحتشام بزيِّهن نفسه، بل كانت إليزابث جاريت تُذكرهم ببناتهن وأخواتهن كما يتصورونهن. أما أستاذ التشريح فكان هو وحده الذي خشيَ أن تتعرض شابَّةٌ رقيقة مُهذَّبة لسلوك طلبته البذيء في المشرحة، ولكن في نهاية عامها الأول في ميدلسكس كانت قد كسبت رضاه أيضًا.

وانتهى وضع إليزابث غير الرسمي بِناءً على التماسٍ من الطلبة الذكور؛ فقد حصلت على مراتب شرف في كل المواد التي درستها، ولكن ذلك أُبقيَ سرًّا فلم يَعرفوا به، ولكن عندما انتابتها فورة حماس — في إحدى الجولات ذات يوم على المرضى مع الطلبة والأستاذ — وأجابت بالصواب على سؤالٍ أخفق فيه سائرهم، ثار استياؤهم … فثَمة فرقٌ بين التسامح مع امرأةٍ تلعب لعبة الطب وبين أن تُظهرهم بمظهر المُغفَّلين والبُلهاء أمام طبيب زائر، ولكن الطلبة المُتفوقين تجمَّعوا صفًّا للدفاع عنها. ومع هذا ففي يونيو ١٨٦١م أُبلغت أن اللجنة الطبية قرَّرت أنه مما يضرُّ بالمدرسة حضور النساء المحاضرات، إلا أن المحاضرين أسِفوا لأن القرار صدر بصدد سيدة شابَّة، كان سلوكها طوال مدة بقائها في المستشفى مُتصفًا باقتران الحكمة والرِّقة؛ مما استدعى تقديرهم التام.»[10]

حركة الْتِفاف

وعندئذٍ حاولت إليزابث — مؤيدة بوالدها — أن تلتحق بإحدى الجامعات الكبرى. لم تَقبل كيمبريدج وأكسفورد مجرد مناقشة الموضوع، وبدت التوقعات في جامعة لندن أفضل من هذا بمقدارٍ ضئيل؛ فميثاقها ينص بوضوح على أنها وُجدت كي «تُوفر التعليم لجميع الطبقات والفئات بدون تفرقة من أي نوع».[11] ولكن طلبها القائم على هذا الأساس رُفِض

بحُجة أن النساء لَسْن طبقة أو فئة. وفي ٨ من مايو سنة ١٨٦٢م كتبت إلى الدكتورة بلاكويل: «لست أتخيَّل أن هناك فرصةً كبيرة لإمكان عمل ما هو أكثر من ذلك في أي جامعة أخرى في المملكة المتحدة؛ ولذا أخشى أن يكون إمكان الحصول إطلاقًا على درجة دكتوراه إنجليزية في الطب أمرًا بعيد الاحتمال جدًّا.»[12]

ولما كانت مُصممة على أن تكون مُمارِسةً مُجازة، وليس — فيما يبدو — هناك طريق مفتوح إلى درجة دكتوراه الطب، فقد بحثت مع أبيها ووجدت وسيلةً أخرى للقيد في السجل الطبي؛ ذلك أن جمعية الصيدلة تمنح إجازة الصيادلة، وهي إجازة ليس لها مقام دكتوراه الطب، ولكن الحاصلين عليها يُعَدون أطباء مُعتمدين وتُقيَّد أسماؤهم في السِّجل الطبي. وكتبت إليزابث إلى الدكتورة بلاكويل: «أفكر الآن في محاولة دخول مدرسة والحصول على إجازة الصيدلة.» ولكنها عدَّت ذلك نوعًا من الحل الوسط: «إن شعوري الخاص مُتجه إلى الحصول على دكتوراه الطب، وحتى لو كانت أجنبية فإنها تفرض احترامًا أكبر من إجازة الصيدلة وحدها.»[13]

وينصُّ ميثاق الصيادلة على أن جميع الأشخاص الذين قضَوا مدة تمرين مدتها خمس سنوات تحت إمرة دكتور، وحضروا محاضرات في موادَّ مُعيَّنة، يُرشَّحون لدخول امتحان التأهيل. وإنه لمن العسير إنكار أن الآنسة جاريت ليست شخصًا، ولم يُحاول الصيادلة ذلك. وفي ١٧ من أغسطس سنة ١٨٦١م طلبوا من الآنسة جاريت العودة إليهم متى استوفت الشروط. وكانوا مُطمئنين إلى أنها لن تعود؛ فشابَّة في مِثل جاذبيَّتها ستكون قد تزوَّجت وانشغلت بتربية أطفالها قبل مضي خمس سنوات، ولكنهم لم يُدخِلوا في حسابهم إصرار إليزابث جاريت ومثابرتها.

وكانت مسألة التمرين سهلة؛ فإن أحد مُدرسيها الخصوصيين، يشوع بلاسكيت في ميدلسكس، صار الآن صاحب عيادة خاصة، وسرَّه أن يرعاها.

أما المحاضرات فشيءٌ آخر. لقد تمكَّنت من الحصول على شهادات بالمحاضرات التي حضرتها في ميدلسكس، وبالنسبة للباقي يتحتم للحصول عليه دخول جامعة. ولما كانت قد استنفدت الإمكانيات المتاحة في إنجلترا، فقد اتَّجهت إلى اسكتلندا.

وكادت تظفر بالقيد في جامعة القِديس أندروز؛ ذلك أن مُسجلًا مُسنًّا اسمه مستر ماك بين قبِل منها رسوم الماتريكوليشن، وقدره جنيهٌ واحد، وتركها تكتب اسمها في سِجل الجامعة. وقد جعل هذا الفعل إليزابث جاريت عضوًا في الجامعة، وهي الآن لا يمكن قطعًا رفض قبولها في المحاضرات الطبية، ولكن مجلس شيوخ الجامعة أمر مستر ماك بين

أن يرد إليها الرسوم، فقبلتْها إليزابث منه وأعادتها على الفور بالبريد إلى مجلس شيوخ الجامعة، مُرفَقًا بها رسالة تقول إنه: «إلى أن يُبَتَّ في المسألة قضائيًّا بحكمٍ يمنع السماح لي بالاحتفاظ ببطاقة الماتريكوليشن، فإني لا أقبل أن تُعاد إليَّ الرسوم التي دفعتها في مُقابل هذه البطاقة.»[14] وهدَّد مستر جاريت برفع قضية. وانقسم الرأي الرسمي، فأعلن المُحامي العامُّ والمدَّعي العامُّ السير فيتزروي كيلي أن مجلس الشيوخ لا يمكنه قبول امرأة حتى لو أراد ذلك. ومن جهةٍ أخرى قال جيمس مونكريف النائب العام لاسكتلندا إن ميثاق الجامعة لا ينص على استحالة حضور امرأة دروس الكلية. بيدَ أنه أقرَّ بأن مجلس الشيوخ له السُّلطة التقديرية المطلقة، وله أن يرفض أي شخص يشاء ذكرًا كان أو أنثى. وأصرَّ مجلس الشيوخ على موقفه، وقرَّر المستر جاريت وابنته أن الدعاية التي تَنجم عن رفع دعوى قد تضرُّ بالقضية أكثر مما تنفعها. ولبِثَت إليزابث في مدينة سانت أندروز فصلًا دراسيًّا تعمل بصفةٍ خاصة مع الأستاذ داي الأستاذ الملكي للطب، والذي شجَّع محاولتها الحصول على الماتريكوليشن، وحصلت بذلك على شهادةٍ أخرى ثمينة. وكان هجومها التالي على جامعة إدنبره فاشلًا، ولكنها قضت صيف سنة ١٨٦٣م في إدنبره تعمل تحت إشراف السير جيمس سمبسون الذي كانت إميلي بلاكويل قد درست معه بعد تَخرُّجها من مدرسة الطب، في سنة ١٨٥٤م. والسير جيمس مُعجَب كبير بالدكتورة إميلي بلاكويل، وكان استثناءً كبيرًا في إيمانه بالطبيبات.

وفي سبيل حصول إليزابث على مُحاضِر في مدرسة طب مُعترَف بها يرضى بتدريبها على التشريح والتشريح الجِراحي، وجَّهت خطابات إلى أطباء بعيدين، حتى أبردين في المرتفعات الاسكتلندية. وأخيرًا، في فبراير سنة ١٨٦٤م، مُنِحت الإذن بزيارة عنابر مستشفى لندن تحت ستار أنها مُمرضة في قسم الولادة، وهناك أُتيحَ لها أن تدرس على أستاذ التشريح في مدرسة الطب. ويبدو أن الاستياء من حضورها نما بسرعة بعد ظهورها في المستشفى، فطُردت منها في أكتوبر. وكتبت إلى إميلي ديفيز تقول: «يبدو أنهم تَذرَّعوا بخسَّة تظاهري بأني مُمرضة ... ولكني قلت إنها ليست غلطتي؛ فقد أعطيتهم فرصتَين لقبولي طالبةً نظامية.»[15]

وعادت إلى مستشفى ميدلسكس حيث لم يُعطوها تصريحًا مُهمًّا بزيارة العنابر، بل «أصبح لكل طبيب وجرَّاح الحقُّ في منح التصريح حسب تقديره لعنبره أو عنابره.»[16] وظلَّ ذلك الترتيب غير المُرضي حتى مارس سنة ١٨٦٥م.

إليزابث جاريت مجازة في الصيدلة

وحصَّلت إليزابث جاريت التعليم المطلوب جزءًا جزءًا؛ ففي خريف سنة ١٨٦٥م قدَّمت إلى جمعية الصيادلة — المُنزعجة — الدليل على أنها استوفت كل الشروط المطلوبة. وشعرت لجنة الامتحان في الجمعية بالإحباط؛ فإن أعضاءها لم يقصدوا طبعًا ما سبق أن أبدَوه من عدم قبول الآنسة جاريت في امتحانهم.

وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لنيوسن جاريت والد إليزابث، وهدَّد بمُقاضاة الجمعية ولو كلَّفه ذلك كل بنس يَملِكه. وبِناءً على نصيحة مُحاميهم تراجع الصيادلة عن موقفهم. وفي سبتمبر دخلت إليزابث الامتحان الذي اتَّضح أنه سهل بصورةٍ مُضحِكة. وفي سنة ١٨٦٦م قُيِّد في السِّجل الطبي اسم إليزابث جاريت المُجازة في الصيدلة.

لقد كانت إليزابث بلاكويل، الإنجليزية المَولد والأمريكية النشأة، أول من شقَّت طريقها إلى هذا السِّجل من ثغرة الدرجة العلمية الأجنبية، ولكن هذه الثغرة سُدَّت بعد ذلك مباشرة. والآن ها هي إليزابث جاريت — الإنجليزية الصميمة — وقد تسلَّلت باعتبارٍ فني، هو أن المرأة شخص. ولن يتكرر هذا؛ فقد أصدر الصيادلة أنفسهم ميثاقًا جديدًا يطلب التخرج من مدرسة طب معتمدة كشرطٍ مُسبَّق لإجازتهم في الصيدلة. ولما كانت النساء مُبعَدات من تلك المدارس، فالسِّجل الطبي بإنجلترا صار — إذَن — مُغلَقًا في وجوههن بصورةٍ مزدوجة.

وفي سنة ١٨٦٥م استأجر مستر جاريت وأثَّث لإليزابث المنزل رَقْم ٢٠ في شارع بركلي الشمالي، وكانت لافتتها تحمل: «إليزابث جاريت، مُجازة في الصيدلة.» وقد كتبت عن ذلك تقول: «لا أحب كلمة مس جاريت على بابي؛ فما أشبه ذلك بلافتة خيَّاطة.»[17]

وكانت عيادتها الخاصة ناجحة منذ البداية. وقد أنشأت إلى جانبها عيادةً صغيرة هي «مستوصف القِديسة ماري للنساء»، وهناك كانت تستقبل ما بين ٦٠ و٩٠ امرأة من المنطقة الفقيرة جدًّا المُجاورة بعد ظهر ثلاثة أيام من كل أسبوع. وقد نما المستوصف، فصار المستشفى الجديد للنساء الذي تَعدَّل اسمه إلى «مستشفى إليزابث جاريت أندرسون» في سنة ١٩١٧م.

وكانت لم تزَل بحاجة إلى وظيفة في هيئة مستشفًى نظامي، وسنحت لها فرصة في سنة ١٨٦٩م، عندما خلا مكان بمستشفى شادويل للأطفال (الذي صار فيما بعدُ مستشفى الأميرة إليزابث أوف يورك للأطفال). وكان أحد أعضاء مجلس مُديري

المستشفى، ومن أكرم المُساهمين في أنشطته، هو الاسكتلندي الأعزب الوسيم رئيس مؤسسة ضخمة لبناء السفن، ويُدعى جيمس جورج سكيلتون أندرسون. وقد جاء إلى الاجتماع مستقرًّا على رأيٍ مُسبَّق؛ سيُصغي بأدبٍ جم إلى قائمة مؤهلات الآنسة جاريت المُجازة في الصيدلة، ثم يستخدم حقه في الفيتو (الاعتراض)، ولكنه نكص على عقبَيه بعد أن راقَبها واستمع إلى ردودها على أسئلة الأعضاء، فحصلت على التعيين في المستشفى. وبعد سنتَين تزوَّجت مستر أندرسون.

إليزابث جاريت: الدكتورة في الطب

وكانت إليزابث حسَّاسة لكونها مجرد «الآنسة جاريت، المُجازة في الصيدلة»، وصحَّحت لكاتبٍ خاطَبها — على سبيل الخطأ — بلقب دكتورة قائلةً: «ليس لي الحق في لقب الدكتورة إليزابث، ولا أحب أن أتمتَّع بما ليس من حقي.»[18]

وقبل ذلك بسنة، في سنة ١٨٦٨م، كانت جامعة باريس قد جعلت درجاتها في الطب متاحة للنساء، فقرَّرت أن تدخل امتحان جامعة باريس، بشرط أن يسمحوا لها بذلك من غير أن تعيش في باريس كطالبة، وعن طريق السفير البريطاني في باريس، اللورد ليونز، حصلت على الترخيص اللازم لذلك. وفي يونيو سنة ١٨٧٠م صار من حقها قانونًا أن تكتب بعد اسمها: د. ط. (دكتورة في الطب). وبينما ظلَّت تُمارس المهنة في لندن بصفتها مُجازة في الصيدلة، رفعت شهادتها من جامعة باريس مكانتها المهنية رفعة لا شك فيها.

ومن غير أن تُهمل واجباتها كزوجةٍ مُخلِصة وأم لطفلَين، استمرَّت تقوم بالزيارة في الطب والتعليم. وفي سنة ١٨٧٨م قامت بما يُعتقد أنه أول إزالة ناجحة بالجِراحة لمبيض تُجريها امرأة. ومن ١٨٨٣–١٩٠٣م عملت عميدةً لمدرسة طب لندن للنساء التي أُنشئت سنة ١٨٧٤م، وكان لها نشاط أيضًا في الجمعية الطبية البريطانية.

عضوية الجمعية الطبية البريطانية

تدل مُدوَّنات الجمعية الطبية البريطانية على أن الدكتورة إليزابث جاريت قُبِلت «سهوًا»[19] للعضوية عن طريق فرع بادنجتن (بلندن) في سنة ١٨٧٣م، وهي حقيقة لم يعرفها العموم حتى سنة ١٨٧٥م عندما حُدِّد لها وقت لقراءة بحث علمي في الاجتماع السنوي بإدنبره. وكان السير روبرت تشرستيزون رئيسًا حينئذٍ للجمعية، وكان مُتطرفًا عنيفًا في

معارضته للطبيبات، ولكنه لم يستطع أن يصنع شيئًا بالنسبة للدكتورة جاريت ما دامت عضويتها قانونية ولا يمكن إلغاؤها، فاتَّخذت خطواتٍ إجرائيةً لاستبعاد أي امرأة تتقدم للعضوية بعد ذلك، ووُزِّع استفتاء على الأعضاء وعددهم ٦٢٣٠، فجاء منهم ٤١٦١ ردًّا، منها ٣٠٧٢ ردًّا تُحبِّذ استبعاد النساء.

وفي اجتماع سنة ١٨٧٨م تمَّت إضافة فقرة إلى مواد الجمعية تقول: «لا تُقبَل طلبات التقدم لامتحانات عضوية الجمعية من أي أنثى.»[20] ولم تُلغَ هذه الفقرة إلا في سنة ١٨٩٢م، حيث لم يُصوت في ذلك العام إلى جانب بقائها إلا ثلاثة أعضاء أو أربعة.[21]

وظلَّت الدكتورة جاريت المرأة الوحيدة لمدة ١٩ سنة، وكانت تحضر الاجتماعات بانتظام، وتتكلم فيها عادةً، وشغلت عِدَّة وظائف.

التقاعد

وفي سنة ١٩٠٢م تقاعد آل أندرسون إلى بيت آل جاريت في ألدبرج. وبعد وفاة زوجها سنة ١٩٠٧م انتُخبت للعمادة، وكان ذلك أمرًا غير مألوف قطعًا في ذلك الحين.

وكما قال الدكتور برنتون: «لا جدال في أنها صنعت لقضية المرأة في الطب بإنجلترا أكثر من أي شخص آخر. إن غيرها أكثر نارية منها. وكثيرًا ما تورَّطت في مآزق، ولكن النظرة المُتزنة إلى الأمور والمثابرة الهادئة اللتَين تمتَّعَت بهما إليزابث جاريت، نجحتا أكثر بكثير من الحماسة المُتقدة والعنف في التقدم بقضية المرأة.»[22]

الفصل الثامن

المعركة من أجل الاعتراف بمكانة الطب النسوي في الولايات المتحدة

في الفترة المُمتدة من منتصف القرن التاسع عشر (ابتداءً من ١٨٥٠م) حتى العقد الأول من القرن العشرين، حقَّقت النساء نجاحًا بطيئًا، ولكنه راسخ الدعائم صَوْب هدف التعليم الطبي ومكانته في المهنة الطبية. وكان لا بد من العثور على حلٍّ آخر في انتظار فتح مدارس الطب الجامعية أمام النساء.

كليات الطب النسائية

من سنة ١٨٤٢م تحدَّث جماعة من الأطباء في فيلادلفيا — بما فيهم نفرٌ من الكويكر — في أمر إنشاء مدرسة طب للنساء. وظل المشروع في حدود الحُلم حتى سنة ١٨٤٨م، عندما بدأت الخُطط تتجسم تحت إلحاح الدكتور جوزيف س. لونجشور؛ فإن مِثل هذه المدرسة ذات أهمية خاصة لدى آل لونجشور؛ لأن أخت الدكتور لونجشور، آن ماري لونجشور، وزوجة أخيه حنة مايرز لونجشور، كانتا تتمرَّنان في عيادته، وتفتقران إلى دبلوم، ولا تتوقعان فرصة لممارسة الطب، ولا سيَّما في فيلادلفيا.

وكانت كلية الطب النسوية في بنسلفانيا، المُنشأة سنة ١٨٥٠م أول مدرسة طب قانونية للنساء. وكانت الكلية الأصلية تتكون من ستة من رجال الطب — من بينهم الدكتور لونجشور والدكتور برثلميو فوسل، وهو طبيبٌ كويكري. وكانوا جميعًا يُظهرون شجاعةً أدبية عظيمة؛ لأنهم يُواجهون التحامل والعداء المهني.

ولم يكُن مُناسبًا لامرأةٍ أن تدخل الكلية، ولكن في سنة ١٨٥٠م كانت هناك امرأتان فقط تحملان إجازة في الطب، هما إليزابث بلاكويل وليديا فولجر فاولر. ويبدو أن

الدكتورة بلاكويل كانت على علم بفكرة الكلية، وهذا مثار دهشة بعض الشيء؛ نظرًا لأنها درست في فيلادلفيا في سنة ١٨٤٧م، وعملت هناك في ملجأ بلوكلي صيف سنة ١٨٤٨م. وهي على كل حال كانت في أوروبا عندما فتحت مدرسة فيلادلفيا أبوابها. وكانت الدكتورة فاولر مرتبطة بالتدريس في روشستر.

وقُيِّد في سنة ١٨٥٠م أربعون امرأة، بينهن ثماني نساء يُرِدن العمل للحصول على درجة الدكتوراه في الطب. وتخرجت الدكتورة حنة مايرز لونجشور في ديسمبر سنة ١٨٥١م، وبدأت الممارسة الخاصة في فيلادلفيا، وقامت بالتدريس أيضًا في الكلية.

وعملت الجمعيات الطبية على مستوى الولاية وعلى المستوى المحلي كلَّ ما في وُسعها لتسحق هذه المؤسسة الناشئة، وصدرت قرارات منها ضد أساتذة الكلية؛ على أساس أن نفرًا منهم مُمارسون غير قانونيين، وضد النساء عمومًا باعتبارهن «غير لائقات للطب».[1] وقادت آن بريستون — وهي إحدى أوائل الخريجات، وكويكرية دمِثة — النضال ضد الجمعيات الطبية، وبعد فترةٍ قصيرة من التوقف بسبب الحرب الأهلية، فتحت المدرسة أبوابها مرةً أخرى بِاسم «كلية طب بنسلفانيا النسوية»، وصارت آن بريستون عميدتها.

ولا يدل تغيير الاسم على ابتعادها عن أغراضها الأصلية، «بل واكَبَت الكلية في تَقدُّم العلم. ولم تحظَ بمنحة أو عون من الولاية، شأن معظم المدارس الطبية في تلك الفترة؛ لأن العلم الطبي لم يكن قد أثبت كل هذه الجدوى بحيث يحصل من مجتمعٍ عملي الذهن على عونٍ عام أو خاص. وكان كل الأساتذة مشغولين بالممارسة الخاصة؛ فلم تكُن الكلية ليركبها الهمُّ بسبب رواتبهم، والمعامل كانت لم تزَل قليلة النفقة.»[2] وفي أوائل التسعينيات من القرن التاسع عشر كان عدد المُلتحقين بالكلية ٦٦، نِصفهم من النساء.

وظلَّت الكلية تعمل مائة وعشرين سنة كمَدرسة طب للنساء. ومن بين الخريجين عددٌ من النساء اللواتي شقَقنَ الطريق للأخريات؛ آن كلارا سوين، دفعة ١٨٦٩م، كانت أول مُرسَلة طبية، وقد خدمت في الهند؛ وأنانبيراي جوسي في سنة ١٨٦٦م من الهند؛ وكونستانس ستون في سنة ١٨٨٧م من أستراليا؛ وسوزان لافليش بيكوت ابنة زعيم قبيلة أوماها في سنة ١٨٨٩م.

وأُنشئت ١٩ مدرسة طبية للنساء بين ١٨٥٠ و١٨٩٥م في بوستن ونيويورك وبلتيمور وغيرها من المدن. وكلية الطب النسوية بنيو إنجلند التي خلَفت كلية الطب النسوية ببوستن (وكانت لا تعدو أن تكون مدرسة للقابلات برغم هذه التسمية) اعتُمدت في ١٨٥٦م، وخُوِّلت منح الدرجات الطبية. وكانت هذه المدرسة أول مدرسة تمنح درجة طبية لامرأةٍ

سوداء إلى ١٨٦٤م. وفي ١٨٧٤م اندمجت مع ما كان يُعرَف بِاسم القسم الطبي للمعالجة المثلية بجامعة بوستن ليكونا معًا قسمًا طبيًّا التعليمُ به مشترك للجنسَين.

وعلى يد الدكتورة كليمانس س. لوزير في سنة ١٨٦٣م فُتحت كلية الطب ومستشفى النساء بنيويورك. ومن بين خريجاتها إميلي جننجس ستون دفعة سنة ١٨٦٧م من كندا، وماري أوجستا جنيروزو استربلا من البرازيل في سنة ١٨٨١م.

وكما كتب الدكتور شريوك في سنة ١٨٧٠م: «كان واضحًا أن النساء قد دخلن مهنة الطب ليَبقَين، ولكن ظلَّت مكانتهن فيها غير راسخة. وكانت السنوات العشرون التالية سنوات نمو بطيء ولكنه مُتواصل في موارد مدارس النساء وفي عدد الخريجات. وتحسَّن التعليم بانتشار كليات صغيرة، وتدعيم دخولهن في العيادات العامة، وبتوسيع مستشفيات النساء.»[3]

الجامعات تفتح أبوابها

وفي سنة ١٨٧٣م عندما تقدَّمت لوسي وانزر بطلبها لدخول مدرسة طب تولندهول في سان فرنسيكو تلقَّت الرد التقليدي الذي أكل عليه الدهر وشرِب: «إن مدرسة الطب ليست المكان اللائق للمرأة.» ونصحوها أن تذهب إلى كليةٍ نسوية في الجانب الشرقي من البلاد، ولكنها أصرَّت على طلبها، وعرضت حالتها على لجنة الأوصياء. وبِناءً على توصية المُحامين قرَّروا أن قانون الولاية الأساسي صريح في أن الذكور والإناث على السواء لهم حق الاختيار بين كل أقسام الجامعة.»[4] ورغم اقتراح العميد على رفاقها الطلاب «أن يجعلوا وجودها مصدر تعب شديد لها بحيث لا تُطيق البقاء»، إلا أنها سرعان ما صارت محبوبة، واستمرَّت هناك إلى أن تخرَّجت.[5]

وفي سنة ١٨٧٩م فتحت جامعة متشيجان أبواب مدرسة الطب بها للنساء، وتبِعَتها في ذلك جامعات إيوا ومينوسوتا وكولورادوا وكاليفورنيا وأوريجون وبفالو وسيراكوزا وبوستن ومنطقة كولومبيا وجونز هوبكتر في بلتيمور. وقد سبقت كلية طب كليفلند في منح الدرجات العلمية لإميلي بلاكويل وماري زاكر سيفسكا وبضع نساء أخريات، إلا أنها وافقت على تقريرٍ قدَّمته الجمعية الطبية الأمريكية يُناهض التعليم المشترك، ورجعت لقرارها الصادر سنة ١٨٥١م بمنع قبول النساء، وظلَّت كذلك حتى سنة ١٨٧٩م. وفي ١٨٨١م اندمجت الكلية مع جامعة ووستر (أوهيو)، فصارت القسم الطبي لجامعة ويسترن ريزرف.

التعليم المشترك

وكتب الدكتور شريوك عن الأيام الأولى من التعليم المشترك في جامعة جونز هوبكنز يقول: «كان يُسمح للطالبات بفحص الرجال فيما فوق العنق فقط — فهنا تدخل تواضع للرجال في الموضوع — مما أدَّى إلى حرج النساء عندما تم توزيعهن على عنابر الرجال.»[6] وفي سنة ١٨٩٣م منحَت إليزابث جاريت أندرسون المدرسة مَبلغًا يَقرب من نصف مليون دولار، بشرط أن تُلغى الفوارق ويُرفَع الحظر القائم على الجنس؛ وبذلك صارت المدرسة — كما قال المُربِّي أبراهام فلكسنر — أول مدرسة طب ذات طابع جامعي حقيقي.»[7]

وفي سنة ١٩٠٠م أصبحت خمس وثلاثون إلى أربعين مدرسة طب نِظامية تَقبَل الطلاب من الجنسَين؛ وبذلك أتمَّت مدارس الطب النسوية الغرض منها، فصُفِّيت أو أُدمجت في مدارس الطب النظامية بعد أن صارت سياسات القَبول خالية من الموانع. وفي سنة ١٨٩٨م أغلق مستشفى النساء والأطفال وكذا مدرسة الطب النسوية بنيويورك أبوابها بعد ٢٠ سنة من النشاط، وتحول طالباتها إلى مدرسة طب كورنل المفتوحة حديثًا.

وهناك بعض الخلاف حول عدد مدارس الطب النسوية الباقية في سنة ١٩٠٠م؛ أكانت ثمانيَ مدارس أم أربعًا، والخلاف في الرأي حول المقصود بالضبط بكلية طب نسوية، ومنه نشأ هذا الخلاف في الرقم.[8] وفي سنة ١٩١٠م — حسب قول أحد المصادر — لم تبقَ إلا مدرستان؛ كلية الطب النسوية ببنسلفانيا ومعهد العلاج المثلي بنيويورك. ويقول مصدرٌ آخر إن ثلاث مدارس كانت موجودة في كلٍّ من السنوات بين ١٩٠٤ و١٩٠٩م، وإن كلية الطب النسوية ببلتيمور التي تأسَّسَت سنة ١٨٨٢م استمرَّت تعمل خلال ١٩١٠م.[9]

ولم يعد التعليم المشترك الآن مقبولًا فقط، بل مستحسنًا وموضع تفضيل. وفي سنة ١٩١٠م انبرى فلكسنر ضد مدارس الطب التي تفصل بين الجنسَين قائلًا: «إن المبالغ الكبيرة التي تُخصَّص للتعليم الطبي النسوي يمكن أن تفيد فائدةً أعظم إذا استُخدمت لتنمية المعاهد ذات التعليم المشترك، حيث يستفيد منها الطلبة الذكور بدون خسارة على الطالبات، ولكن إذا كفَفْنا عن تنمية مدارس طب ومستشفيات مُستقلة للنساء، فمن الواجب إتاحة مزايا طبيب الامتياز (الطبيب المقيم) للنساء على قدم المساواة مع الرجال.»[10]

وكانت هذه النقطة عقبةً أمام الخريجات؛ فالامتياز والنيابة ووظائف الكلية ظلَّ حصولهن عليها صعبًا، وكانت نسبة الطالبات للطلبة في فصول التعليم المشترك غير كافية

لرعاية كل المتقدمات والمؤهلات. ويُشير الدكتور شريوك في كلامه عن «خطوط الدفاع الكثيرة المحافظة» التي تعوق «القبول الكامل للنساء في الطب» إلى أنه «إذا اخترُق خط منها قامت المعارضة بإعادة إنشائه في المؤخرة؛ فإذا تمكَّنَت النساء من دخول المدارس ظلَّت المستشفيات مُقفَلة، وإذا فُتحت المستشفيات نهائيًّا ظلِلنَ محرومات من الامتياز والنيابة، وإذا ظهرت الطبيبات امتنع الأطباء عن التشاور معهن ومنعوا دخولهن إلى الجمعيات الطبية.»[11]

الجمعيات الطبية

في عام ١٨٥٣م كانت المحاولة الفاشلة التي قامت بها الدكتورة نانسي تالبوت كلارك لتصير عضوًا في الجمعية الطبية بمساشوستس، وظلَّت الجمعية تستبعد النساء حتى سنة ١٨٨٤م، وهي السنة التي قبلَت فيها الدكتورة إيما لويز كول ببوستن الحاصلة على درجة طبيبة من جامعة متشيجان.

لقد شرعت النساء يَطرُقن باب الجمعية الطبية بإقليم فيلادلفيا سنة ١٨٥٣م، وظلَّ معظم أعضائها مُناهِضين للطبيبات، حتى إن الجمعية في سنة ١٨٦٨م قرَّرَت أنه مُحرَّم على أعضائها التشاور مع الإناث، وأنه إذا قَبِل أي عضو كرسيًّا في كلية الطب النسوية فقدَ عضويته فورًا. وظل الأمر نافذًا لمدة ثلاث عشرة سنة حتى أصدرت الجمعية سنة ١٨٨١م القرار التالي:

> «تقرَّر أنه يجوز للنساء الطبيبات الممارسات ذوات المكانة الطبية في المهنة، أن يخترن العضوية في هذه الجمعية طبقًا لنفس القوانين واللوائح التي تُنظم الآن قبول الرجال.»[12] وبرغم هذا لم تُقبَل امرأة بالفعل إلا بعد سبع سنين، وهي الدكتورة ماري ويلتس المُتخرجة في كلية الطب النسوية ببنسلفانيا. ومن الطريف أن أول طبيب أسود قُبِل أيضًا سنة ١٨٨٨م.

ومسألة قبول الطبيبات في الجمعية الطبية الأمريكية — التي بلغت من العمر يومئذٍ ٢٢ سنة — أُثيرت لأول مرة في اجتماع واشنطن سنة ١٨٦٨م، ولكن النظر في إصدار قرار يؤيد صراحةً قبول المرأة للعضوية بها تأجَّل إلى أجلٍ غير مسمى، وكان الأعضاء مُتطرفين

في عداوتهم. وفي سنة ١٨٧١م سجَّلت محاضر مناقشات الجمعية الطبية الأمريكية كلمة لألفريد ستيليه مُدرس الباثولوجي المرموق:

> «ثَمة مرضٌ آخر صار وباءً. إن «قضية المرأة» فيما يتعلق بالطب شكلٌ من الأشكال التي تُناوش بها الآفة النسوية العالم، إنها في صورٍ أخرى تُهاجم المُحاماة، وتتسلل إلى صندوق المُحلِّفين، وتنوي بوضوحٍ أن تعتليَ مِنصَّة القضاء. إنها تُناضل، وإن كان عبثًا حتى الآن، أن تعتليَ الهيكل وتهدر من المنبر، وتهذي في الاجتماعات السياسية، وتُجادل في قاعة المحاضرات، وتُعدي الجماهير بسمومها، بل وتخترق النحاس الثلاثيَّ الطبقات الذي يُحيط بقلب السياسي. وفي التصور العلمي ليس هناك شيءٌ يفوق في طبيعته كون المرأة طبيبة. أوَليس التمريض أعظم عامل في علاج المرض؟ ومن أليَق بالتمريض من النساء؟ وهذا منطقٌ جدير بالموضوع، وهو من النوع الذي برعت فيه بنات حوَّاء.»[13]

وفي السنة التالية، في فيلادلفيا، قام الرئيس الجديد للجمعية الطبية الأمريكية الدكتور دافيد و. ياندیل بالدفاع الخفيف عن حقوق المرأة في ممارسة الطب، ما دام الجمهور يريد ذلك، ولكنه تمنَّى أنهن «لن يُسبِّبن لنا الحرج بالتقدم بطلباتٍ شخصية لشغل مقاعد الجمعية».[14]

وفي سنة ١٨٧٦م حصلت ساره هاكيت ستيفنسون المُتخرجة في كلية شيكاغو الطبية النسوية على حق حضور اجتماع الجمعية بصفتها مندوبةً عن ولاية إلينوي بأن وقَّعت الورقة: «س. ستيفنسون.» ولما تبيَّن جنسها اقترح إحالة أسماء المندوبات الإناث إلى المستشار القضائي، ولكنَّ الاقتراح وُضِع على الرف وظل في مكانه نحو أربعين سنة، ولم تُقبَل الإناث في عضوية الجمعية قبل سنة ١٩١٥، وشهدَت نفس السنة تكوين الجمعية الطبية القومية للنساء، التي صارت فيما بعدُ الجمعية الأمريكية الطبية النسوية.[15]

والواقع أن أول جمعية قبلت النساء في عضويتها هي جمعية إقليم مونتجمري (بنسلفانيا). وجاء بمحضر مناقشات سنة ١٨٧٠م: نوريستاون في مايو سنة ١٨٧٠م، الدكتورة آنا لوكنز انتُخبت عضوًا، وهي أول طبيبة على الإطلاق تُنتخب في جمعيةٍ إقليمية في بنسلفانيا، أو ربما في الولايات المتحدة، وربما في العالم، وكانت تلميذة للدكتور هيرام كورسون ومُتخرجة في كلية الطب النسوية بفيلادلفيا. وقد يبدو أنه ينبغي للنساء

الطبيبات أن يكون لهن حق لا مِراء فيه في أن يُصبحن عضوات في جمعية لعلم الولادة؛ إذ إن علم الولادة الحديث — على كل حال — نما من فن القبالة الذي كان ميدان النساء قبل ظهور الرجل المُولِّد بزمنٍ طويل، ولكن حتى في هذا المجال كنَّ مُستبعَدات منذ البداية.

ويرجع الفضل في تأسيس جمعية علم الولادة بفيلادلفيا سنة ١٨٦٨م إلى حدٍّ كبير لجهود الدكتور ألبرت ه. سميث، وهو كويكري ومعضد لكلية الطب النسوية، وكانت نيَّته الواضحة أن يُؤهِّل النساء لعضوية الجمعية، ولكنه أدرك الحاجة إلى التحرك بسهولة. وكان يقرأ بصورةٍ دورية في اجتماعات الجمعية بحوثًا علمية أعدَّتها طبيبات. وأخيرًا في اجتماع ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٩م قدم هذا القرار: «نقترح أنه عندما يكون طبيب يتمتع بمكانةٍ قانونية سليمة، وأعلن عن طريقِ عضوٍ رغبته في أن يُقدم إلى الاجتماع عينة للفحص أو بحثًا علميًّا للقراءة ذا علاقة بموضوع الجمعية، يصبح هذا الطبيب ضيفًا على الجمعية في ذلك الاجتماع، ويمكن أن يدعوَه الرئيس للدخول في المناقشة التي يمكن أن يُثيرها هذا التقديم.»[16]

وعُرِض القرار على اجتماع نوفمبر وتأيَّد. وفي المناقشات التي تلت قال أحد الأعضاء: «ليس هناك ما يمنع من حضور النساء كزائرات، ولا يمنع من عضويتهن إلا استحالةُ الحصول على أغلبية الأربعة أخماس الضرورية لذلك. وإني لأُبدي رأيي الآن بأني سأُعطي صوتي لهن. لقد حصل النساء بالفعل على القبول في عددٍ من الجمعيات الطبية، وأصبحن عضوات يتمتعن بالتقدير في شئون العلم، وينبغي ألا يؤخذ في الاعتبار الجنس أو اللون.» أما الدكتور وليم جودويل، وهو رئيسٌ سابق للجمعية، فكان ضد هذا الرأي قائلًا: «إنَّ تربيتي ومشاعري تجعلان من المؤلم أن أُقابل نساءً في هذه الجمعية.» وأعطى ٩ أعضاء أصواتهن في صف قرار الدكتور سميث، و١٨ كانوا ضده.[17]

وظلَّت محاضر الجمعية ١٣ سنة لا تُشير إلى النساء كضيوف أو أعضاء. ثم في ٧ من أبريل سنة ١٨٩٢م وبدون ضجَّة سابقة كان ٧ من ١٣ طبيبًا مقبولين للعضوية نساءً، وكان راعيهن الدكتور سميث قد مات في سنة ١٨٨٥م، وقد استغرق حُلْمه قرابة ربع قرن لكي يتحقق.

ولكن ما قيمة ربع قرن؟ إن كلية الأطباء في فيلادلفيا، التي تأسَّست سنة ١٧٨٧م، عاشت ١٤٥ سنة كمُنظَّمةٍ مُقتصِرة على الذكور. وعندما قُدِّم اقتراح بقبول النساء في سنة ١٩٢٩م، أُحيل الموضوع إلى مُحامٍ استغرق سنةً كاملة كي يُقرِّر أن دستور الكلية يمكن أن يسمح بقبولهن. ولما سُوِّي هذا الموضوع استغرق الأعضاء عامًا آخر ليَبتُّوا في موضوع

قبول النساء. وبما أن الدستور يسمح بذلك، والأعضاء راغبون، فالمسألة تنحصر الآن فيمن يختارونها. واستُشيرت الدكتورة مارتا تراسي عميدة كلية الطب النسوية، فاقترحت اسم الدكتورة كاثراين ماكفارلين (١٨٩٨–١٩٦٩م)، وهي أستاذة أبحاث في علم أمراض النساء بكلية الطب النسوية ببنسلفانيا.

وكتبت الدكتورة ماكفارلين: «في مساء ١١ من يناير سنة ١٩٣٢م قُبلتُ للعضوية، وبسط رئيس الكلية الدكتور فرانسيس ر. ياكار، طبيب الأنف والأذن والحنجرة، والمؤرخ الطبي المرموق، ذراعه ليُصافحني، وهنَّأني قائلًا: «لقد صنعتِ التاريخ الليلة يا دكتورة ماكفارلين».»[18] والواقع أن الدكتورة ماكفارلين قد انضمَّت إلى صفوف الطبيبات ابتداءً من نانسي تالبوت كلارك، اللواتي صنعن التاريخ بالنضال في سبيل قبول النساء عضوات على قدم المساواة في المجتمع الطبي.

الفصل التاسع

التقدم صوب المساواة في الخارج

كان التقدم في إنجلترا أبطأ منه في الولايات المتحدة؛ فالنساء اللواتي أردن هناك أن يكنَّ طبيباتٍ جُوبِهن بقُوى معارضة يبدو أنه لم يكُن من الممكن إرضاؤها؛ فقد أُقصِين عن حجرة المحاضرات؛ إذ لا يجوز لهن تأدية الامتحان. وتقول لجان التخرج إنه لا يجوز لهن تأدية الامتحان لأنهن لم يحضرن المحاضرات المطلوبة! وفيما يتعلق بالنواحي العملية من التدريب الطبي كانت الملكة فيكتوريا نفسها تتزعم الدعوة؛ فقد كانت تفزع من «الفكرة الفظيعة» التي تجعل الشابَّات والرجال يختلطون في المشرحة.

وقد وصف الدكتور برانتون السيدة صوفيا جيكس بليك (١٨٤٠–١٩١٢م) — وهي من كبار أنصار حقوق المرأة ولا سيَّما في ميدان الطب — بأنها «من ذلك الطراز من الأشخاص الذي قيل عنه: إنهم يُسخنون الماء أولًا ثم ينزلون إليه».[1] وفي الستينيات من القرن ١٩ قامت — تحت قيادتها — «حفنة من البطلات بمحاولةٍ باسلة لاقتحام جامعة إدنبره، ودام الحصار مدةً أطول من حصار طروادة؛ لأن القلعة استماتت حاميتها في الدفاع عنها.»[2] وكان يقود المقاومةَ السير روبرت كرايستيسون القوي صاحب النفوذ والحجة البريطاني في علم السموم، وكان رئيس الجمعية الطبية البريطانية عندما تكشَّفت «الحقيقة الفظيعة»؛ حقيقة عضوية إليزابث جاريت في سنة ١٨٧٥م.

وفي سنة ١٨٦٩م مُنحَت — أخيرًا — شهادة المتريكوليشن من كلية الطب لصوفيا جيكس بليك ولستٍّ نساء أخريات. وفي سنة ١٨٧١م رفضت الكلية أن تُعلمهن، وحرَّضت الطلبة الذكور على القيام بأعمالِ عنفٍ جسدية ضدَّهن، ويُقال إن الطلبة كان يقودهم مُساعد الأستاذ كرايستيسون، وأعلنت الآنسة جيكس بليك ذلك على الملأ، فرفع عليها السير روبرت دعوى قذف، وحكمت له المحكمة بتعويضٍ قدرُه دانقٌ واحد وهو ربع بنس. وفي سنة ١٨٧٣م رفعت الطالبة دعوى ضد هيئة إدارة الجامعة تُطالب إعلانًا

بأن الجامعة يجب أن تُتيح لها ولزميلاتها الطالبات إتمام تعليمهن وأداء الامتحان لنيل درجتهن في الطب، وكسبت قضيتها. وعند الاستئناف نُقِض الحكم الابتدائي بأغلبية صوت واحد، وأُرغمت النساء على الانسحاب. ويبدو أن المَخرج من هذه المُعضِلة كان في إنشاء معهد يُتيح للنساء تعليمًا طبيًّا كاملًا. وفي سنة ١٨٧٤م، وتحت رعاية وإرشاد الدكتور فرانسيس أوستي وغيره من أعضاء المهنة ذوي الذهن المُتحرر والنفوذ، أسَّست صوفيا جيكس بليك مدرسة طب لندن النسوية، وافتُتحت في ١٢ من أكتوبر وبها ١٤ طالبة.

ولم يكُن هناك مستشفًى يَقبل أن يكون مستشفًى تعليميًّا للطالبات، ولم تكُن هناك لجنة امتحان لامتحانهن. وفي فبراير سنة ١٨٧٦ أدَّت هذه النقائص إلى فقدان عدد من الطالبات، وصار واضحًا أن المدرسة يجب أن تُغلِق أبوابها في نهاية السنة ما لم يتم تدبير تدريب مؤهل في المستشفيات.

وكان راسل جيرني، الذي سبق أنْ ساعَد إليزابث جاريت على بدء تعليمها الطبي، والذي أصبح بعد ذلك عضوًا في البرلمان، يقوم بنشاطٍ كبير في ميدان حقوق المرأة، وقد تبنَّى قانون «ممتلكات النساء المتزوجات»، وهو يرمي إلى تخليص الزوجات من القيود الحرفية للزواج، وكان مُحرِّضًا كبيرًا على إنشاء المستشفى الجديد للنساء ومدرسة طب لندن النسوية، وقدَّم للبرلمان مشروع قانون يمنح كل لجان الامتحان الحق في قبول النساء لتأديته، وصار ذلك المشروع قانونًا في ١٢ من أغسطس سنة ١٨٧٦م باسم القانون الطبي سنة ١٨٧٦م. وكانت هذه نقطة تحوُّل، وإن بقيَت بعض المعارضة من جانب الجامعات. وفي السنة التالية فتح المستشفى الملكي المجَّاني عنابره لطالبات مدرسة طب لندن النسوية. واحتفظت المدرسة بوضعها المستقل حتى سنة ١٩٠١م، عندما صارت إحدى كليات جامعة لندن.

وكانت كريستين موريل (١٨٧٤–١٩٣٣م) من ألمع الخريجات، وقد وُلِدت في عام افتتاح المدرسة. وقد كتب الدكتور برايتون عن دورها قائلًا: «لقد كانت مَهمَّة السابقات عليها أن يُنشئن حقهن في الالتحاق بالمهنة، وبقيت المَهمَّة الأصعب وهي أن تكون المرأة الطبيبة ذات مكانة وقيمة في المهنة، وهذه المهمة هي التي أتمَّتها كريستين موريل بنجاحٍ عظيم.»[3] وكان أعظمَ إسهام لها في ميدان الخدمة العامة. وفي تلك الأيام كان الرجال قد قرَّروا (وقبلت النساء ذلك) أن «الجنس الأضعف أقل صحة من الذكور». وبتعليم النساء الحقيقة عن أنفسهن قطعت الدكتورة موريل شوطًا كبيرًا صوب نسف هذه الأغلوطة، وحاضرت الفتَيات العاملات والأمهات في موضوعاتٍ مثل الإسعافات الأولية والتمريض

المنزلي والعناية بالأطفال. وقبل كل شيء كانت نصيرة للصحة العامة من خلال الطب الوقائي، وأنشأت عددًا من عيادات الأطفال الأصحَّاء التي كانت تعمل على نحوِ ما تعمل هذه العيادات الآن.

ولما قارَب القرن ختامه لم تكُن الصعوبات أمام المرأة للحصول على تعليمٍ طبي تفوق الصعوبات التي يُصادفها الرجل، واستطاعت المرأة أن تحصل على الدرجات بعد الامتحانات بالطريق العادي في جامعات لندن، وديرهام، وإدنبره، وجلاسجو، وسانت أندروز، وأيرلندا.

في إيطاليا

لم يوجد قطُّ في إيطاليا قانونٌ يُبيح أو يمنع المرأة من دخول الجامعات؛ وبالتالي كانت إيطاليا مُتقدمة بأكثر من قرن من الزمان على بقية بلاد العالم في تخريج طبيبات مرموقات مُمتازات.

وقد حصلت لوران ماريا كاترينا باسي (١٧١١–١٧٧٨م) على درجة دكتوراه في الفلسفة من جامعة بولونيا سنة ١٧٣١ أو سنة ١٧٣٢م، وكانت حُجة في الميكانيكا والهيدروليكا والتاريخ الطبيعي والتشريح، وشغلت كرسيَّ التشريح حتى تزوَّجت، وبعدها كرَّست نفسها لحياة الأسرة، وأنجبت وربَّت ١٢ طفلًا.

وآنا موراندي (١٧١٦–١٧٧٤م) المولودة في بولونيا تزوَّجت أستاذ التشريح في الجامعة، وهو جيوفاني مازوليني، ودرست هي شخصيًّا التشريح، وأنتجت نماذج من الشمع لعيِّنات من قطاعاتٍ مُلوَّنة تُضاهي الأصل. وكانت هذه الوسائل التعليمية أفضل من التي ابتكرها قبل ذلك بأربعة قرون «ألسندرا جيلياني». وقد اشترى الإمبراطور جوزيف الثاني إمبراطور ألمانيا عددًا من نماذجها. وأثناء المرض الأخير لزوجها حاضرت بدلًا منه. وفي سنة ١٧٦٠م خلَفَته أستاذةً للتشريح، ودَعَتها كاترين الثانية إمبراطورية الروسيا لتُحاضِر في موسكو، وعيَّنتها عضوًا في الجمعية العلمية الملكية الروسية، كذلك اختارتها الجمعية الملكية البريطانية عضوًا بها.

وفي جامعة بادوا شغلت أنجيولينا البادوية كرسيَّ علم الولادة، أما ماريا باتراتشبي التي يُقال إنها حصلت على درجتها العلمية من فلورانسا سنة ١٧٨٠م، وكذلك ابنتها زافيرا فيريني (تخرَّجت من بولونيا سنة ١٨٠٠م)، فقد قامت كلتاهما بتدريس التشريح في فيرارا.

وماريا ديللي دونه (١٧٧٦–١٨٤٢م) حصلت على دكتوراه الطب من بولونيا، حيث «أُضفيَت عليها بالإجماع كل مراتب الشرف التي تمنحها الجامعة»، وقد اعترف نابليون ببراعتها. وقد فشلت محاولته سنة ١٨٠٢م لانتخابها لكرسي الفيزياء، ولكنه جعل الأعضاء يختارونها أستاذة لعلم التوليد. وفي سنة ١٨٠٧م رقَّاها إلى عضوية الأكاديمية الفرنسية للعلوم. وفي سنة ١٨٠٤م كانت قد غدَت مديرة مدرسة بولونيا للقابلات. وأشهر جميع النساء من مُدرسات الطب اللواتي «ازدان بهن المركز العلمي العريق في بولونيا» هي جوزبينا كاتاني التي شاركت جويدو تيزوني في أبحاثه عن الكوليرا سنة ١٨٨٦م.[4]

في كل مكان آخر حول العالم

قيدت زيوريخ بسويسرا أول طالبة في سِجل كلية الطب بجامعاتها في سنة ١٨٦٤م، وكانت هذه الطالبة المُقيَّدة روسية يبدو أنها لم تُتمَّ دراستها، ثم أعقبتها روسيةٌ أخرى هي ناديا سوسلوفا من سانت بطرسبرج، وأحرزت درجتها العلمية في ١٤ من ديسمبر سنة ١٨٦٧م. وافتتحت خريجتان سويسريتان، هما ماري هايم فيجلين (١٨٤٥–١٩١٦م) وآناهير (١٨٦٢–١٩١٨م)، مدرسة لتدريب المُمرضات في سنة ١٩٠١م ستنال شهرة بسبب ارتفاع مستوياتها. ولم تفتح باريس أبوابها أمام النساء إلا في سنة ١٨٦٨م. وتقدَّمت مارلين بريس في سنة ١٨٦٧م إلى عميد كلية الطب لكي يسمح لها بالدخول، فقيل لها إنها يجب أن تُبرز أولًا الشهادات المُعتادة، وهي بكالوريوس الآداب وبكالوريوس العلوم. وفي العام التالي أحرزتهما وقدَّمتهما، وأُجيبت إلى طلبهما، ولكن ليس من المعروف إذا كانت قد تخرَّجت فعلًا.

وكانت الجامعات الألمانية أبطأ جامعات أوروبا في قبول النساء للتقدم للدكتوراه في الطب، وكانت بروسيا آخر ولاية أذعنت لذلك في سنة ١٩٠٨م.

أما هولندا فهي مثل إيطاليا؛ إذ لم تكُن قط فيها قوانين تُقصي النساء عن جامعاتها، ولكن لم تكن فيها لهفة على انتهاز هذه الفرصة. ويبدو أن «آليتا جاكوبز» كانت أول امرأة تدرس الطب رسميًّا، وأدَّت امتحانات الدولة في سنة ١٨٧٨م. وفي نفس السنة نالت كاترين فان توسنبروك درجة في الطب.

وفُتحت مدارس الطب البلجيكية للنساء في سنة ١٨٨٣م.

وفي البلاد الاسكندنافية فتحت السويد جامعاتها للنساء في سنة ١٨٧٣م، والدانمرك سنة ١٨٧٥م، والنرويج سنة ١٨٨٢م. وفي فنلندا عُيِّنت امرأةٌ طبيبة للبلدية في

هلسنجفورس سنة ١٨٨٢م، وبعد أربع سنوات كانت هناك أربع طالبات طب في جامعة هلسنجفورس.

وفي سنة ١٨٦٨م التمست الجمعية العلمية الروسية من القيصر أن يسمح للنساء بدراسة الطب، وقد أُجيب المُلتمَس بعد أربع سنوات بأن أُنشئت في سانت بطرسبرج كلية طبية نسوية. وفي العشر السنوات التالية قُبِل بالمدرسة نحو ألف طالبة، أكملت ٦٠٠ منهن الدراسة ووجدن وظائف في الصحة العامة، وخدمات قانون الفقراء، والمستشفيات والملاجئ والمدارس والمصانع، وفي الممارسة الخاصة. وفي أثناء الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧م عملت الطالبات في الفِرق النهائية بالمدرسة ضابطات مُعاونات، وامتدحهن وزير الحرب، ولسببٍ ما أُلغيت المدرسة برُمَّتها في أغسطس سنة ١٨٨٢م، ولكن أُعيدَ فتحها سنة ١٨٩٧م.

وتبدو سنة ١٨٨٧م سنة الانتصارات؛ فجامعة ملبورن وجامعة سيدني بأستراليا فتحتا أبوابهما لطالبات الطب، وفي أمريكا اللاتينية منحت جامعة شيلي وكلية طب باهيا بالبرازيل وجامعة المكسيك درجاتهن الطبية الأولى للنساء، وكان التعليم المشترك في الطب يمضي قُدمًا خارج الولايات المتحدة وداخلها. وفي سنة ١٨٩٦م صار مُمكنًا لمجلةٍ ذائعة أن تقول: «إن أبواب أريحا الطبية تسقط في كل مكان على صوت بوق «يشوع النسوي»؛ فالاقتراع الأخير في كلية الأطباء كان نصرًا أدبيًّا للنساء، ومجلس زملاء كلية الجرَّاحين مُستعدٌّ لقبولهن في عضويته، وكل الهيئات الأخرى تُعطيهن الدبلومات على قدم المساواة مع الرجال ... إن أبواب المهنة تُفتح لهن في كل البلاد المُتحضرة، فيما عدا ألمانيا والنمسا.»[5]

الفصل العاشر

ماري بوتنام جاكوبي

إن سيرة ماري بوتنام جاكوبي (١٨٤٢–١٩٠٧م) تتجاوز الصعوبات التقليدية والمواقف العصرية التي ظهرت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

وقد كان قرارها بأن تغدوَ طبيبة صدمةً بغيضة لكل آل بوتنام، باستثناء أسرتها المباشرة؛ فقد كان المفروغ منه أنها ستغدو كاتبة (فقد كان والدها جورج بالمر بوتنام ناشر الخالدين الأمريكيين من قبيل واشنجتون إيرفنج، جيمس فينيمور كوبر، ناتانيل هوثورن، وإدجار آلان بو)، وقد بدأت ميني (كما كانوا يدعونها) تكتب رسائل وموضوعات سابقة لسنِّها بشكلٍ يسترعي الإعجاب عندما كانت في السادسة من عمرها، وفي السابعة عشرة كتبت قصةً عنوانها «فقد ثم وجد» عن اكتشاف منابع النيل، وباعتها إلى مجلة «أتلانتك» الشهرية بثمانين دولارًا.

وفي سنة ١٨٥٩م كانت الثمانون دولارًا مبلغًا كبيرًا من المال. وفي سنة ١٩٢٨م كتب فيكتور روبنسون الأمريكي المولود بأوكرانيا والمؤرخ الطبي أنه عندما «قرأ هذه الحكاية منذ سنوات لم يرَها تُساوي الثمن»، ووصف إسهامًا آخر لها لنفس المجلة، وهي «سلاسل الشعر»، بأنها «مليئة بالعمق لا بالعاطفة»، ولكنه قال إنها لو كانت «مارست الأدب في سن نضجها لأصبحت معروفةً اليوم بأنها إرهاصٌ سابق لإديث وارتون وويلاكاتر، وإدنا فيربر».[1] ولكن ذلك لم يحدث؛ فقد كان لميني عقلٌ فضولي، وكانت مبهورةً مفتونة بأي شيء له علاقة بالعلم، وقد أعلنت خُططها عند تخرُّجها من مدرسة مس ليديا وادلي للبنات في نيويورك. والمدارس الطبية في تلك المدينة لم تكُن مفتوحة للنساء. ولم يستطع مستر بوتنام — على اتساع أفق تفكيره — قبول معيشة ابنته الشابَّة بعيدًا عن البيت، وعلى سبيل الحل الوسط اتَّفق معها على أن تدرس لمدة عام ونصف في كلية نيويورك للصيدلة.

وتخرَّجت في سنة ١٨٦٣م، فكانت أول امرأة تتخرج من الكلية، والوحيدة التي تخرَّجت حتى سنة ١٨٨٦م.

والآن وقد صارت ميني في الحادية والعشرين، وافَق والدها على التحاقها بمدرسة الطب النسوية في بنسلفانيا، وكان رجاؤه عند توديعها ألا تدع نفسها «تُمتصُّ وتُبتلع في ذلك الفرع من المملكة الحيوانية المُسمَّى عادةً النساء المستقلَّات الرأي».[2] وكانت الحياة في بنسلفانيا بعيدةً كل البعد عن الراحة؛ فقد جعل الطلاب الذكور في مدارس الطب المحلية — بتحريض من المُنظَّمات الطبية — حياة طالبات كلية الطب النسوية تعِسةً جدًّا.

وكالعادة المتبَعة في مدارس الطب في كل القُطر، نظَّمت الكلية دراسة لمدة سنتَين، وكانت نفس مجموعة المحاضرات تُعطى في كلٍّ من السنتَين. ولعل الفكرة أن ما يفوت الطالب في السنة الأولى يمكن تعويضه في السنة الثانية. وقد تأثَّرت الدكتورة آن بريستون العميدة بدراسات ماري بوتنام السابقة، فسمحت لها بدخول الامتحان بعد سنةٍ واحدة، فنالت درجتها في مارس سنة ١٨٦٤م.

وكانت نقلتها التالية إلى مستشفى نيو إنجلند للنساء والأطفال. وبعد مدة الامتياز عملت في الكيمياء، ولكنها ما زالت تشعر بأن تعليمها لم يضعها على قدم المساواة مع الخريجين في المدارس الكبرى التي تمنع من دخولها هي وغيرها من النساء؛ فما تحتاج إليه هو دبلوم من «أكبر جامعة في العالم». وفي سبتمبر سنة ١٨٦٦م أبحرت إلى أوروبا وهي مُصرَّة على اقتحام جامعة باريس المشهورة بأنها لا تُقتحم، وحذَّرتها إليزابث بلاكويل — التي كانت تقضي الشتاء في باريس — أن تتحرك بحرص؛ فمدرسة الطب العظيمة لم يحِنْ أوان التفكير فيها.

ورفضت الدكتورة بوتنام اقتراحًا (مُماثلًا لما اقترحوه قبل ذلك على إليزابث بلاكويل) «أن ترتدي ملابس للرجال مثل أجنوديس الإغريقية»، مُعتذرةً بأن «البنطلون سيُبرِز قِصر قامتها».[3] وفي الوقت الحاضر اكتفت بأن تنضمَّ إلى الطلبة التابعين لأستاذين في جولات المستشفى، وتحرَّكت ببطءٍ صوب هدفها. وقبل نهاية العام سمحوا لها بالانتظام في عيادةٍ هامَّة، وكذا بدخول مكتبة مدرسة الطب التي فتحت أمامها، وحظيَت أيضًا بقبولها في بعض المحاضرات في «المدرسة العملية»، ولم يكُن بينها وبين مدرسة الطب نفسها إلا خطوةٌ واحدة.

وكانت ماري قد قضت في باريس سنة ونصف سنة عندما علمت أن وزير التعليم العام مُتشوق لرؤية امرأة تُقيَّد في مدرسة الطب. ولما كان صوته هو الوحيد المُؤيِّد فقد

رُفِض طلبها الرسمي للقيد، ولم يكن في صفها إلا صوتٌ واحد؛ فما كان أمامها إلا أن تنتظر الفصل الدراسيَّ التاليَ ثم تتقدم ثانية.

وفي هذه الأثناء، ومع أن الباب كان مُغلَقًا إلا أنه كان ثَمة مَدخل خلفي؛ فقد حصلت ماري على تصريح بحضور محاضرات مادة واحدة بدون قيد. وفي ٢٥ من يناير سنة ١٨٦٥م كتبت إلى أمها: «أول أمس، ولأول مرة منذ إنشائها قبل عدة قرون، شُوهِدت «تنورة» في المُدرَّج المَهيب لمدرسة الطب، وكانت هذه التنورة تضمُّ خادمتك المُطيعة جدًّا وابنتك الخاضعة!»[4] وعند حلول موعد امتحانات الدخول التالية كان منظر التنورة قد صار مألوفًا في المدرج، فقدَّمت طلبًا لأداء الامتحانات أيَّده العميد و٤ أساتذة، فقُبِل ونجحت بدرجاتٍ عالية.

واختارت لرسالتها موضوعًا في الكيمياء الحيوية: عن الدهون المتعادلة والأحماض الدهنية. وكان قُضاتها غير مُؤهَّلين لمناقشة الموضوع، إلا أنهم قرَّروا أن الرسالة مُرْضية جدًّا، ومنحوها ميدالية باريس. وكانت قد أهدت بحثها إلى «الأستاذ الذي لا أعرف اسمه، والذي كان صوته هو الوحيد في جانب قبولي في المدرسة؛ وبذلك احتجَّ على التحامل الذي يستبعد النساء من الدراسات المتقدمة.» وخفَّت مرارتها أمام الشرف الذي أُضفيَ عليها، فأهدت عِدَّة نُسَخ «إلى كلية باريس، التي بمنحها شرف الدرجة العلمية لامرأة قد ارتفعت إلى مستوى الحرية التي عُرِفت بها فرنسا».[5]

وفي ٢٩ من يوليو سنة ١٨٧١م كتبت إلى أمها: «لقد نجحت في امتحاني الأخير. أوه! لقد أخبرتك بهذا من قبل، لقد نجحت في رسالتي وأنا الآن دكتورة في الطب من كلية باريس.»[6]

إن الدكتورة بوتنام الآن في التاسعة والعشرين، وقد عادت إلى الوطن قُرْب نهاية سنة ١٨٧١م. وبعد أن أمضت ٦ سنوات في باريس، كانت سليلة سبعة أجيال ممن حاربوا في بنكرهيل قد غدت فرنسية جدًّا، بحيث لم تعُد قادرة على الكلام بالإنجليزية من غير أن تُقحم في كلامها عباراتٍ فرنسية.

وفي باريس كانت قد وعدت إليزابث بلاكويل أنها بعد عودتها إلى نيويورك، ستقوم بالتدريس في كلية الطب النسوية التابعة لمستشفى نيويورك الذي تُديره الدكتورة إميلي بلاكويل. واستاء الطالبات من طريقة التعليم الفرنسية، وشكَون من أنها تُطالبهن بواجباتٍ غير مفهومة، وحملن اعتراضاتهن إلى الدكتورة إميلي التي كانت تفتقر إلى دماثة أختها ولباقتها وقلبها المُتفتح، فأخذت جانب الطالبات. وقيل للدكتورة بوتنام إن

مستويات المدرسة بالفعل أعلى من مستويات معظم المدارس الطبية، وإنه لا حاجة إلى أي مُبتكَرات فرنسية.

وجمَّدت الدكتورة بوتنام استقالتها لحين إخطار الدكتورة إليزابث — التي كانت تعيش في إنجلترا — بالمأزق. وكانت الدكتورة إليزابث لَبِقة كالعادة؛ فلم تُبقِ على الدكتورة بوتنام فحسب، بل وجعلتها تشغل كرسي المادة الطبية وعلم الأدوية لمدة عشرين سنة.

وفي سنة ١٨٧١م تقدَّمت الدكتورة بوتنام لعضوية الجمعية الطبية لإقليم نيويورك. وكان الدكتور أبراهام جاكوبي رئيسها طبيب أطفال ألماني المولد مرموقًا ومُعلمًا استقرَّ في نيويورك في سنة ١٨٥٣م. وفي ترحيبه الرسمي بالأعضاء الجُدد في ٤ من ديسمبر سنة ١٨٧١م قال الدكتور جاكوبي ما يأتي:

> «من دواعي السرور الذي ليس بالقليل أنه في عامٍ رئاسي يتم الرد على مشكلة من أهم مشاكل اليوم، وبهدوء وبلا ضجَّة، وهي تتعلق بقبول إناث في صفوف المهنة الطبية. وبما أن حصولهن على درجة دكتوراه الطب مسألةٌ تتَّصل بالتشريعات، وحصولهن على حق الممارسة مسألة تتوقف على اختيار أو تحيُّز الجمهور، فإن قبولهن في الجمعيات الطبية القائمة حاليًّا قد تم على يدكم، وباقتراعٍ بسيط غير مصحوب بالضجة والصياح الذي أَلِفه الشُّبَّان في مدارس الطب، أو بالاضطراب والاستخفاف الذي بدا في اجتماعات الجمعية الطبية العامة. وأظنُّنا يمكن أن نقول إنَّ عملنا هذا قد حسم نهائيًّا مشكلةً يعرف الجميع أهميتها، إن اقتراح أكبر جمعية طبية من هذا النوع وفي مبنى إمباير ستيت، بل — حسب اعتقادي — في كل القُطر، سيكون له أثره في تهدئة الانفعالات وإخماد التحيزات، في دوائر الجيش الطبي الذي يبلغ عدده أربعين ألف طبيب في الولايات المتحدة، كما أنه يرفعنا في هذا الخصوص إلى مستوى الأقطار الأوروبية؛ فباريس قد خرَّجت دكتورة في الطب ستُثبِت — فيما أعتقد — أنها من دور الجمعية والمهنة في هذه المدينة، بل وفي بلادنا.»[7]

وتقابلت الدكتورة بوتنام والدكتور جاكوبي بصورةٍ أقل رسمية، عندما قدمت حالة قلب طريفة في اجتماعٍ عقدته جمعية علم الأمراض بنيويورك. ووجَّه الدكتور جاكوبي كثيرًا من الأسئلة الفاحصة، وأصرَّ على أن يُوصلها إلى البيت كي يتسنَّى لهما مواصلة

المناقشة. وتحوَّل توصيل الدكتور جاكوبي للدكتورة بوتنام من الاجتماعات إلى بيتها، إلى عادة. وتزوَّجا في ٢٧ من يوليو سنة ١٨٧٣م.

وقد أسعد الدكتور جاكوبي أن زوجته كانت أيضًا كاتبة ومُحرِّرةً موهوبة، وكان يعمل في تأليف كتاب عن «تغذية الطفل» لعله أشهر كتبه العديدة، فكانت ماري مصدر عون له لا يُقدَّر بثمن.

واحتفظت ماري بعد زواجها بممارستها المتسِعة، وكانت تُلقي خمس محاضرات كل أسبوع في كلية الطب النسوية، وتُساعد زوجها في إنشاء عيادة للأطفال في مستشفى جبل سيناء، وبطريقةٍ ما كانت تجد وقتًا لكتابتها الخاصة. وفي سنة ١٨٧٥م قدَّمت بحثًا علميًّا للدخول في مسابقة جائزة بويلستون الطبية، وذلك شرفٌ سامٍ يتمنَّاه الجميع تمنحه جامعة هارفرد. وكان المفهوم أنه لن يُضفى على امرأة، وكانت الموضوعات تُقبَل بدون أسماء أصحابها حتى لا يتأثر القضاة بهُويَّة المؤلف، وهو احتياط لم يكن مقصودًا به أن يُتيح لامرأةٍ أن تُقدِّم ورقتها، ولكنه أتاح لها ذلك. ووجدوا ورقتها أعلى بكثير من جميع الموضوعات المُقدَّمة، واتَّضحت هُويَّتها فواجَه القضاة مشكلة، غير أنهم حطَّموا التقاليد ومنحوها الجائزة.

وكانت السنوات التالية مُزدحِمة بالعمل؛ ففي سنة ١٨٨٠م قبلت عضوًا في أكاديمية الطب بنيويورك المُنشأة حديثًا، حيث درَّست لطلبةٍ ذكور مُتخرِّجين، وظلَّت على نشاطها حتى أواسط التسعينيات من القرن ١٩، حيث بدأت صحتها تتدهور، وماتت سنة ١٩٠٦م.

وفي حفل تأبين بأكاديمية الطب في ٤ من يناير سنة ١٩٠٧م قال السير وليم أوسلر، المُعلم الممتاز والمؤلف والكاتب المشهور في مجال الصحة العامة: «عندما عادت ماري بوتنام من أوروبا بدرجةٍ طبية من باريس وتدريب على الطب العلمي، وهو أمرٌ غير مألوف في هذه الحِقبة حتى بين الرجال، كان وضع النساء كطبيبات لم يستقرَّ بعد ...»

وليس استخفافًا بمن عاصَرنها من النساء أن نقول إنه ما من امرأةٍ أخرى في المهنة كانت تُضارعها في مَقدرتها التي تُبديها حين تتناول موضوعًا. وقد أضفى الطابع العلمي لإسهاماتها الكثيرة امتيازًا جديدًا على عمل الطبيبات في هذا القُطر، وساعَد مساعدةً غير قليلة في تهدئة ذلك العداء الذي أبقاهن طويلًا خارج المدارس والجمعيات. وإنَّ فتح الأبواب لهن في كل مكان تقريبًا لَراجعٌ — إلى حدٍّ كبير — إلى النفوذ الذي مارَسَته لا شعوريًّا في هذا السبيل، بمثل هذا التعليم والتدريب، وبمثل هذا الذهن المتَّقِد. وإنه لمبعث أسًى عظيم أنَّ الظروف هنا لم تسمح لها بمتابعة حياة عمل علمية. لقد لبِثتْ سنواتٍ

أنتظر ظهور تروتولا العصرية، ظهور امرأة في المهنة ذات ذهن جبَّار بحيث تأخذ مكانها بجانب أمثال هارفي وهنتر وباستير وفيرشو وليستر. وإن عدم ارتقائها إلى هذا المستوى لا تقع تبعتُه على الحفنة الصغيرة من النساء اللواتي انضمَمْن إلى صفوفنا في الخمسين السنة الأخيرة؛ فالنجوم ذات الجِرم العظيم نادرة، ولكن لا يُخامرني الشك في أن مثل هذه المرأة ستَبرُز من بين الطبيبات. وَلْنحمد الله على أنها عندما تظهر فلن تضطر لإهدار طاقاتها الثمينة في متاعب كفاح في سبيل الاعتراف بها، إنها ستكون من نمط عقل وعلم ماري بوتنام جاكوبي، وسوف لا يكون انتصارها في الجانب العملي بل العلمي الذي فتحت فيه دروبًا كثيرة للنساء.

وقد أضاف إلى هذا «فليكس آدلر» مُؤسِّس حركة الثقافة الخلقية: إن حياتها الذهنية كانت مُتقدة، واهتماماتها الذهنية مُتنوعة، ومع ذلك ظلَّ اهتمامها الإنساني هو الأعلى. وقد ظهر ذلك في عطفها الحنون على المرضى، وفي استجابتها الناشطة لكل قضية حق، وعلى الأخص في استعدادها الكامل لمدِّ يد العون والنصح لشباب مهنتها، وفي المستوى الرفيع الذي مثَّلته أمام أنظار من تطلَّعوا إليها في سبيل الإرشاد.[8]

وفي سن العاشرة كانت ماري بوتنام قد كتبت إلى جدتها: «سأفعل أشياء مجيدة، حتى إذا انتقلتُ إلى عالم ما وراء القبر تحدَّث الناس عني بإعزاز، فأعيش مرةً أخرى في قلوب من خلَّفتُهم ورائي.»[9]

ولم تُخيِّب ذلك الحُلم الباكر.

الفصل الحادي عشر

إميلي دننج بارنجر

وُلِدت إميلي دننج (١٨٧٦–١٩٦١م) في سكارسديل في نيويورك لأبوَين مُوسِرَين يُدلِّلان أطفالهما. ولما بلغت إميلي الثامنة أُصيبت الأسرة بضائقة، وعن هذه الظروف ستكتب بعد سبعين سنة تقريبًا: «إن الأطفال — لحسن الحظ — غالبًا ما لا ينتبهون للتغير أو المحنة أو الكارثة، ولا سيَّما الأطفال المُعتنى بهم جيدًا، ولكنَّ التغير حدث ... وفعلًا كانت نقطة التحول في حياتي التي لم أُقدرها أو أدركها إلا بعد سنوات. وقد اضطُرَّ أبي للبقاء في الخارج وقتًا طويلًا لمحاولة استنقاذ شيء من حطام ثروتنا، وصارت مَهمَّة أمي المأسوية — لبعض الوقت — أن تتولى العناية المباشرة وإعالة نفسها وخمسة أطفال، مع طفلٍ آخر يُنتظر مجيئه إلى النور في أي لحظة.»[1]

وانتقل آل دننج إلى بيت بقرب جريمرسي بارك في مدينة نيويورك، وواجهت مسز دننج مشكلتها المباشرة العاجلة بقبول ضيوف في بيتها بأجر. وكانت إميلي، الطفل الثاني في الأسرة وأكبر البنات سنًّا، تُقسِّم وقتها بين المدرسة والعمل في البيت والعناية بأخوَيها الأصغر منها؛ «هاري» والوليد الجديد «نيد».

وفي سنة ١٨٩٤م سمِعَت إميلي وأمها «ماري بوتنام جاكوبي» تتحدث عن تعليم النساء:

> إن التعليم هو الوسيلة الوحيدة المُؤكَّدة لرفع مكانة المرأة عما هي فيه الآن؛ من الاعتماد على الرجل والخضوع له، بل — وفي كثير من الأحيان — العبودية والرِّق للرجل. إن المرأة لا تستطيع أن تُطالب بحقوقها ما لم تكُن مُؤهَّلة لنيلها؛ فهي لا تستطيع أن تُصوِّت في الانتخابات إذا كانت لا تفهم السياسة، ولا

تستطيع أن تُعلِّم ما لم تكُن قد تعلَّمت، ولا تستطيع أن تكون مُحامية وامرأة أعمال أو طبيبةً ما لم تكن قد بلغت تعليمًا أو تدريبًا يُؤهِّلها لهذه المراكز.

لقد سمِعْنا جميعًا ما يُقال من أن التعليم — إنْ زادَ عن حده — يجعل المرأة غير أهل لأن تكون زوجة وأمًّا صالحة؛ لأنها تفقد أنوثتها. وأنا لستُ المرأة الوحيدة التي برهنت — بالقدوة — على أن هذا غير صحيح.

إن الرجال لا يستطيعون — على الدوام — ضمان الأمان للأسرة، مهما حاولوا، وهكذا تُضطرُّ الزوجات غير المُدرَّبات وغير الماهرات أن يشتغلن بأي عمل يَظفَرن به ليُعاوِنَّ في إعالة الأسرة.

وما القول في غير المُتزوِّجات؟ إنكنَّ تَعرِفن — كما أعرف — مصير غير المُتزوِّجة، إنها — كابْنة عانس أو أخت زوجة — تُحتمل في بيتِ شخصٍ آخر لتقوم بالأعمال الشاقَّة عن كل إنسان، أو عليها أن تحترف الحِياكة أو صناعة القُبَّعات أو العمل في حانوت، والأُجور تعِسة، وكل واحد ينظر إليها باستعلاء ...[2]

ثم تحدَّثت الدكتورة ماري جاكوبي عن كلياتٍ قلائل للرجال تسمح للنساء بدخولها، وعن الكليات النسوية القائمة التي تُكافح للارتقاء بمُستواها.

وتركَت الخطبة تأثيرًا عميقًا في مسز دننج. ولما كانت امرأةً عملية فقد عرفت أنَّ فتاة لا بائنة لها من غير المُتوقَّع أن تتزوج زواجًا طيبًا، هذا إذا ما استطاعت اقتناص رجل على الإطلاق، ومن جهةٍ أخرى تردَّدت في اتخاذ قرار يمكن أن يزجَّ ببنتها إلى عالم الرجال الذي لم يتهيأ بعدُ لإعطاء النساء وضعًا مهنيًّا. وقد ساعَدها على أن يُقرَّ رأيَها على شيءٍ مُحدَّد أنَّ صديقة لها حسنة النية اقترحت أن تذهب إميلي لتتمرَّن عند صانعة قُبَّعات. وكانت إميلي ذات موهبة في صنع القبعات، وكانت — بالإضافة إلى مَهامِّها الأخرى — قد غدَت صانعة قبعات الأسرة التي لم يعد في قدرتها شراء قبعات. وما إنِ انصرفت الصديقة حتى استدعت مسز دننج إلى حجرتها ابنتها إميلي، وتذكَّرت إميلي فيما بعدُ: «لقد وجدتها وقد ضغطت ظهرها بقوة على الباب، ووجهها شاحبٌ مُستطيل مُجهَد، وكفَّاها مبسوطتان بجانبها تضغط بهما إلى الخلف، وقد توتَّرَت أوتارها وعروقها. وقالت لي: إميلي، ستذهبين إلى كلية ...»[3]

التعليم

كانت بنات آل دننج وابنة آل جاكوبي، مارجوري، يذهبن إلى نفس المدرسة، فكان من السهل على إميلي وأمها أن تستشيرا الدكتورة ماري جاكوبي حول الكلية التي تدخلها إميلي. ولما اقترحت إميلي التأهُّب للاشتغال بالتمريض قالت الدكتورة ماري جاكوبي: «أنتِ ما زلتِ طفلة، وأصغر سنًّا من أن تعرفي ماذا تريدين أن تصنعي. تأهَّبي للذهاب إلى كلية تعدك لتعليمٍ علمي جيد، وأنا أتنبَّأ أنك عندما تتخرَّجين ستُفضِّلين دراسة الطب على التمريض.»[4] وأوصتها بالذهاب إلى جامعة كورنل في إثاكا بنيويورك، حيث يقوم الدكتور بيرت وايلدر والأستاذ سيمون ب. جيج بما تُعدُّه هي أفضل إعداد لدراسة الطب، إن لم تكن بالفعل الدراسة الوحيدة المُمكنة في القُطر كله.

وفي سبتمبر سنة ١٨٩٤م وصلت إميلي دننج بنت الثامنة عشرة إلى كورنيل، وقد دفع خالها هنري سيج مصاريف تعليمها (وكان بالاشتراك مع أندرو دوايت وعزرا كورنل أحد مؤسسي جامعة كورنيل)، وقدَّمت لها أسرتها ما قدَرَت عليه. ولم يَطُل الوقت قبل أن تتحقق نبوءة الدكتورة ماري جاكوبي، وكتبت إميلي تقول: «لم أقضِ في جامعة كورنيل إلا وقتًا قصيرًا، عندما تبدَّدت كل شُكوكي حول دخول مهنة التمريض أو مهنة الطب، وعرفت أني بلا تردُّد أختارُ الطب عملًا لحياتي.»[5]

وكانت حياة الطالبة في العقد الأخير من القرن الماضي أبعد ما تكون عن السعادة، إلا أنَّ قدَرَ إميلي كان مُختلفًا؛ فقد قابلت تعبيرات الازدراء الصادرة من الطلبة الذكور واعتقادهم أن مخ الأنثى أقل من مخ الذكر بصراحةٍ ودِّية وبتحدٍّ يُوحي بأنها ستُثبِت لهم أنها ندٌّ لهم على قدم المساواة. وقد نجحت في ذلك باستمرار. والواقع أنها تفوَّقت على أقرانها، بحيث أتمَّت دراسة الأربع السنوات في كورنيل في ثلاث فقط، وليس ذلك بالعمل السهل. وكانت الخطوة التالية هي التحاقها بكلية الطب النسوية التابعة لمستشفى نيويورك للنساء والأطفال، ثم كلية الطب بجامعة كورنيل عندما نقلت طالبات المدرسة النسوية إليها في سنة ١٨٩٨م.

وكانت الكلية الجديدة تقع أمام مستشفى بلفيو مباشرةً، الذي ترجع نشأته إلى العهد الذي كانت نيويورك لم تزَل تُعرَف فيه باسم نيو أمستردام. وفي نهاية القرن التاسع عشر صار المستشفى من أكبر مستشفيات أمريكا، وكان طلبة كورنيل يتلقَّون التعليم السِّري في بلفيو.

وكانت السرعة محمومة، ولم يكُن لدى إميلي وقت لزملائها الطلبة، إلى أن قدَّم ذات يومٍ بنيامين ستوكويل بارنجر نفسه إليها، ولم يَطُل بهما الوقت حتى اكتشفا أنهما مُتناسبان تمامًا، ولكنَّ الزواج ظلَّ خارج الموضوع؛ فكلٌّ منهما لم يُتمَّ بعدُ الدراسة في مدرسة الطب، ولا بد أن تعقب ذلك سنتان من الامتياز.

البحث عن وظيفة امتياز

في سنة ١٩٠١م كانت المرأة الحاصلة على درجةٍ طبية تستطيع أن تعمل طبيبة امتياز في مستشفًى للنساء؛ فهي وظيفة يُمكِن الحصول عليها بسهولة، أو فلتُقاتل في سبيل مكان في أحد المستشفيات النظامية التي غالبًا ما تستبعد النساء. وإذا هي قامرت على مستشفًى نظامية وخسرَت، فستكون وظائف الامتياز في المستشفيات النسوية قد شُغلَت؛ وبذلك تحمل لقب دكتورة دون أن يكون لها مكان تُمارِس فيه الطب.

ومرةً أخرى استشارت إميلي ماري بوتنام جاكوبي، وهي مُناضلة في سبيل خلق فرص بالمستشفيات للطبيبات، فنصحتها بدخول المعركة وقالت لها: «يجب على النساء أن يكنَّ مُتأهِّبات للصمود، ولتلقِّي الضربات التي تُلقي بهن أرضًا المرة بعد المرة قبل أن تفتح المستشفيات العامة أبوابها لهن في النهاية.» ولما سألتها إميلي ماذا سيحدث لها إن فشلت في الظَّفر بمكان كما كانت مُوقِنة تقريبًا، أسرعت الدكتورة ماري جاكوبي تَعِدها: «إنْ حدث هذا فسآخذك مُساعدةً في عيادتي الخاصة إلى أن تُعدِّي خُططك.»[6]

وكانت الطريق إلى الامتحانات التنافسية للفوز بوظائف الامتياز في المستشفيات الكبيرة المُشتهاة تتضمن دراساتٍ خارج المُقرَّرات، وهذه الدراسات يُغطيها «امتحان المستشفى المُوجَز» الذي يتولَّاه الدكتور جون روجرز، ولم يكن الاختبار المُوجَز مُتاحًا دخوله للنساء، ولكن بدو أن إميلي لم تجد مَشقَّة كبيرة في إقناع الدكتور روجرز بأن يتركها تشترك في الامتحان.

وقدَّمَت إميل طلبات إلى خمسة مستشفيات، ورفضتها جميعًا مُتعلِّلةً بعدم وجود سابقة لقبول امرأة، فاقترحت عليها الدكتورة ماري جاكوبي أن تتقدم لمستشفى جبل سيناء، حيث سُمِح لامرأةٍ مُتخصِّصة في أمراض النساء بأن تكون بين هيئة الأطبَّاء قبل ذلك بسنتَين. ويبدو أن السماح لها بدخول الامتحان المشهور بصعوبته قد تأكَّد عندما ساندَتها الدكتورة ماري جاكوبي شخصيًّا، وأحدث ذلك رد فِعل مُلائمًا لدى بعض الأعضاء ذوي النفوذ في لجنة الأوصياء. ولم يكُن هذا كافيًا؛ فقد قرَّر الأوصياء أنهم لن

يُعيِّنوا امرأة في هيئة الأطباء بالمستشفى، حتى ولو فازت في الامتحان. وتذكَّرَت إميلي كلمات الدكتورة جاكوبي أن «النساء يجب أن يكنَّ مُتأهِّبات للصمود ولتلقِّي الضربات التي تُوقِعهن أرضًا المرة بعد المرة»، فقرَّرَت أن تؤديَ الامتحان على كل حال. وقد أنذروها بأنهم لن يُخبروها بالتقدير الذي نجحت به، ولم تعرفه إلا في سنة ١٩٣٩م، بعد أن بلغت الثالثة والستين؛ ففي ذلك الحين قال لها مُفوض المستشفى في مدينة نيويورك سيجموند س. جولدووتر أنه مَدين لها بأول وظيفة له في الحياة، فسألته عما يعني، فقال: أتَذكُرين ذلك الامتحان في مستشفى جبل سيناء؟ لقد أدَّيتُه معك، وكنتِ أنت الأولى، ومن حقك شغلُ الوظيفة، ولكن بسبب عدم إمكانك الحصول على الوظيفة فقد منحوني إياها.[7]

وفي ذلك الحين كانت جميع المستشفيات قد أتمَّت امتحاناتها، والمستشفيات القليلة التي لم تزَل بها أماكن شاغرة لم تكن فيها تسهيلات لطبيبات امتياز (مُقيمات)، وأكبر مثال لذلك بيلفيو؛ فبما أنَّ طبيبات كثيرات يتلقَّين فيها التدريب السريري فمن المنطق أن تكون هي المكان الذي يتَّسع لطبيبات مُقيمات، ولكن الأطباء المُقيمين ينامون في عنابر.

ثم سمِعَت إميلي أن مستشفى جوفرنير به حجرة تستطيع أن تنام فيها، وهذا المستشفى هو فرع لبيلفيو، وهو مستشفى الطوارئ في أشد مناطق نيويورك ازدحامًا، فلم تُضيِّع وقتًا في المرور على أعضاء اللجنة الطبية بالمستشفى، وكانت اعتراضات الأعضاء نمطية: «إن الآنسة دننج لا يمكنها أن تعمل مع السكارى المُدمنين، وهم أهم زبائن المستشفى، فلن تُطيق لغتهم البذيئة، وسوف تَسْتاء المُمرضات من العمل تحت إمرة طبيبة، كما أن هدوء الأطباء الذكور الذهني سيضطرب لوجود امرأة في هيئة الأطباء، وسيُضارُّ عملهم لهذا السبب.» ولكن أعضاء اللجنة التي حرَّضها الدكتور جون روجرز (الذي تنبَّأ بأن أطباء المستشفى إما أن يقعوا في غرامها أو يُبغضوها) ومعه الدكتور جون ف. أردمان والدكتور لويس ج. لادين «لم يبدُ عليهم التوجس الشديد من الاقتراح الذي قدَّمته لهم»،[8] وسمحوا لها بدخول الامتحان التنافسي، وتعهَّدوا بأن يُعينوها إذا فازت.

ودلَّت النتائج المُعلَنة على أنها الأولى بين الناجحين، فصار من حقها هي والثاني والثالث والرابع أن يشغلوا الوظائف الحالية في مستشفى جوفرنير. ومع ذلك بقيت عقبةٌ أخرى تعترض طريقها؛ ذلك أن جوفرنير مستشفًى تابع للمدينة؛ لذا وجب أن يُوافق مُفوض المدينة جون و. كيلر على التعيينات، وقد أعلن بحسم: «لن أكون مسئولًا عن خروج شابَّة في سيارة الإسعاف وتعريضها لدقِّ عنقها.»[9] ولم يستأنف حكمَه أحد. وأثناء السنة التالية، بينما كانت إميلي دننج تعمل عند الدكتورة ماري جاكوني، قام أنصار الإصلاح المدني والاجتماعي بالضغط على العمدة «ست لو» لتحقيق هذا الإصلاح.

وطلب المحترم «برسي ستكني جرانت» — راعي كنيسة الصعود الواقعة في الشارع الخامس الجنوبي والمؤيد لحقوق المرأة — إلى إميلي أن تُعدَّ تقريرًا يُرفَع للمُحافِظ. وركَّزت تقريرها على المزايا التي تعود على المجتمع من قبول النساء في هيئات المستشفى، وكذلك المزايا التي تعود على أشخاص الطبيبات. وفي ربيع سنة ١٩٠٢م أعلن المُحافظ أن الامتحان التنافسي لمستشفى جوفرنير سيُتاح دخوله للنساء، وأنه إذا فازت فيه إحداهن فستُعيَّن، وكان هناك شرطٌ واحد؛ أن التعيين يجب قبوله على نفس الأساس المفروض على الرجال؛ أي إن الامتياز يمتدُّ سنتَين؛ سنة في الطب العام وسنة في الجِراحة العامة، منهما سنة ونصف في خدمة نقالة الإسعاف.

ها هي ذي المعركة قد انتهت بالنصر، ولكن إميلي تلكَّأت في قبول الامتحان؛ فقد حدَثَت تغييراتٌ كثيرة في الطب والجِراحة في السنة التي مرَّت منذ أدَّت فيها الامتحان لآخر مرة، والصحف الطبية تفيض بنظريات وتقنياتٍ جديدة، ورُوجعت الكتب المُقرَّرة. ولاحق طلبة الطب التقدم، أما إميلي فقد ظلَّت في مكانها. ولما أخبرت الدكتورة ماري جاكوبي أن هناك نساءً مُمتازات في الفِرق العليا بكورنل لم تَلِن قناة الدكتورة.

ومضت إميلي إلى العمل، وكان الكفاح شاقًّا. وجاءت نتيجة امتحانها أقل قليلًا من تقديرها في العام السابق، حيث كانت الأولى. والواقع أن إجاباتها التحريرية لم تكن تؤهلها للظهور أمام المُمتحِنين في اللجان الشفوية السريرية، ولم يُتَح لها ذلك إلا عندما زِيد في آخر دقيقة عددُ الوظائف المطلوب لها أطباء امتياز. وفي الامتحان الشفوي استعادت ثقتها بنفسها؛ فقد كانت تعتمد على سنةٍ أمضَتها في التمرين العملي، فواتَتها الإجابات بسهولة. ويبدو أنه لو كانت إجاباتها التحريرية أفضل لكانت الأولى، ولكن جاء ترتيبها الرابعة. ولم تكن لتبدأ العمل في الجوفرنير حتى يناير سنة ١٩٠٣م، فتوفَّرت لديها — لأول مرة في حياتها — فرصة أخذ إجازة عن العمل ترى فيها أسرتها وصديقاتها وبنيامين يارنجر. وقد تعهَّدت أن تُساعد الدكتورة جاكوبي عند الحاجة، ولكنها لم تعمل بانتظام كما كان الحال في العام السابق.

الامتياز

عندما تقدَّمت الدكتورة دننج لتتسلَّم عملها، حاوَل زملاؤها الأربعة الذين تقدَّموها في التعيين جهدهم أن يُضايِقوها، وعُهِد إليها بالمهامِّ التي يَعدُّها المرضى جارحة لحياء امرأة أن تتولاها، ولكن إميلي قابلت هذه المحاولات التي تُحاوِل إخراجها من المستشفى بهدوء

وكفاءة، فكسب لها عملها في العنابر والمستوصف احترام المرضى وامتنانهم. وبحسب تعبيرها، قام مُضطهِدوها «بخوض معركة حامية، ولكنهم لم يدركوا أن الحَكم بيننا هم المرضى والممرضات وسُلطات المستشفى وسائقو النقالات والصِّحافة والشُّرطة ومُواطنو الجانب الشرقي. وكنت كارهة للدخول في صراع مع إخوتي في المهنة، ولكني قبِلتُ تحدِّيَهم لأنه لم يكن لي من ذلك مناص.»[10]

ولم تتناقص المُضايَقات في الشهور الستة الأولى، وكان مُعذِّبوها يتحدثون مِرارًا وتَكرارًا على مسمع منها عن الأخطار التي تحفُّ بخدمة سيارات الإسعاف، وعن القوة البدنية التي تلزم للتعلق والتثبت بالنقالة عندما تكون مُنطلقة بأقصى سرعةٍ وسط الشوارع، وعن المرَّات التي كاد كلٌّ منهم أن يسقط من فوقها. وكانوا يَصِفون الأماكن التي تدعوهم إليها، الحانات وأوكار الرذيلة والحارات القذرة، لالتقاط ضحايا كل نوع يخطر بالبال من أنواع الجرائم بما في ذلك محاولات القتل. وناقَشوا مُدمني الأفيون والسكارى الذين لا يحترمون زي الأطباء. ولما كانت الجوفرنير مستشفى طوارئ، فإن المرضى الذين يحتاجون إلى مدةٍ طويلة من الرُّقاد في المستشفى يُنقلون بنقَّالة تجرُّها الخيل إلى بيلفيو، كما أن النقالة تنقل المرضى ذهابًا وإيابًا بين بيوتهم أو الشوارع وبين المستشفى، أو تترنَّح بسرعة إلى حادث أو حريق وترتجُّ خلف الخيل التي تركض بجنون.

وكانت إميلي مُستعدَّة لأن تُجازِف بدق عنقها في خدمة النقالة، ولكن أين عساها تجد ملابس مناسبة للوثب من النقالة وإليها؟ إن الزيَّ الطويل الواسع قد يعوقها ويتسبب في وقوعها، والزي القصير قد يُعَد غير مُحتشِم. وزِيُّها يجب أن يكون كثير الجيوب، ولكن ينبغي ألا يكون كزِيِّ الرجال. وقد وضعت المسألة بين يدَي ف. يلارد وأولاده في بوستن، وهم مؤسَّسة طلبت منهم صُنْع زي لها عندما شرَعت في رياضة ركوب الخيل. وكان الزي الذي استقرَّ عليه الاختيار من قطعتَين؛ السترة من قماشٍ أزرق بحاري مُبطَّن بالساتان مُخنصَر عند الوسط ومظهرها عسكري، والجونلَّة تصل إلى الكعب وضيِّقة ضِيقًا كافيًا للحركة وواسعة بما يكفي للاحتشام، والجيوب مُخفاة بمهارة في كل أجزاء الزي، وهناك مِعطف مطر ترتديه فوق الزي لحمايتها من برد الشتاء ومطره. والحذاء ذو رباط عالٍ في الطقس المعتدل، وهناك كُزلك يصل إلى نصف الساق للطقس الرديء.

وكان أول استدعاء لنقَّالة الدكتورة دانتج في وقتٍ مُبكر من مساء ٣٠ يونيو لنقل مريضة من مستشفى بيت إسرائيل إلى بيلفيو. وكانت نقَّالة ذلك الحين مُصمَّمة بحيث يتحتَّم على الطبيب إما أن يكون في الصندوق الخلفي الضيِّق ليُعنى بالمريض، أو يجثم على

المقعد المكشوف الزَّلِق في مؤخرة العربة، وهو رفٌّ أكثر منه مقعدًا. وابتكر سائق النقالة (ديك بيتمان) الودود اللطيف طريقةً تُمكِّنها من الصعود بسرعة وأمان إلى مكانها، وهي أن تصعد وتجلس ثم تطوح جونلَّتها وقدمَيها فوق الباب الخلفي، بحيث يستدير ويكون وجهها للأمام، وتمدُّ يدَيها معًا لتتعلق بالأطواق الجلدية، كل ذلك في حركةٍ واحدة.

وسلَكَت بها الرحلة في جوفرنير إلى بيت إسرائيل ثم إلى بيلفيو والعودة بين أحياءٍ فقيرة في الجانب الشرقي الجنوبي من نيويورك. وكانت الحشود في الشوارع تُحملِق في المرأة الجالسة على الباب الخلفي، وكانت تعليقاتهم فجَّة، ولكنها تقبَّلت ذلك كله بصدرٍ رحب. وبانتهاء المَهمَّة عادت إلى المستشفى وهي تشعر بانتعاش. وفي ساعةٍ مُبكِّرة من الصباح التالي كانت الدكتورة دننج تركب النقالة لقضاء يوم طويل شاقٍّ، وكان سائقها توم وايت، واتَّضح أنه ودودٌ مِثل ديك بيتمان، والأهم من هذا أنه تبيَّن للجرَّاحة راكبة النقالة أن وايت بخبرته الطويلة كان قد تحوَّل إلى طبيبٍ مُشخِّص تقريبًا، فكان في وُسعه أن يعرف إذا كان الرجل فاقد الوعي مريضًا أم هو سِكِّير آخر، وكتبت إميلي تقول: «لقد ظل طول النهار يهمس لي: خُذيه إلى المستشفى يا دكتورة. أو: إنه بخير فخُذيه إلى مركز الشرطة؛ فجميع السكارى كانوا يُنقَلون إلى هناك لقضاء فترة إفاقة.»[11]

أما السائق الثالث توم موراي فكان توَّاقًا مِثل سابقيه لمساعدتها، فكانت الاستدعاءات تشمل مواقف مُنوَّعة؛ فإن لم تكن هناك حالةٌ عاجلة فالرحلة لطيفةٌ أشبه بنزهة بعد ظُهْر الأحد، أما الحالة العاجلة فالنقَّالة تجري فيها بسرعةٍ بالغة، تجعلها تتساءل إذا كان من الممكن استمرار التعلق بالأطواق الجلدية. وذات مرة كان الاستدعاء الذي لا تنساه إلى الشاطئ، وقد بُهِت الشُّرطيُّ الذي قام بالاستدعاء عندما وجد نفسه أمام امرأة، وكان من الواجب قبل كل شيء على الطبيبة أن تنزل إلى عنبر السفينة، ورغم تأكيداتها أنها ستتمكن من ذلك أصرَّ على أن يصحبهما شُرطيٌّ آخر؛ كي تتوفر لها الحماية من أعلى ومن أسفل، وهم ينزلون على سُلَّم الحبال بِيَد إلى أعلى وأخرى إلى أسفل، وقامت بمعالجة العظام المكسورة في قدم البحَّار، وراقَبَته وهو يُرفَع إلى أعلى، ثم بدون تَردُّد صعِدَت على سُلَّم الحبال. وقد كتبت فيما بعدُ عن ذلك الحادث: «لقد تعلَّمتُ في وقتٍ مُبكِّر أن أُطيع أوامر رجال الشرطة؛ فكلما طلبوا مني أن أصنع شيئًا صنعته بدون تَردُّد. وهناك مناسباتٌ كثيرة كان من حسن حظي أني استجبتُ هكذا لإرشاداتهم، وفي هذا الموقف لو أني تردَّدتُ ونظرت إلى أسفل إلى أعماق العنبر لكنت خليقةً أن يركبني الفزع.»[12]

وكان كبير الجرَّاحين أحد الأربعة المُصرِّين على تحطيم معنوياتها، فكان يُرهقها بالعمل بلا رحمة، فكان لديها استدعاءات للنقالة نهارًا وليلًا، وتتخللها أعمال في عنبر الحوادث بالنسبة للمرضى الذين أحضرتهم، وخِدمات جِراحة، وكل شيء آخر يمكن أن يخطر بالبال. ولشِدَّة إرهاقها بالعمل كانت إميلي تخشى أن ترتكب أخطاءً، وكثيرًا ما كانت تشعر بالوحدة؛ فبسبب مُشاكَسات القدامى كان أطباء الامتياز ممن عُيِّنوا معها لا يَجسُرون على الوقوف في صفها أو إظهار المودَّة لها، وكان خير ما يستطيعونه لها أن يظلوا على الحياد، وكان لها حُلفاء بين سائقي النقالات ورجال الشرطة الذين عرفوا كيف يحترمونها، وبين المرضى الذين ساعدتهم، وفقراء الجانب الشرقي الذين حدَّثوهم عن مساعداتها لهم، بل حتى بعض الممرضات.

ومرَّ الصيف، وجاء الشتاء جالبًا معه المطر والجمد والرياح والعواصف الثلجية، ومنها العنيف الجائح والجليد الغادر، فكان الشتاء في جانب الأطباء الذين يُحاولون إفشالها. ومع أنه ابتداءً من يناير سنة ١٩٠٤م كانت للدكتورة دننج أقدميةٌ كافية كي لا تخرج مع أول استدعاء للنقالة، إلا أنهم أصرُّوا على خروجها. وكان عذابها شديدًا، ولكنه لم يذهب سُدًى؛ لأنها تعلَّمَت أشياء لم تكُن تَحلُم بتعلمها في أي مكان آخر. وفي نهاية شهر يونيو رحل آخر مُعذبيها، وانتقلت هي رسميًّا إلى وظيفة جرَّاحة مُقيمة. ومن أكتوبر إلى نصف ديسمبر — حين فرغت من تمرينها في الجوفرنير — فأصبحت كبيرة لأطباء الامتياز. وفي الأمسية التالية لرحيلها عن المستشفى تجمَّع وفدٌ من سائقي النقالات ورجال الشرطة والعمال والمواطنين العاديين في الجانب الشرقي الجنوبي، وتوجَّه إلى بيت آل دننج ليُقدِّموا لها التعبير التالي عن تقديرهم:

«شهادة
من مُواطني نيويورك وشرطة الأحياء ٧، ١٢، ١٣
وسائقي نقالات مستشفى جوفرنير
إلى
الدكتورة إميلي دننج
بمناسبة اعتزالها في أول يناير سنة ١٩٠٥م عملها كرئيسة
هيئة الأطباء المقيمين في مستشفى جوفرنير بنيويورك
بأن الدكتورة دننج
قد خدمت لمدة سنتَين المستشفى وشعب نيويورك بطريقةٍ كسبَت إعجاب
وتقدير زملائها من العاملين وكل من اتصلت بهم بحكم عملها. إنَّ براعتها

المُدهشة وضميرها اليقِظ وجهودها التي لا تعرف الكلل، والدماثة واللطف والولاء للمرضى والحنان المُفرِط واحترام كل من عملت معهم، كل ذلك جعلها عزيزة على الجميع.

باعتبارها المرأة الوحيدة في العالم التي عملت جرَّاحة على نقَّالة، وقد كسبت مكانتها الممتازة في العالم كله، وجلبت الشرف والتكريم لا لنفسها فحسب، بل لجنسها كله ولمهنتها ولمستشفى جوفرنير ولمدينة نيويورك.

ونحن نتمنَّى ونسأل الله أن يحمل لها المستقبل السعادة والمزيد من الشرف والتكريم، وأن تحوطها أطيَبُ تمنِّياتنا المُخلِصة في أعمالها الجديدة.»[13]

وقد تزوَّج بنيامين بارنجر وإميلي دننج يوم السبت التالي، في الثامنة صباحًا. وفي العاشرة أبْحَرا إلى أوروبا ليَدرُسا معًا في فيينا.

وواصلت الدكتورة إميلي دننج بارنجر كفاحها في سبيل قضية المرأة في الطب، وقد تكلَّلت جهودها بالنجاح عندما أرسل مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة في أبريل ١٩٤٣م إلى البيت الأبيض؛ كي يُوقِّع الرئيس على قانون بتكليف الطبيبات الجرَّاحات في القسم الطبي بالجيش والبحرية.

الفصل الثاني عشر

أليس هاملتون

تدلُّ المُدوَّنات على أن أليس هاملتون (١٨٦٩–١٩٧٠م) وُلِدت في مدينة نيويورك، ولكنَّ مَوطنها الحقيقيَّ — الذي نُقِلت إليه وهي ابنة ستة أسابيع — كان في إنديانا. وقد هاجَر جدها لأبيها من شمال أيرلندا إلى فورت واين وهو شابٌّ، ثم لحِقَ به أبوه، فكان جيلها رابع جيل يعيش فيما يُسمُّونه «البيت القديم»؛ لهذا كله نفهم لماذا كان الكثير من عمل الدكتورة هاملتون الرائدة في الطب مركزًا في الوسط الغربي، وكان أبواها، وهما مونتجمري هاملتون وجرترود بوند هاملتون يؤمنان بأن للفتَيات حقًّا مُساويًا للصِّبيان في التعليم، وكانت لهما آراؤهما فيما يجب أن يتضمنه هذا التعليم. وقد تذكَّرت أليس فيما بعدُ «أننا تلقَّينا قشورًا من الرياضيات علَّمَتنا إياها مُربِّيةٌ نهارية، ولكني لم أتجاوز بدايات الجبر، وتعلَّمْنا ما خاله أبوانا هامًّا؛ اللغات والأدب والتاريخ، وظفِرنا بتعليمٍ مُنظَّم في اللغات فقط، أما المواد الأخرى فكان علينا أن نتعلمها بالقراءة، وهذا ما فعلناه … وكانت عادة قيامنا بالبحث عن المعلومات التي نريدها عادةً ثمينة جدًّا.»[1]

وكانت مدرسة مس بورتر في فارمنجتن بكونكتيكت تقليدية بالنسبة لبنات أسرة هاملتون؛ فكلما بلغت إحداهن السابعة عشرة أُرسلت إلى هناك لمدة سنتَين، وكان عدد البنات عشرًا، وكانت آخرهن أصغر شقيقات أليس.

ولما عادت أليس إلى فورت واين في سنة ١٨٨٨م كان واضحًا أن نجم آل هاملتون الزواد آخذًا في الانحدار إلى المغيب؛ فإذا كانت البنات يُرِدن أن يحظَين بحياةٍ رغدة فعليهن أن يعملن. وكانت الأعمال المفتوحة أمام النساء في مثل مركزهن في الحياة مقصورة على التعليم والتمريض، وممارسة الطب رغم صعوباتها، وقد اختارت أليس الطب، ثم كتبت بعد ذلك: «وليس ذلك لأنني كنت ذات عقل علمي، بل إني كنت جاهلةً كل الجهل بالعلوم،

ولكني اخترت الطب لأنني — كطبيبة — سأستطيع الذهاب حيث أشاء إلى أراضٍ بعيدة، أو إلى الأكواخ الحقيرة في المدن وأنا واثقةٌ من أني سأكون ذات نفع أينما كنت.»[2]

وقضت أليس عامًا تدرس الفيزياء والكيمياء على يد مُدرِّس بمدرسةٍ عالية، والتشريح في مدرسة للطب من الدرجة الثالثة بفورت وايت، ثم ذهبت إلى مدرسة الطب بجامعة متشيجان في آن آربور التي تخرَّجت منها في سنة ١٨٩٣م، وكانت نيَّتها أن تدخل المجال الجديد للباثولوجيا، الذي يهتمُّ بدراسة التغيرات في أنسجة الجسم بسبب المرض ورد فعل النسيج للمرض، ولكن جورج دوك (١٨٦٠–١٩٥١م) أستاذها في الطب (الذي سوف يصف في سنة ١٨٩٦م أول حالة انسداد للشريان التاجي في أمريكا ثبتت بالتشريح) أقنعها أن تنال أولًا شيئًا من التدريب في المستشفى، وكان رأيه أنها بدون ذلك ستظل معرفتها وخبرتها ذات جانب واحد؛ ولذا خصَّصت سنة للامتياز في بوستن قبل أن تذهب إلى ألمانيا، حيث كان المشهور أن بها أحسن معمل في الباثولوجيا والبكتريولوجيا. وبعد أن درست في ليبزج وميونخ وصلت إلى قرار بأن «ليبزج لم يكن لديها ما تُعطينِيه في البكتريولوجيا مما لم أكُن حصلتُ عليه من قبلُ (في آن آربور) … ولكن لا الألمان ولا الأمريكيون كانوا مُستعدِّين لتصديق ذلك.»[3]

وعادت إلى أمريكا في سنة ١٨٩٦م، فوجدت أن الأطباء الأمريكيين لا يُلقون كبير اهتمامهم إلى المُشتغل بالباثولوجيا وما يقوم به من عمل؛ مما جعل عامها في ألمانيا يبدو لها كالمُهدَر بوجهٍ ما، فلا أحد يريد «الباثولوجية» هاملتون. ولما لم يكُن أمامها عملٌ مُتوقَّع قرَّرت أن تُخصِّص الشتاء لدراسة التشريح الباثولوجي على يد سيمون فلكسنر في مدرسة طب جونز هوبكنز. وفي الصيف التالي تلقَّت وقبِلَت عرضًا بتدريس الباثولوجيا في مدرسة الطب النسوية بجامعة نورثوسترن في شيكاغو، وهو منصبٌ شغلَته حتى سنة ١٩٠٢م، ولكنها شعرت أنها لن تكون إلا بكتريولوجية من الدرجة الثالثة أو الرابعة، وقرَّرت أن تُخصِّص جهدها لمشكلاتٍ ذات أهمية إنسانية مباشرة. وتحقيقًا لهذه الغاية بدأت تُنفِق أكثر وقت أمكَنَها أن تُوفِّره من التعليم في العمل بهال هاوس، وهي مدرسة تأسَّسَت على يد جين آدمز سنة ١٨٨٩م، وذهبت أليس لتعيش في هال هاوس في سنة ١٨٩٧م.

تخصصٌ جديد

وكان سكان هال هاوس يعيشون جيرانًا لفقراء المدينة، ومن بينهم المهاجرون المُستغلَّون الحائرون. وقد سمِعَت الدكتورة هاملتون حكاياتٍ شنيعةً عن حوادث وأمراض يُعاني

منها عمال المصانع، ومن بين هذه الأمراض التسمُّم بأول أكسيد الكربون في مصانع الصلب، والتسمُّم بالرَّصاص بين عمال الطلاء، والالتهاب الرئوي والروماتزم في أفنية الماشية. وفي ذلك الحين لم تكن في شيكاغو عيادات أطفال، فسمحت مس آدمز للدكتورة هاملتون أن تُنشئ عيادة للأطفال في الحمَّام الكائن ببدروم الجمنازيوم (وكتبت أليس: «... ومع أنني لم أشعر على الإطلاق بأني على كفاءة لعلاج الأطفال المرضى، إلا أنني غامرت بفتح عيادة لصحة الأطفال»).[4] وأكَّد لها الاتصال بأمهات الأطفال ما كانت قد سمِعَته عن عدم الاهتمام بالحياة البشرية والعناء السائد في الصناعة.

وكان الطب الصناعي طبًّا مُعترَفًا به في ألمانيا وبريطانيا والنمسا وهولندا واسكندنافيا وفي إيطاليا وإسبانيا، أما في الولايات المتحدة فلا. وقيل في تبرير ذلك إن العامل الأمريكيَّ الأفضل أجرًا لا يُعاني من الآفات التي يتعرض لها العامل الأوروبي بمُستواه الأحط كثيرًا في المعيشة. «... ولما تحدَّثَت إلى أصدقائها الأطباء عن الصمت الغريب حول هذا الموضوع في المجلات والكتب الأمريكية، أحسَّت أن هذا الموضوع متهَم بالاشتراكية أو بالعاطفية الأنثوية نحو الفقراء، ولم تَعقِد الجمعية الطبية الأمريكية قطُّ اجتماعًا مُخصَّصًا للموضوع، وفيما عدا بعض الجرَّاحين المُرتبطين بالشركات الكبرى التي تُدير مصانع الصلب أو السكك الحديدية أو مناجم الفحم، لم يكن هناك أطباء في إلينوي مُتخصصين في ميدان الطب الصناعي.»[5]

ومن المُتمرِّدين القلائل على مؤامرة الصمت التي تتستَّر على ظروف العمل كان الأستاذ تشارلز ر. هندرسون (١٨٤٨–١٩١٥م) رئيس قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو، وكان قد درس وأُعجِب بنظام الألمان في التأمين على الفئات العاملة، وكان مُتلهفًا أن يراه مُطبَّقًا في أمريكا. وفي سنة ١٩١٠م تسنَّى له أن يُقنِع حاكم إلينوي بتعيين لجنة لأمراض العمل لتقوم بأول مسح لأمراض الصناعة تقوم به ولاية، وقد عُيِّن الدكتور هندرسون والدكتورة هاملتون في هذه اللجنة، وكانت مَهمَّتها المُحدَّدة أن تُحدِّد أسباب التسمم بالرصاص.

وكان الاعتقاد السائد أن التسمم بالرصاص يَنجم عن الإمساك بالطعام بيدَين غير مغسولتين، فكانت القاعدة الوحيدة المُقرَّرة من جانب الإدارة لحماية العمال أن يغسلوا أيديَهم بعنايةٍ قبل الذهاب إلى بيوتهم، والعامل الذي يَمرض يُتَّهم بأنه أهمل هذه النصيحة. وكانت الدكتورة هاملتون مُقتنِعة منذ البداية بأن التسمم بالرصاص ينجم عن استنشاق تراب الرصاص وأبخِرته، واقترحت تَعقُّب حالات تَسمُّم بالرصاص بقصد

إقناع الإدارة بأن المشكلة جِدِّية. وكانت الصعوبة في العثور على الضحايا أو أدلة على مرضهم؛ فالعمال الذين يمرضون كانوا يختفون عن الأنظار ببساطة، فالمرض هو الثمن الذي يتوقعون أن يدفعوه لفقرهم. ولما كانت اليد العاملة رخيصة وكثيرة فلا أحد يُفتِّش عن عمال، ونادرًا ما يُعرَف مورد الأسماء الأخيرة للرجال الذين يعملون تحت إمرته، ولا الشركة تحتفظ بسِجلات لأسماء المستخدمين وعناوينهم. واتَّضح ان المستشفيات لم تُقدِّم سوى بياناتٍ محدودة؛ فالطبيب المُقيم النموذجي لا يتعرف على تسمُّم الرصاص عند ما يراه، وكان خليقًا أن يعزوَ علة المرض إلى تأثير الإفراط في الشراب.

وبعد شهور من البحث الدائب في أحياء شيكاغو الصربية والبلغارية والبولندية تمكَّنَت الدكتورة هاملتون من الإثبات بالوثائق لاثنتَين وعشرين حالة من التسمم بتراب الرصاص وأبخرته. ولما قدَّمت ما عثرت عليه إلى إدوارد كورنيش في شركة شيكاغو الوطنية للرصاص، تصرَّف بغير إبطاء، وتم تركيب نظام كافٍ للتهوية، وزوَّد الرجال المُتصلين عن قرب بالرصاص الجافِّ بأجهزة تَنفُّس صُمِّمت لهم خصوصًا، وتأسَّس قسمٌ طبي، وصار كل عامل يُفحَص أسبوعيًّا بواسطة طبيب، وحذَت مصانع أخرى حذوَ الشركة الوطنية.

وفي سنة ١٩١١م أصدرت ولاية إلينوي قانونًا بالتعويض عن أمراض الصناعة الناجمة عن الأبخرة والغازات والأتربة السامة. وفي هذه الأثناء كانت الدكتورة هاملتون قد حضرت المؤتمر الدوليَّ لحوادث وأمراض العمل المُنعقِد في بروكسل في سبتمبر سنة ١٩١٠م، وهناك قابلَت تشارلز أونيل مُفوض العمل في مصلحة التجارة بالولايات المتحدة. وقد كتبت الدكتورة هاملتون عن المؤتمر وهذا اللقاء: «كانت هذه رحلةً هامة لي، ليس فقط لأنها علَّمتني الكثير في مجال الصحة الوقائية، بل أكثر من هذا؛ لأنها انتهت بقطع الصلة بيني وبين البحث المعملي واتخاذي هذا التخصص الجديد رسالةً لحياتي.»[6]

واقترح المفوض أن تقوم بدراسةٍ تُغطي القُطر كله، شبيهة بتلك التي قامت بها في شيكاغو، ومدَّت أبحاثها مُتجاوِزةً حدود التسمم بالرصاص، فزارت المناجم والمحاجر والمصانع والمصاهر ومواقع البناء، فوجدت قاطعي أحجار «أصابعهم ميتة»، أيديهم خدِرة ورمادية من تذبذبات المطارق الهوائية، ووجدت عمال المحاجر مُصابين بالسُّل، والعاملين في الرمال مُصابين بالتسمم السليكي، وهما مرضان يَنجمان من الاستنشاق المُتواصل لتراب الأحجار. ووجدت أن البنزول — وهو مُركَّب كيماوي شديد الخطورة كان يُستخدم يومئذٍ في مصانع الأحذية والمطاط — يُهاجم نخاع العظام الذي ينتج الكرات الحمراء

في الجسم؛ مما يُسبب الأنيميا والنزف الحادَّ تحت الجلد ومن اللِّثة والأنف. ووجدت أن العاملين في الأنفاق مُعرَّضين لمرض «كيسون»؛ فالرجال يُعانون من عطبٍ حادٍّ في المخ والحبل الشوكي نتيجةً لنقلهم بسرعة من حجرات الضغط التي يعملون فيها إلى الجو العادي مباشرةً، والأعراض هي الألم العنيف في الأطراف (الالتواءات) واضطرابات في المخ (الترنح الأعمى)، وقد حلَّت المشكلة بإنشاء سلسلة من حجرات التخلخل. وفي الدراسة الأخيرة التي قامت بها (١٩٣٧–١٩٣٨م) وجدت أنَّ ثانيَ كبريتور الكربون المستخدَم في نوعٍ مُبكِّر من الألياف الصناعية معروفٍ باسم فيسكوز يُسبِّب الشلل والجنون.

وبجانب الأمراض كانت هناك إصاباتٌ كثيرة، منها حوادث بَتْر الأصابع والأطراف، بل فقد البصر. وكانت هذه الإصابات تَحدُث لأن التعليمات الخاصة بالأمان قليلة وقلَّما تُراعى. وسنةً بعد سنةٍ قدَّمت تقارير إلى واشنطن عن الظروف الرهيبة في الصناعة الأمريكية، وحاضرت وألَّفت الكتب، وكتبت المقالات للصحف والمجلات، وجاءت الإصلاحات ببطء ولكنها جاءت.

قضايا أخرى

لقد تبنَّت أليس هاملتون قضايا كانت — على الأقل — سابقة لزمنها. وفي أوائل العقد الأول من القرن العشرين كانت تُناصر وتُنادي بتحديد النسل. وفي سنة ١٩١٥م انغمسَت في أنشطةٍ تدعو للسلام، وحضرت مؤتمرًا دوليًّا للنساء في لاهاي بهولندا، كان الغرض منه إنهاء الحرب المُندلعة يومئذٍ في أوروبا بإرسال وُفود من النساء المُحايدات لزيارة عواصم الدول المُتحاربة في محاولة للتوسط. وفشِلَ المشروع، ونعتوا الشركات بأنهن «سِلميات»، ولكن بمعنًى يحمل الزِّراية.

وفي أواخر سنة ١٩١٨م، بعد أن ألقت الدكتورة هاملتون بوقتٍ قصيرٍ محاضرات كاتر في مدرسة طب هارفرد (وهي مُقدَّمة للتعيين في الكلية)، وحضرت هي ومس آدمز اجتماعًا للعصبة الدولية النسوية للسِّلم الدائم، طلب إليهما الكويكريون الأمريكيون أن تنظرا وهما في الخارج في حالة أطفال ألمانيا المهزومة. وقد ارتاعت الدكتورة هاملتون، «إن يوميَّاتي في ألمانيا صورٌ مُتلاحقة من الجوع، شاهدَتها في دور الحضانة ورياض الأطفال والمدارس، وفي المستشفيات ومصحَّات السُّل، وفي المعسكرات الخلوية للفِتيان والفتَيات. لقد رأيت حينئذٍ — وجهًا لوجه — ما لم أرَه من قبلُ إلا في رسوم الكتب الطبية؛ حالات مُتطرفة من الضَّوى (وهو هُزال أنسجة الجسم بسبب سوء التغذية).

لقد كانوا جميعًا عرايا (في المعسكرات الخلوية)؛ لأنهم يجب أن يتركوا أشعَّة الشمس على أبدانهم ليعرضوا جزئيًّا نقص الدهون. وهكذا أُتيحَ لنا أن نرى السِّيقان كالعِصي والبطون المُنتفِخة والأضلاع التي يمكننا أن نُحصيَها وألواح الأكتاف البارزة كالأجنحة. لقد رأيناهم يأكلون وجبة الظهيرة، وهي عبارة عن بعض الحساء المُكوَّن من ماءٍ ساخن به حبوبٌ مجروشة وأوراقٌ خضراء وبضع قطرات من المرجرين.»[7]

وعادت هي ومس آدمز إلى الوطن عازمتَين على عملِ ما تستطيعان لتخفيف مشاعر ما بعد الحرب نحو ألمانيا المقهورة، ولجمع الأموال لمراكز الإطعام التي يعتزم الكويكريون إنشاءها. ولئن كانت الدكتورة هاملتون قبل ذلك مثار دهشة لميولها السلمية المُعادية للحرب، فإنها الآن صارت متهَمة صراحةً بمُمالأة الألمان.

وقالت إحدى المُساهِمات السخيَّات في مدرسة الطب لعضو في إدارة جامعة هارفرد إنها لن تُعطيَ بنسًا آخر للكلية، إذا عُيِّنت بالكلية أي شخصية تطوف بالناس مُثيرةً عطفهم على ألمانيا. وطلبت إلى الدكتورة هاملتون أن تُفنِّد هذا الاتهام، ولكنها رفضت وقالت إنها ستُواصل الكلام — كلما وجدَت لذلك فرصة — في موضوع الأطفال الألمان الجياع، وإنها ستجمع الأموال لهم.

وتولَّى دافيد إسدال عميد مدرسة الطب دحْضَ احتجاج المُكتتبة الكريمة، وعُيِّنت الدكتورة هاملتون أستاذةً مُساعدة للطب الصناعي، ودرست أيضًا الطب الوقائيَّ والصحة العامة. وفي سنة ١٩٣٥م تقاعدت من هارفرد وهي أستاذة فخرية للطب الصناعي.

لقد كانت صحة الشعب — في كل مكان — موضع اهتمامها. ولما عُيِّنت عضوًا في لجنة الصحة بعصبة الأمم في سنة ١٩٢٤م، درست مشكلات الصحة في كل أنحاء أوروبا.

وقد عاشت أليس هاملتون حتى سن الواحدة بعد المائة، وكثيرًا ما كانت سابقة لزمنها، ولم تكن قطُّ مُتخلِّفةً عنه؛ ففي سن الثمانين قالت لمخبر صحفي فنَّان — هو س. ج. وولف — كان يكتب عنها مقالًا بمجلة نيويورك تايمز: «إن كنت تريد أن ترسمني بالقلم فسأخلع قُبَّعتي؛ لأنه ما من شيءٍ يحدد عصر امرأة مِثل القبعة، وأنا أرفض أن أرتبط بعصر أو تاريخٍ مُعيَّن.»[8]

وإنه — قطعًا — لخيرُ تأبين لها.

القسم الثالث

نساء في الميادين ذات الصلة

الفصل الثالث عشر

التمريض

من الراهبات إلى نايتنجيل

التمريض من أقدم فنون العالم. وفي العصور الأولى لم يكن التمريض مُتميزًا عن ممارسة الطب والجِراحة، وكان ذلك صحيحًا في تلك المجتمعات البدائية التي كان فيها المرض من اختصاص الطبيبات أكثر من الأطباء، ومن جهةٍ أخرى حيث كان يوجد أطباء رجال، وكان في الغالب لهم مُساعدون أقل منهم مكانة، وهم غالبًا من النساء، يُنفِّذون تعليماتهم العلاجية، ويضمدون الجِراح وما إلى ذلك، وهؤلاء المُساعدون يمكن أن يُعَدوا الممرضين والممرضات الأُوَل.

ونادرًا ما تُشير المُدوَّنات الطبية المبكرة — التي عاشت حتى اليوم — إلى التمريض. وهذا غير مُثير للدهشة تقريبًا؛ فمؤرخة التمريض «ميني جودناو» قد بيَّنت أن «البشر لا يحفظون مُدوَّنات للأحداث العادية، بل لغير العادية والمسترعِية للنظر، وكان الناس يُمرِّضون مرضاهم بصورةٍ طبيعية وعادية.»[1]

وتحدَّدت وظائف ومواصفات المرضة منذ القرن الرابع قبل الميلاد؛ فهذا «شراكا» الطبيب الهندي الممتاز قد كتب في خلاصته الوافية:

«الطبيب، والعقاقير، والممرضة، والمريض؛ مجموعةٌ رباعية، وينبغي أن يكون معلومًا ما هي الفضائل التي يتحلى بها كلٌّ منهم ليكونوا أسبابًا لشفاء المرض:

> الممرضة: معرفة الطريقة التي تُحضَّر بها العقاقير أو تُخلَط لتعاطيها، والمهارة والولاء للمريض الذي ترعاه، والطهارة (عقلًا وجسدًا على السواء).
>
> تلك هي المواصفات الأربع للممرضة المعالجة.»[2]

وهناك تعريفٌ مُماثل عاش لنا من جزيرة سيلان:

«يجب أن تكون المرضة ماهرة ومُخلِصة للمريض وطاهرة الجسم والعقل.
ويجب أن تعرف كيف تخلط العقاقير، وعلى مهارة في طهو الطعام، وبارعة في غسل أجسام المرضى، وخبيرة بتدليك الأطراف والجسم، ورفع المريض ومساعدته في المشي، وماهرة في تسوية وتنظيف الفِراش، ومُستعدَّة، وصبورًا، وغير مُتأبية أن تقوم بأي شيء تؤمر به.»[3]

وقد شيَّد الملك أزوكا (مُتوفًّى ٢٢٥ق.م.) ملك سيلان ١٨ مستشفًى كان القائمون بالرعاية فيها رجالًا، ولكنهم كانوا بداهةً مُمرضين. وأحد سابقيه الملك «براكراما باهو» (ويبدو أنه عاش قبل ٥٥٠ق.م.) شيَّد «مستشفيات كبيرة للمرضى، وزوَّدها بالمؤن والعبيد والجواري لخدمة المرضى وتغذيتهم».[4]

وكان الفُرس الأقدمون أيضًا لديهم بيوت للمرضى الفقراء الذين يقوم على خدمتهم العبيد والجواري.

كان بمعبد أسكولاب في أبيداوروس جناح مستشفًى تقوم الكاهنات بالخدمة فيه، وربما كنَّ ممرضات.

ويتكلم أبقراط عن المُساعد الشريك للطبيب في العمل، ولا يُشير مباشرة إلى الممرضات وعملهن، ولكنه أمرٌ واضح أن الإغريقيات كنَّ يعملن ممرضات. وبما أن سيدة البيت كانت مُكلَّفة بتمريض العبيد المرضى فقد كان العبيد بطبيعة الحال من أثمن الممتلكات.

والجندي الروماني عماد الإمبراطورية كان يُوفَّر له خير تمريض ممكن. وفي البداية كانت هذه الخدمة تُؤدَّى في البيوت الخاصة، ثم صار يُعنى بالمرضى والجرحى في خيام أو مبانٍ مُنفصلة على يد نساء ورجال مُسنِّين. وبعد ذلك أيضًا كانت هناك مستشفياتٌ عسكريةٌ، بها طبقة من جنود المراسلات يقومون بمهامِّ الممرضين.

وفي أوائل عهد المسيحية صارت للنساء نحو ١٢ مُنظَّمة؛ فالشمَّاسات والأرامل والراهبات كنَّ مُكلَّفات — بصفةٍ خاصة — بالتمريض. وكانت الشمَّاسة تُرسَّم من الأسقف للقيام بنفس المهام التي يقوم بها زميلها الرجل. وأول شمَّاسة هي فيبي (٦٠م) التي يقول عنها القِديس بولس: «لقد حمَت كثيرًا من الإخوة، وحمَتني أنا أيضًا» (رسالة إلى أهل روما ١٦: ٣).

ويجب أن ننظر إلى عمل الشماسة على أنه تمهيد لمنظمات الممرضات الزائرات؛ لأنهن كنَّ يُعنَين بالمرضى في بيوتهم وفي المستشفيات، وكنَّ نشطات في سوريا وآسيا الصغرى

وكل أنحاء إيطاليا، بل وفي إسبانيا وبلاد الغال وأيرلندا. وفي سنة ٤٠٠م كانت هناك ٤٠ شمَّاسةً يعملن ممرضات في أبرشية القسطنطينية. وبينما ظل نظامهن معمولًا به في الكنيسة الشرقية إلى القرن الثامن عشر، وكانت أيامهن — كنظامٍ ديني — معدودة، ففي القرنَين الخامس والسادس، جرَّدت المجامع الغالية نظامهن من طابعه الكهنوتي. وعندما قرَّر مجمع أورليان تحريم تكريس النساء للخدمة في سنة ٥٣٣، أُلغيَ النظام رسميًّا.

وظهرت أخوات التمريض حوالَي سنة ٥٠٠. وفي البداية لم يكن أعضاؤها مُلزَمات بأي عهود، ولا يرتدين زيًّا مميزًا. ولما صارت السلطة بيد الكهنوت صارت العهود والأزياء المميزة شيئًا معتادًا.

وأقدم نظام إخوة للتمريض الخالص في العالم هو نظام الأخوات الأوغسطينيات، اللواتي خدمن في مستشفى أوتيل دييه بباريس التي تأسَّست على يد الأسقف لاندري في سنة ١٦٠٥. وقد قدَّمت لنا م. أديلايد ناتنج ولافينيال دوك — اللتان كتبتا تاريخهما للتمريض في أوائل العقد الأول من القرن العشرين — صورةً قلمية لأولئك الأخوات:

> «لمدة اثنَي عشر قرنًا كانت أجيال من الأخوات الأوغسطينيات يَكدَحن في إنكارٍ تامٍّ للذات وتواضع حتى مع تَقدُّم أعمارهن، وكثيرات منهن مِتْن وهنَّ تحت نير العمل كالخيل المُسنَّة المُنهَكة الصبور. ومنذ القرن الثالث عشر على الأقل إن لم يكن قبل ذلك، ظل نصيبهن من المهام شاقًّا وعسيرًا؛ لا لأن العمل كان قاسيًا فقط، بل لأنهن حُرِمن حتى ذلك الضوء من المعرفة والفهم الذي يصنع الكثير لتخفيف جهامة أَشق الأعمال؛ فقد قطع ما بينهن وبين أي مشاركة في الحياة الذهنية، وحتى مسار التقدم الخارجي للبشر كان مُغلَقًا دونهن؛ فالتعليم المهني لم يكن موجودًا بالنسبة لهن، وغاية ما يقترب مما يمكن أن يُسمَّى تعليمًا هو ذلك الروتين الذي تتلقَّنه إحداهن عن الأخرى؛ فأي غرابة إذا أصابهن الاضمحلال بمرور الزمن وصِرْن عاجزات عن التقدم، وإنِ العلم خلَّفهن وراءه، وإن البيئة التي تغيَّرت وجدتهن عاجزات عن التكيُّف معها؟»[6,5]

وفي القرن السادس كان ساسردوس كبير أساقفة ليون مسئولًا عن إقامة مستشفى أوتيل دييه في مدينته، فأقنع شيلدبرت الأول ملك الفرنجة بإقامة ما قُدِّر له أن يصبح واحدًا من أكبر وأكمل مستشفيات فرنسا بأَسْرها. ولم تكن الممرضات به من المنظمات الدينية، بل كنَّ خادمات وفتَيات تائبات؛ أي بإيجازٍ عاهرات يُرِدن أن يَعِشن حياةً شريفةً

أفضل، وكثيرات منهن كنَّ من مريضات المستشفى اللواتي كرَّسن أنفسهن بعد ذلك لخدمته. وبعد ذلك بثلاثة عشر قرنًا ونصف أخبرت الدكتورة آنا هاملتون المؤتمر الدوليَّ الثالث للمُمرضات في بفالو بنيويورك، أن من جئن بعدهن قد أُعطين تعليمًا مهنيًّا أوليًّا في المستشفى، وهن أفضل منهن نظامًا، ومن حقهن أن يتركن الخدمة ويتزوجن، ولكن على وضعهن الحر لم يتلقَّين أي تدريب حقيقي بالمعنى الحديث، وعملهن مُتخلف عن زمنه وفج.[7]

ولـ «البيجوينيات» في إقليم الفلاندر (بلجيكا) نظامٌ فريد بين النُّظم العلمانية المُبكرة. وهناك تساؤل عن تاريخ تأسيس نظامهن، وعلى يد من، ولكن هناك دلائل توحي بأن ذلك التاريخ قد يكون في وقتٍ مُبكر، لعله القرن السابع، وإن كان هناك من جعل ذلك التاريخ مُتأخرًا حتى ١٢٣٤م.[8] وأوائل البيجوينيات أصابهن التقزُّز من الشرور التي تسلَّلت إلى حياة الأديرة، أديرة الرجال وأديرة النساء على السواء، فنشدنَ التعبير عن ذواتهن وإنكار أنفسهن في عملٍ يتجاوز ما تُمليه الكنيسة، فأنشأن جماعات عِشْن فيها حياة النسك بعيدًا عن الرجال، وكنَّ يَعُلن أنفسهن بصنع المخرمات (الأربطة) وبيعها. وبسبب طبيعتهن العلمانية كان للأعضاء الحرية في ترك المنظمة والزواج متى شئن. والبيجوينيات ما زِلن عاملات إلى اليوم، ويَقُمن بالتمريض الخاص وفي المستشفيات معًا.

ولئن ذهب الظن إلى أن الأمور قد انقلبت انقلابًا تامًّا، من المُمرضين الذكور لدى الهندوس وغيرهم من الحضارات الأولى إلى الشمَّاسات والراهبات وغيرهن من النساء المُكرِّسات أنفسهن للتمريض في الألف الأولى بعد الميلاد، لَكنَّا مُشوِّهين للحقائق؛ فعلى امتداد التاريخ قامت فئاتٌ مختلفة من الناس — ذكورًا وإناثًا — بدرجاتٍ مختلفة من التمريض والعناية بالمرضى في أجزاءٍ شتَّى من العالم.

أنظمة الإسبتارية أو أنظمة الفُرسان

وفي العصور الوسطى، حينما كانت هناك مُنظَّماتٌ دينية بين الذكور (من ضِمن مهامهم التمريض)، كان التمريض بغير شك مشتركًا بين الرجال والنساء، ومع بداية الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦م حدث اندفاعٌ ظاهر بين الرجال نحو التمريض.

ويبدو أن أول إشارة إلى مستشفًى في القدس جاءت من برنار، وهو راهبٌ فرنسي قام بالحج في سنة ٨٧٠م، فوجد هناك «مستشفًى للاتين، وفي نفس المبنى مكتبة جُمِعت بعناية وعلى نفقة شرلمان».[9]

وحوالَي سنة ١٠٥٠م أنشأ بعض التجار الأثرياء من أمالفي (إيطاليا) مُستشفيَين في القدس أحدهما للذكور والآخر للإناث، ومستشفى الذكور الذي كان تحت رعاية القِديس جون المتصدق (من قبرص) هو الذي أفرَخ الفُرسان الإسبتاريين المشهورين بِاسم فُرسان القديس جون المقدسي، وهم «إخوة» شيَّدوا بعد ذلك مستشفيات في رودس ومالطة.

وكان الفُرسان رجالًا من أهل المكانة، وقد اشترك بعضهم في الحروب الصليبية، وعمل بعضهم أطباء هناك، بتعليمٍ أقل أو بلا تعليم. و«أنصاف الفُرسان» أو الإخوة الخُدَّام رجالٌ من مستوًى اجتماعي أقل، كانوا يقومون بتمريض المرضى. وقد تأسَّس الفرع الإنجليزي لهذه الرهبنة في سنة ١١٠٠م، ولم يزَل يُدير المستشفيات ويقوم بالتمريض.

إن الحروب الصليبية التي استمرَّت زهاء مائتَي سنة جلبت في أعقابها انتشارًا للأخويات الإسبتارية، وأشهرها — إلى جانب فُرسان القديس جون — فُرسان الصليب الأحمر (١١١٩م) والفُرسان التيوتون الإسبتارية (١١٩١م) وفرسان القِديس أليعازر. وقد حاوَل بعض المؤرخين أن يتعقَّبوا إسبتارية القِديس أليعازر إلى المستشفى الذي بناه القِديس باسيل في قيصرية سنة ٣٧٠م، ولكن بداية هذا النظام من الفُرسان تقترن — عمومًا — بالحروب الصليبية. وكانت هناك — أيضًا — راهبات في هذا النظام (القِديس أليعازر).

المستشفيات العامة والخاصة

كانت هناك مستشفيات كبيرة قليلة قبل القرن الثاني عشر، وبنُموِّ المدن لم تعُدْ مستشفيات الكنيسة كافية للعناية بالمرضى، فشُيِّدت مستشفيات المدن لتكملة مَهمَّتها. وكانت هذه المستشفيات بديعة العمارة كمستشفيات الكنائس، ولكنها من حيث الكفاءة كانت أقل منها بكثير.

إن الرجال المُكلَّفين بالعمل في المستشفيات البلدية لم يكونوا أطباء، ولم يكونوا يعرفون شيئًا عن التمريض، ولم يكن هناك مُراقِبون مُشرِفون على المرضين والممرضات كي يُدرِّبوا ويُرشِدوا من يقومون بالتمريض. ولما كانت الممرضات خاليات من الدوافع الدينية التي تُلهِمهن، فقد ازداد إحساسهن دائمًا بالجانب الرديء من عملهن، واعتبرن أنفسهن خادماتٍ أكثر منهن ملائكة رحمة، وكان غيرهن يُشاركهن هذا الرأي. ولم يكُن الميسورون يذهبون إلى المستشفيات، بل كانوا يُمرَّضون في بيوتهم على يد أفراد أُسَرهم وخدمهم، و«مُربِّية» الأطفال التي كانت تبقى غالبًا في الأسرة حتى بعد أن يَكبَر الأطفال

كي يعملن ممرضات عند الحاجة. أما المستشفيات فكانت ملأى بعامة الناس الذين لا حقوق لهم، ولا يتوقعون اهتمامًا أو اعتبارًا، ولا يحصلون على شيء منه. ولتَحاشي إضاعة وقت الأطباء المزعومين، كان بعض المرضى يشغلون حجرة العمليات في الوقت نفسه، وكان على من سيَحلُّ دورهم للجِراحة أن يشهدوا عذاب المرضى الذين يُقيدهم إلى مائدة الجِراحة رجالٌ أشدَّاء.

وهذا الازدراء غير الإنساني للمرضى تفشَّى حتمًا إلى هيئة التمريض؛ فلم تكُن هناك محاولة لعلاج الحالات الطبية، ولم يتلقَّ المرضى من العناية إلا القليل، أو لا شيء منها مطلقًا، وكانت قرحات الظَّهر من طول الرُّقاد شائعة، والعدوى كانت تنتشر في المستشفيات كالنار المُستعرة، حتى صار كل مستشفًى مباءة للأوبئة.

وفي نهاية القرن الثالث عشر بُذِلت بعض الجهود لعلاج هذا الوضع، فقام الملوك والنُّبلاء والتُّجار الأثرياء، طلبًا للخلاص الديني، وكذلك النساء الصالحات، ببناء أُلوف المستشفيات في أنحاء أوروبا، وشرع النساء يُقبِلن من جديد على التمريض. وفي بداية القرن الرابع عشر كانت هناك مائتا ألف امرأة يَزُرن المرضى ويُعالجن الأمراض داخل المستشفيات وخارجها.

وبدأ تأسيس أنظمة دائمة من الأخوات الممرضات، وكانت الأعضاء في حماية الكنيسة والدولة معًا من كل أذًى. وكانت راهبات القِديس فرانسيس ذوات الرداء الرمادي، و«الكلارات» الفقيرات في إيطاليا، يُعتبرن مُؤهَّلات للعناية بالمرضى مِثل الأطباء المزعومين.

ولم يزَل مستشفى سانتا ماريا ديلاسكالا في سيينا، المبني في القرن الثالث عشر، قائمًا بعمله إلى الآن، وممرضاته يعملن على نفس نهج أسلافهن، ويرتدين زيًّا لم يكَد يتغير. وهناك اتجاه لافتراض أن أحوال المستشفيات ومستويات التمريض قبل القرن التاسع عشر كانت دائمًا بدائية، ولكن في مستشفى سيينا كانت أَسِرَّة المرضى مُريحة، محشوَّة بالطحلب، ومُغطَّاة بالجلد لطرد الرطوبة، وعند رأس كل سرير مِنضدةٌ تُسهل إطعام المرضى، وبالقرب منه مَبولة.

ويُنسَب إلى «ماهو» كونتيسة أرتوا (المُتوفَّاة ١٣٢٩م) أنها شيَّدت قرابة مائة مستشفًى في أنحاء فرنسا، والذي شادته قُرْب قلعتها في أرتوا يتباهى بجناحٍ واسع كثير الهواء على كلٍّ من طرفَيه نوافذ. وفي الأيام المُشمسة يُوسَّد المرضى على حشايا أمام النوافذ، وكانت وسائل الراحة التي لم يكن ينعم بها المرضى في بيوتهم من ميزات المستشفيات الخاصة.

ولم يكُن كافيًا عدد المستشفيات التي بُنِيت وتم تجهيزها ورعايتها على يد حُماة ملكيِّين في القرنَين الرابع عشر والخامس عشر. وكانت الأحوال في المستشفيات العامة — مثل أوتيل دييه بباريس — فظيعة؛ فالأثرياء (إذا كانوا قد تورَّطوا في ذلك) والفقراء والمرضى المُحتضرون، يرقدون جميعًا جنبًا إلى جنب على أسِرَّة من القش ملأى بالحشرات، والمُرهَقون بالعمل والسيِّئو التغذية كثيرًا ما كانوا ينحطُّون إلى معاقبة الراهبات اللواتي كنَّ يلتمسن أجرهن الوحيد في السماء، ويبذلن خير ما في وُسعهن، فكنَّ يَصِفن ويحضرن ويُعطين الدواء، بل وكنَّ يغسلن أغطية الأسِرَّة في نهر السين، ولكن الفِراش نفسه يظل قذرًا، والجدران حافلة بالحشرات، ونتن رائحة العنابر كان من الفظاعة بحيث إن رئيسة الراهبات تقوم بجولتها والمِنديل المُعطَّر مضغوط على أنفها.

وفي إنجلترا شيَّد الملك أثيلستان مستشفًى في يورك سنة ٩٣٦م، والمَظنون أنه أول مستشفيات إنجلترا، وكان يستخدم ثمانيَ مُمرضات راهبات. وتأسَّس مستشفى القِديس بارثلوميو في روشستر سنة ١٠٨٠م، واستمرَّ عاملًا بدون انقطاع إلى اليوم.

وشيَّدت الملكة ماتلدا مستشفى القِديس جايلز بالشرق (ويُعرَف أيضًا باسم القديس جايلز في الحقول) سنة ١١٠١م، وأنشأت نظامًا من الراهبات «الكلارات» الفقيرات للخدمة في العنابر. وبعد خمسين سنة تقريبًا أنشأت مستشفى القِديسة كاترين تخليدًا لذكرى طفلَيها، وكان التمريض في مستشفى القديسة كاترين عملًا موكولًا إلى ذوات النَّسب النبيل.

ومستشفى لندن — الذي لم يزَل عاملًا باسم مستشفى القِديس بارثلوميو — أقيم سنة ١١٢٣م على يد «راهير»، وهو مُهرج للملك تحوَّل إلى راهبٍ أوغسطيني، وكان يقوم بالتمريض فيه ثمانية رهبان وأربع راهبات.

ومستشفى القِديس توماس — الذي صار بعد ذلك مَقرَّ مدرسة نايتنجيل — تأسَّس سنة ١٢١٣م على يد رتشارد رئيس دير برموندسي.

وفي الزمن القديم لم يكن ليُوجَد إلا أطباء قليلون خارج حدود المدن الكبرى، فكان رهبان وراهبات علَّموا أنفسهم بأنفسهم يطبُّون للجماعة، ونساء النُّبلاء كنَّ يُعنَين بخدمهن وأتباعهن. فكل من تعلَّم كان يُلقَّن قشورًا من الطب، ولم يكن هناك تمييز بين عمل الأطباء وعمل الممرضين.

وبعد إلغاء الأديرة في أوائل القرن السادس عشر، تولَّت المدن أمر المستشفيات الموجودة بها. وكثيرٌ مما يُعَد اليوم من اختصاص التمريض كان يقوم به الأطباء وطلبة

الطب. ولم يكُن المرضون (والممرضات) يصنعون للمرضى أكثر كثيرًا من أن يغسلوا أجسادهم، ويُشرِفوا على وظائفهم الجسدية، وتسوية أسِرَّتهم وتقديم وجباتهم، أما بقيَّة وقتهم فكان مُخصَّصًا لأعمالٍ حقيرة، مِثل حك الأرض وغسل الأطباق.

واستمرَّ فن التمريض ينحدر. فلما كان منتصف القرن التاسع عشر انحطَّ «إلى مستوًى من المهانة لا يُوصَف. ولم يظلَّ التمريض موضع اهتمام إلا لدى الأنظمة الدينية التي بقيَت لديها بعض آثار أسلوبه الفني». وفي إنجلترا، بعد إلغاء الأنظمة الدينية، لم تبقَ هناك عمليًّا طبقة تمريض، «حتى نسيَ الناس أن امرأةً مُرفَّهة يمكن أن تكون ممرضة، اللهم إلا في أُسرتها الخاصة».[10] [11]

وكان غذاء المُمرضات سيئًا جدًّا، وأعمالهن مُرهِقة، ومعاملتهن رديئة، حتى إنه ما من امرأة كانت تَقبَل ذلك العمل لو وجدت أي عمل آخر. وتعكس تعليمات المستشفى التالية، التي نُشِرت سنة ١٧٨٩م، بوضوحٍ نمط مستوى أولئك اللواتي كنَّ يزعمن العناية بالمرضى:

- لا أقذار ولا خِرَق ولا عظام يجوز إلقاؤها من النوافذ.
- على المُمرضات أن يُغيِّرن بيَّاضات السرير والمريض، أي الملاءات، مرةً كل أسبوعَين، وقمصانه مرةً كل أربعة أيام، والسراويل والجوارب مرةً كل أسبوع أو قبل ذلك إن اقتضى الأمر.
- كل الممرضات اللواتي يُخالفن الأوامر، أو يَسكرن، أو يُهملن المرضى، أو يتشاجرن مع الممرضات الأخيرات، أو مع الرجال، يُفصَلن فورًا.[12]

وقال أحد مُراقبي المستشفيات: «لو استطعت الحصول على مجموعةٍ واحدة من الممرضات اللائي لا يَسكرن، فذلك أقصى ما أطمع فيه.»[13]

ولم تكن هناك قبل سنة ١٨٢٥م أي محاولة لرفع توعية التمريض؛ ففي تلك السنة اقترح الدكتور روبرت جونسن على المنهجيِّين والأصحابيِّين (الكويكريين) إنشاء «نظام من النساء يُختَرن لسلامة رأيهن والجِد والحنان والتقوى كي يكنَّ تلميذات ممرضات في مستشفيات إدنبره ولندن».[14]

وفي سنة ١٨٤٩م استطاع الدكتور جوش والشاعر المتوج روبرت ساوثي إقناع إليزابث فراي (المشهورة بإصلاح السجون) أن تُنشئ «أخوات الرحمة البروتستانتيات»، اللواتي أصبحن بعد ذلك «الأخوات الممرضات البروتستانتيات». وبعد ذلك بخمس سنوات

أُنشئت «الأخوات البروتستانتيات للتمريض» للعمل بين الفقراء، وأول نظام ديني محض للتمريض في الكنيسة الإنجليزية ظهر في ١٨٤٨م في دار القديس جون في لندن، وممرضات دار القديس جون هن اللواتي سيذهبن إلى القوم مع فلورانس نايتنجيل.

وفي سنة ١٨٣٦م أُعيدَ إحياء نظام الشمَّاسات في ألمانيا، وهيَّأ تيودور فيلدنر، راعي كايزرسويرث على نهر الراين بين دويسبرج ودوسلدورف، ومعه زوجته فريديريكا منستر، منزلًا كمستشفًى وبيت للشمَّاسات. وكانت أول ممرضة شمَّاسة هي جرترود رايشارد (وُلِدت سنة ١٧٨٨م)، وهي ابنة طبيب، وكانت قد ساعدته في ممارسته الخاصة وفي الحرب. وفي تلك السنة أصبحت ست نساء أُخريات شمَّاسات.

وقد خدمت فراوفليدنر كمراقبة لمؤسسة كايزرسويرث حتى وفاتها، وظلَّت يوميات ملاحظاتها عن تدريب الممرضات المَرجع المعتمَد عليه طوال بقاء نظام الشمَّاسات. ولما مات فليدنر سنة ١٨٦٤م كان هناك ٣٢ بيتًا للشمَّاسات، تُؤوِي ١٦٠٠ شمَّاسة عاملات في الميدان.

ومع تقدم الطب في القرن الثامن عشر صار من الضروري ظهور أساليب فنية جديدة للتمريض. «إن الاستياء العام من تمريض ذلك المعهد، والمحاولات الفاشلة التي قام بها أناسٌ طيِّبون لإتاحة التدريب للممرضات، ونجاح نظام الشماسات، كل كذلك مهَّد الطريق لظهور امرأة جاء استعدادها وقدرتها كُفْأين للمَهمة التي تُواجهها؛ ألا وهي فلورانس نايتنجيل.»[15]

الفصل الرابع عشر

فلورانس نايتنجيل

كثيراتٌ من نساء القرن التاسع عشر اللواتي تركن طابعهن على الطب والعلوم والأعمال ذات الصلة به كنَّ مُلهَمات — إلى حدٍّ كبير أو صغير — بالكفاح في سبيل حق النساء في تكافؤ الفرصة مع الرجال في ميادين التعليم والطب. ولم تكن حال فلورانس نايتنجيل (١٨٢٠–١٩١٠م) كذلك؛ فهي الابنة الصغرى لآن وليم نايتنجيل من لندن وإميلي بارك. وقد كتبت ذات مرة: «إنني لا أكترث بالمرة لحقوق جنسي أو نقائصه.»[1] فالقوة التي دفعتها لتحطيم حدود التقاليد والعُرف لتغدوَ مُؤسِّسة مهنة التمريض كما نعرفها اليوم، كانت شعلة من الغضب على العذاب الذي لا ضرورة له؛ فهي قد مرَّضت — عندما كانت فتاةً صغيرة — الحيوانات المريضة، وقد أعربت عن رغبتها في أن تكون نافعة للمرضى منذ أن كانت في التاسعة، وشرعت تزور وتُساعد المرضى الفقراء من جيرانهم وهي مُراهِقة. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت الأنشطة النمطية للابنة غير المُتزوجة التي تعيش في المنزل محدودة بالحياكة والرسم التخطيطي وعزف البيانو، والخروج للنزهة في مركبات الأسرة. ومن حُسنِ طالع فلورانس وشقيقتها بارثنوبي أن والدهما — شأنه شأن صمويل بلاكويل ونيوسن جاريت وجورج بالمر بوتنام — كان يعتقد أن للنساء عقولًا، وأنها يجب أن تنمو. وتولى مستر نايتنجيل نفسه تعليم بنتَيه الإغريقية واللاتينية والفلسفة والتاريخ والرياضيات، وكانتا أيضًا تدرسان وتتكلمان الإيطالية والفرنسية والألمانية.

ولم يكن هناك شيءٌ غير عادي في زيارات فلورانس للمُستأجرين في ضيعة نايتنجيل؛ فقد كان أمرًا معهودًا من السيدات الراقيات أن يركبن عرباتهن لتوصيل الطعام للمرضى، ولكن فلورانس كانت تهتمُّ فعلًا بالمرضى، وتُطعمهم، وتُسوي أسِرَّتهم، وتحكُّ لهم ظهورهم أيضًا. وهذا يتجاوز حدود اللياقة، حتى لم يعد مأمونًا أن تتَّصل مباشرةً بهؤلاء الأشخاص الذين يُخالفون قواعد الصحة.

نفذ السهم

وفي ربيع سنة ١٨٨٤م قام فاعل خير أمريكي — هو الدكتور صمويل جرايدلي هاو (وستكتب بعد ذلك زوجته جوليا «نشيد معركة الجمهورية») — بزيارة آل نايتنجيل. وكانت محادثة جرت بين فلورانس وبينه مُؤدِّية إلى قرارٍ بعيد المدى؛ فقد سألته: «دكتور هاو، أتظنُّ أنه من غير المُناسب وغير اللائق لشابَّةٍ إنجليزية أن تُكرِّس نفسها لأعمال الرحمة في المستشفيات وغيرها على نحوِ ما تصنعه الراهبات الكاثوليكيات؟ أتظنُّ ذلك شيئًا فظيعًا؟» فأجابها: «يا عزيزتي مس فلورانس، سيكون ذلك غير مألوف، وفي إنجلترا ينظرون إلى كل ما هو غير مألوف بأنه غير مُناسب، ولكني أقول لك: «امضي قُدمًا. إن كانت لديك موهبة هذا الأسلوب من الحياة فاتبعي إلهامك، وستجدين أنه ليس هناك أي شيء غير لائق أو مُنافٍ لمسلك السيدات في أداء واجبك لخير الآخرين، فاختاري طريقك وامضي فيه أينما قادك، وسيكون الله معك.»[2]

وعرفَت فلورانس أنها لا تستطيع أن تَذكُر كلمة «مستشفًى» الفظيعة لأُسرتها، وكان عليها أن تجد وسيلةً غير مباشرة للاقتراب من الموضوع. ومرَّت سنةٌ قبل أن تُتاح لها الفرصة، وكانت سنةً أظهرت فيها اقتدارها الكامل؛ فقد قامت بتمريض جدتها، ثم عُنِيت بصحة مُربِّيتها السابقة في مرضها الأخير. وفي خريف سنة ١٨٤٥م. كان هناك مقدارٌ غير عادي من المرضى في القرية، فكرَّست فلورانس نفسها للعناية بالقرويين. وفي ديسمبر كتبَت إلى ابن خالها وأصدَقِ أصدقائها هيلاري يونهام كارتر: «لقد رأيت امرأةً فقيرة تموت أمام عيني هذا الصيف؛ لأنه لم يكن هناك إلا الحمقى ليَسهروا عليها، والذين سمَّموها وكأنهم بالضبط سقَوها الزرنيخ.»[3]

الآن صارت فلورانس على قدم الاستعداد، ففتحت موضوع دراسة التمريض في مستشفى سالسبوري. وكان رد فِعل الأسرة يتَّسم بالذُّعر؛ فمعظم المستشفيات في إنجلترا لا يؤمُّها إلا الفقراء الذين ليس لديهم مكانٌ آخر يلوذون به، فهي على العموم قذرة، وما من أحدٍ يُفكِّر في هذا العمل المهين إذا أمكَنَه الحصول على عمل في مكانٍ آخر. وما زالوا بها حتى ثنَوها عن عزمها على الذهاب إلى سالسبوري، ولكنها كانت مُصمِّمة على تعلُّم كل ما كان في استطاعتها أن تتعلمه عن أحوال المستشفيات في إنجلترا والقارة الأوروبية. وقد أعانتها علاقات الأسرة في الدوائر الحكومية والدبلوماتية، فجمعت طائفةً كبيرة مُدهشة من المعلومات لتُعدَّ منها إحصائيات، وكان هذا هو أساس أفكارها عن كيف ينبغي للمستشفيات أن تُشاد وتُدار.

ومن بين المواد التي تيسَّرَت لها الكتاب السنوي لمعهد الشمَّاسات في كايزرسويرث. فهذا المستشفى ودار الأيتام النموذجية كانا — فيما يبدو — قد استأصلا السِّمات الكريهة في حياة المستشفيات، والتي أثارت فزع أسرتها. ولاحت في سنة ١٨٤٩م فرصة لزيارة كايزرسويرث، عندما اقترح صديقاها الحميمان «سلينا بريسبريدج» وزوجها أن تصحبهما في رحلة إلى مصر وبلاد اليونان، وسُرعانَ ما وافَق آل نايتنجيل. وكانت فلورانس قد أُصيبت أخيرًا بنوع من الهبوط، وكانت الرحلة خليقةً أن تُنعِشها، ويقينًا أن بلاد اليونان ومصر لا ضرر منهما. ولم يكونوا يعلمون أن آل بريسبريدج كانا يعتزمان قضاء أسبوعَين في دسلدورف في طريق العودة.

ولَمَّا تكشَّفت الخطة بدَت فلورانس مُرهَقة وأتعس من أن تتحمس. وقد كتبت فيما بعد: «وأنا على وَشْك تحقيق أعظم أمانيَّ بدَوتُ غير قادرة وغير مُتأهِّبة، وكأنما ليست هذه رسالتي الباطنة ...» ولكن بعد قضاء أسبوعَين في كايزرسويرث شعرت «بشجاعةٍ عظيمة كأنما لن يقوى شيء على إقعادي مرةً أخرى».[4]

ومع هذا ظلَّت فلورانس تتحرك بحذر. وحتى عام ١٨٥١م لم تُعلن لأسرتها أنها رتَّبت الأمور للدراسة في كايزرسويرث لمدة ثلاثة أشهر. لقد أجمعت أمرها على الذهاب سواءٌ أوافقوا أم رفضوا، ولكن آل نايتنجيل هذه المرة لم يُقاوموا، وكل ما هناك أنهم رجَوها أن تجعل خبر إقامتها هناك سرًّا.

وإذ تعود بنظرها في سنة ١٨٩٧م إلى الوراء، تُنكر فلورانس أنها تدرَّبت في «كايزرسويرث»؛ فهي تطوي الولاء الخالص الذي تتمتع به الشمَّاسات، إلا أنها كتبت أن «التمريض هناك كان لا شيء، والشروط الصحية فظيعة، أما المستشفى فهو بالتأكيد أسوأ قسم».[5] ولا يعلم أحد إلى أي حدٍّ جاء هذا الوصف عادلًا ومُنصِفًا؛ ففي سنة ١٨٩٥م كانت تشكو بالفعل من فقدِ الذاكرة، وهذه بَوادر الانحلال العقلي والعمى اللذَين سيَغْشيان أعوامها الأخيرة.

من كايزرسويرث إلى القرم

وبصرف النظر عما أبدَته فلورانس نايتنجيل فيما بعدُ من حكمها القاسي على مستوى التمريض في كايزرسويرث، إلا أنها غادرَتها في أكتوبر سنة ١٨٥١م وهي مُصمِّمة على التدرُّب الجِدِّي، ربما في أحد مستشفيات لندن الكبرى. وكانت خططها المباشرة موضع

معارضة مع أبيها، الذي كان يُعاني من الْتِهاب في عينَيه. وكان طبيبه قد أمره بالاستشفاء في روشستر شاير للمعالجة بالماء البارد، فرفض الذهاب ما لم تصحبه فلورانس.

وفي سنة ١٨٥٢م كانت في دبلن، حيث أملَت أن تعمل مع «أخوات الرحمة»، ولكنها استُدعيَت عندما أُصيبت أختها بارث بانهيارٍ عصبي. وقد قيل إن بارث «صمَّمت على أن فلورانس إن كان لا بد لها أن تُمرِّض أحدًا فلتكُن هي ذلك الشخص، وافتعلت سلسلة من الأمراض الهيستيرية لتُرغِمها على ذلك.»[6] ولكن فلورانس لم تبقَ في إميلي أطول من الحد الضروري للتأكد من أن أختها مَوضع عناية، ثم حدث في أكتوبر، عندما كانت مُتأهِّبة للسفر إلى باريس للعمل مع أخوات الرحمة، أنَّ عمَّتها الكبرى مرِضَت فمرَّضَتها فلورانس في عِلتها الأخيرة. وأخيرًا وصلت إلى باريس في ٤ من فبراير سنة ١٨٥٣م، حيث أعدَّت لها ترتيبات لتَدخُل مستشفى أخوات الرحمة (بيت العناية) مقدمةً للتدريب على التمريض. ومرةً أخرى دُعيَت إلى البيت، هذه المرة لتُمرِّض جدتها المُحتضرة.

وفي أغسطس سنة ١٨٥٣م ذهبت لتعمل مُراقِبة في معهد العناية بالمرضى من السيدات النبيلات اللواتي هن في ضائقة. «وكانت الدار محترمة تمامًا، ولكن سوء الإدارة فيها بلغ حدًّا إجراميًّا، ولكي تُنقذ سُمعة العائلة تولَّت فلورانس العمل بدون مرتب، واستجاب والدها لذلك بأن أعطاها منحةً سنوية. وكانت لجنة السيدات الثريات التي اعتمدت تعيين فلورانس مسرورة جدًّا بفكرة قيام شابَّة راقية لطيفة ومُهتمة ومُتفرغة للعناية بالمُربِّيات والمُرافِقات المريضات. وكم كانت صدمتهن شديدة لأن أول خطوة أقدمت عليها فلورانس أنها طلبت أن تكون المؤسَّسة غير طائفية، وكانت اللجنة تريد لها أن تظلَّ تابعة تمامًا لكنيسة إنجلترا، فهدَّدَت المراقبة الجديدة بالاستقالة، وانتصرت.

وكانت العادة الجارية منذ زمنٍ طويل أن تُحمَل دِلاء الماء الساخن باليد إلى الطوابق المُتعددة، وأن تُقدَّم صواني الطعام باليد واحدةً واحدة، مع الصعود ثلاثة طوابق كل مرة، وليس أمام المريضات أي وسيلة لاسترعاء انتباه المرضة إلا عندما تقوم المرضة بالمرور، فأوصلت فلورانس الماء الساخن بأنابيب إلى كل طابق، وجعلت صواني الطعام تصل في مِصعدٍ خاص صغير، ووضعت زرًّا عند رأس كل سرير بحيث يُعطي إشارة عند مكتب ممرضة الطابق. وكانت هذه بدايات الإصلاح. وفي يناير سنة ١٨٥٤م كانت المؤسَّسة تُدار بانتظام وعلى ما يُرام.

ولكن فلورانس لم تكن تعرف الراحة، وبدأت تزور المستشفيات وتجمع الحقائق التي تُؤسِّس عليها قضية لإصلاح أحوال ممرضات المستشفيات. وكان سيدني هربرت

وزير الحرب من المُهتمين بذلك، وكانت زوجته «ليز» هي التي رعت فلورانس وزكَّتها لوظيفة المراقبة. وكان هربرت يعرف أن المعلومات المُدعَّمة بالوثائق عن رداءة الأجر وسوء الإسكان سوف تُنبِّه الرأيَ العامَّ إلى الشرور الموجودة، ولكن ذلك كان من الصعب التغلب عليه؛ إذ كانت التعيينات في المستشفيات تتم بالرشوة والمحسوبية. والإدلاء بمعلوماتٍ تُعزِّز الإصلاح من شأنه أن يُعرِّض الوظيفة للخطر. وكان كل هذا العمل لا بد من وضعه جانبًا؛ ففي مارس سنة ١٨٥٤م أعلنت إنجلترا وفرنسا وتركيا الحرب على الروسيا، ونزلت الجيوش المُتحالفة في شِبه جزيرة القرم في سبتمبر؛ وبذلك أصبحت الحاجة إلى مواهب فلورانس نايتنجيل ماسَّةً في مكانٍ آخر.

التمريض في وقت الحرب

عندما حان الوقت كي تُبحِر قوَّات الجيش البريطاني إلى فارنا على البحر الأسود لتقوم بهجوم على القاعدة البحرية الروسية الكبيرة في سباستبول، لم تكن هناك ناقلاتٌ كافية لحمل الثلاثين ألف رجل مع معدَّاتهم، فتركت دوابَّ الحمل والخيام وأدوات الطهي وسرادقات المستشفى وصناديق الأدوية والأسرة وأدواتها والمخازن. وقد دفع جرحى الحرب ثمن هذا التخلي، وصارت عمليات البَتْر تُجرى بدون تخدير، وكان الجرَّاحون يعملون في ضوء القمر لعدم وجود شموع. وليس هناك مورفين لإخماد الألم. ومن عاشوا بعد هذه المذبحة أُعيدوا بطريق البحر إلى سكوتاري، وهي مدينةٌ تركية تُواجه القسطنطينية على مضيق البسفور حيث أقام الحُلفاء قواعدهم، وامتلأت سفن المستشفى بخمسة أو ستة أضعاف طاقتها، وطالت الرحلة من أسبوع إلى ثلاثة أسابيع على حسب حالة الجو.

وفي سكوتاري لم تكن الأحوال أفضل بكثير مما كانت وراء خطوط القتال؛ فقد ظن البريطانيون أن مستشفًى صغيرًا مُلحَقًا بثُكْناتٍ هائلة أخلاها لهم سلاح مِدفعية الأتراك سيكون كافيًا لإيواء الجرحى، ولكنهم لم يُدخلوا في حسابهم وباء الكوليرا الذي كان مُتفشيًا في الجبهة؛ فغصَّ المستشفى بأكثر من ٢٠٠٠ حالة كوليرا. وحاوَل البريطانيون تحويل الثُّكنات الكبيرة كلها إلى مستشفًى، ولكن ذلك كان مُستحيلًا لأنها كانت قذِرة جدًّا، ولأنه لا يوجد أحد لتنظيفها، ولأنه لا توجد معدَّات مستشفيات لوضعها فيها، ولكنهم استخدموا تلك الثكنات على كل حال، فكان الرجال يرقدون على الأرض وسط

نفس البطاطين المُشبعة بالدم والبراز التي كانوا مُلتفِّين فيها وهم في ميدان القتال. ولم يكن هناك مطبخ يُعَد لهم فيه الطعام، ولا كان هناك أطباء يَكْفون للعناية بهم.

والواقع أن الأحوال كانت لا تختلف إلا قليلًا عن تلك الأحوال التي كانت كثيرًا جدًّا ما تَسُود المستشفيات العسكرية خلال تاريخ إنجلترا العسكري الطويل، بيدَ أن الفظائع السابقة ظلَّت سرًّا مكتومًا، أما هذه المرة فكان مع الجيش مُراسلٌ حربي، فاستُثير الرأي العام ببرقياتٍ أرسلها إلى الوطن وليم هوارد راسل ونُشِرت في التايمز، وزاد الغضب عندما عرَف أنَّ الجرحى الفرنسيين تُعنى بهم بَعثةٌ كبيرة من الممرضات الممتازات هن أخوات الرحمة، وكان الجمهور البريطاني يريد أن يعرف لماذا لم تفعل النساء البريطانيات القويَّات الأجسام مِثل صنيعهن.

وفي ١٥ من أكتوبر كتب وزير الحربية هربرت إلى فلورانس نايتنجيل يطلب إليها أن تُنظم فريقًا من الممرضات يرحل إلى سكوتاري في أقرب وقت، وقال: «ليس في إنجلترا إلا شخصٌ واحد أعرفه مُستطيعًا تدبير هذا المشروع والإشراف عليه، وإنه إذا نجح هذا المشروع فسيَترتَّب عليه خيرٌ كثير الآن لأولئك الذين يستحقُّون كل شيء على أيدينا، وسيتحطم وهمٌ قائم، وتقوم سابقةٌ حسنة تتكفل بمضاعفة هذا الخير في جميع الأوقات.»[7]

والواقع أن فلورانس استبَقَت هذا الطلب، فكانت قد نظَّمت بالفعل بعثةً خاصة صغيرة من الممرضات مستعدةً للإبحار معها إلى القسطنطينية، وأرسلت خطابًا إلى ليز هربرت تُخبرها بنواياها، وحدث أن أرسلت هذا الخطاب في نفس الوقت الذي تلقَّت فيه خطاب استدعاء من وزير الحربية.

فلو أن فلورانس نايتنجيل كانت بحاجة إلى حافز لقبول هذه المهمة، فقد توفَّر ذلك في خطاب هربرت، حيث تنبَّأ بأن أداء المهمة بكفاءة سيُحطِّم الوهم والتحيز ضد مشاركة النساء في تمريض المرضى. ولم يخطر قطُّ ببالها أنَّ ما عرَضه عليها سيدني هربرت سيكون موضوع إثارة؛ فلم يسبق لامرأةٍ قط أنْ دعَتها الحكومة — بل جنَّدتها — للقيام بمَهمَّةٍ رسمية عسكرية. وفي ١٨ من أكتوبر أقرَّ مجلس الوزراء بالإجماع تعيينها «مُراقِبةً عامة لمؤسسة التمريض النسوية في المستشفيات الإنجليزية العامة بتركيا»، وكانت سلطتها واسعة. وكان أمر التعيين كما يلي: «كل ما هو متصل بتوزيع الممرضات وساعات نَوْبتهن وتخصيص واجباتهن فأمْرُه بيدك، خاضعًا بالطبع لإقرار وموافقة كبير الضباط الطبيين، أما اختيار الممرضات ابتداءً فأمْرُه إليك وحدك.»[8]

وفي ٢١ من أكتوبر، بعد تلقِّي دعوة هربرت بستة أيام، غادرَت فلورانس نايتنجيل إنجلترا إلى سكوتاري ومعها ثمانٍ وثلاثون مُمرضة، منهن ١٠ راهبات كاثوليكيات، و١٤ من الأخوات الإنجيليات، وممرضات من دار القديس جون، و١٤ من ممرضات المستشفيات. وهذا الفريق الأخير كان مَدعاة للأسف؛ لأنه نمطٌ نموذجي لمهنة التمريض البريطانية على نحوِ ما كانت عليه في سنة ١٨٥٤م. وكان أسلوب أدائهن للعمل مَدعاة لأن تكتب الآنسة نايتنجيل بعد ذلك من سكوتاري في صدد المدد المُقبل أنه: «يجب إبعاد كل السيدات البدينات السِّكِّيرات اللواتي تَزِن الواحدة منهن مائتَي رطل فما فوق.»[9] وفي ٤ من نوفمبر رسَت السفينة في القسطنطينية، بعد رحلةٍ بَحرية رهيبة في «سفينةٍ فظيعة ... حافلة بصراصير ضخمة ومشهورة بقلة الراحة فيها، حتى إن الحكومة كانت تجد صعوبةً في تزويدها بالمَلَّاحين والرجال.»[10] ولم يكُن شيءٌ مما سمِعَته في لندن قد أعدَّها لحقيقةٍ ما في «مستشفى» سكوتاري؛ «فهو مشيد مباشرةً فوق مجرور كبير لم يتيسر نَزْحه منذ سنوات، وأرضيَّاته تنشع بالوُحول القذرة، والجرحى راقدون بلا عناية فوق حشايا من قشٍّ نتن تَكثُر فيها الحشرات والهوام، وليست هناك تهوية. وقد كتبت تقول: «من المستحيل وصفُ حالة الجو في مستشفى الثُّكنات ليلًا. وقد كنت على درايةٍ تامَّة بمساكن أسوأ الأحياء في مدن أوروبا الكبرى، ولكني لم أجد قطُّ مِثل هذا الجو أو جوًّا يُقارَن به.» وقالت لرفيقاتها: «سنحتاج إلى الأقوى من بينكنَّ أمام طشت الغسيل.»[11]

وضاق العسكريون المحليون صراحةً بالآنسة نايتنجيل، ظنًّا منهم أنها مُرسَلة من قِبَل مجلس الوزراء المدني في لندن لتتجسَّس عليهم، غير أنه لم يكُن هناك وقت للمشاحنات التافهة؛ فوراء الناقلات التي حملت الجرحى في معركة بلاكافا الرهيبة تدفَّق جرحى آخرون أُصيبوا في معركة إنكرمان الدامية، وأُصيب القسم الطبي بالذعر، وصار الأطباء يتقبَّلون بامتنانٍ أي مساعدة من أي مصدر، وسيكتب أحدهم فيما بعد: «لا أستطيع أن أتصوَّر كيف يمكن تَحاشي نتائج لا يمكن تَصوُّر مبلغ وخامتها، لولا وجود الآنسة نايتنجيل هناك.»[12]

ولقد عرقل جهودَها ما هو أكثر من العداوة الرسمية والغباء البشري؛ إذ هبَّ إعصارٌ على سفن المئونة، وصارت الكوليرا تحصد من الجنود من نجَوا من القذائف، فمات منهم بالمرض قَدْر من ماتوا بالجِراح، وارتفعت نسبة الوفَيات بين الحالات المَرضية إلى نسبةٍ رهيبة بلغت ٤٢٪.

ومع أنه لم يكن لديها شخصيًّا إلا وقتٌ قليل تُخصِّصه للتمريض، إلا أن الجنود عرفوها كمُمرضة وأحبُّوها، وكتب أحد الجنود إلى الوطن يقول: «أي راحة لقلوبنا في مجرد رؤيتها تمرُّ؟ وقد تُحدِّث هذا، وتُومئ وتبتسم لكثيرين غيره، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل كل شيء كما تعلم؛ فنحن راقدون هناك بالمئات، ولكن في وُسعنا أن نَلْثم ظِلَّها الذي يسقط فوقنا ثم نضع رُءوسنا على الوسائد مرةً أخرى راضين.»[13]

وقد خلَّدها الشاعر لونجفلو باعتبارها «السيدة ذات المصباح»، وقد صوَّروها وهي تسير في الليل مُخترقةً العنابر وقد بلغ طول الأسِرَّة فيها أربعة أميال. وفي هذا شيء من التجاوز للضرورة الفنية والشعرية؛ فقد كتبت إلى سيدني هربرت:[14] «إني أعمل في العنابر طول النهار وأكتب طول الليل.» وشمِل ما كانت تكتبه دائرةً تتجاوز المطالب المباشرة لتحسين أحوال سكوتاري، فهي مُصمِّمة على أن هذه الحالة المأساوية التي اضطُرَّت لمعايشتها في سكوتاري يجب تجنُّبها في المستقبل؛ ولذا كانت تُعِدُّ الخُطط المُفصَّلة لإعادة تنظيم المستشفيات العسكرية، وألحَّت في اتخاذ منهج أعدَّته لضبط الإحصائيات الطبية في مستشفيات الجيش، واقترحت إنشاء مدرسة للطب العسكري تدرس فيها قواعد الصحة في المعسكرات مع الطب العسكري. وبفضل هذا السيل غير المنقطع من التقارير إلى هربرت غادرَت إنجلترا في أوائل سنة ١٨٥٥م لجنةٌ صحية مُخوَّلة السُّلطة الكاملة لتنظيف المستشفى. ونتيجةً لجهودها، تُساندِها هذه اللجنة، هبط معدل الوفَيات بين مرضى سكوتاري من ٤٣٥ في الألف إلى ٢٢ في الألف.

وتنقسم إقامة فلورانس نايتنجيل في سكوتاري إلى فترتَين مُتميزتين؛ فأثناء الشتاء الرهيب ١٨٥٤–١٨٥٥م تمكَّن وجودها وحده من إنقاذ المستشفى من الانهيار، واختفت المعارضة، وصارت سيطرتها مطلقة، ولكن منذ ربيع سنة ١٨٨٥م — وقد تحسَّنت الأحوال وقلَّت الضغوط — عادت موجات الحسد الحقيرة والخيانات وإساءة التأويل، تُناوشها وتُرهقها، فاستولى عليها الشعور بالفشل والإرهاق البدني.

معركة إصلاح الجيش

عادت فلورانس نايتنجيل إلى إنجلترا في أغسطس سنة ١٨٥٦م، وهي عاقدة العزم على المناضلة ضد عدم المبالاة والغباء السائدَين في الجهات الرسمية؛ مما أدَّى إلى المأساة التي شهِدَتها، ولكن الحرب كانت قد وضعت أوزارها، وكان الجمهور يريد أن ينسى أمرها،

وانضمَّ سيدني هربرت إلى أُسرتها وأصدقائها في إخبارها بأنها يجب أن تَخلُد للراحة، ولكنها لم ترضَ أن تحظى بشيء منها: «إن هؤلاء الناس قد غذَّوا أبناءهم على دسم الأرض، وألبسوهم المُخمَل والحرير … أما أنا فقد كُتِب عليَّ أن أرى أبنائي في أسمال بطَّانية قذرة وسروالٍ عسكري عتيق، وأن أراهم يتغذَّون باللحم النِّيء المُملَّح. إن تسعة آلاف من أبنائي يموتون — في قبورهم الأجنبية — بأسبابٍ كان من الممكن تحاشيها، أما أنا فلن أستطيع أن أنسى!»[15] وسنحت لها فرصة لخدمة قضيَّتها بعد عودتها إلى إنجلترا بستة أسابيع؛ فقد دُعيَت إلى قصر المورال في اسكتلندا لكي تشكرها الملكة فيكتوريا وزوجها على خِدماتها للأمة، فانتهزت هذه الفرصة انتهازًا تامًّا، ورجَت جلالة الملكة أن تُقنِع مجلس الوزراء بتأليف لجنة ملكية لفحص الحالة الصحية للجيش البريطاني في السلم والحرب.

لقد باتت وزارة الحرب تنظر إلى الآنسة نايتنجيل نظرتها إلى مصدر إزعاج خطر. لقد كانت ذات نفع في وقت الطوارئ على مسافة ثلاثة آلاف ميل، أما هنا في الوطن فأفكارها الثورية لا يمكن أن تُطاق؛ ولذلك لم يتم شيءٌ مما طلبَته، فلجأت فلورانس إلى التشهير المُهذَّب، فقالت للورد بانمور — الذي خلَف هربرت وزيرًا للحرب — إنها ما لم تُؤلَّف لجنةٌ ملكية فورًا، وتُقدِّم دليلًا ملموسًا على إصلاحاتٍ تتمخض عن مداولاتها، فإنها سوف تنشر في ظرف ثلاثة أشهُر تَجربتها عن الحرب واقتراحاتها للإصلاح والتحسين.

وفي ٥ من مايو سنة ١٨٥٧م تألَّفت لجنةٌ ملكية رسميًّا، وعلى رأسها حامي الآنسة نايتنجيل سيدني هربرت. وكان الأعضاء الآخرون من اختيارها، أما هي فلم تكتفِ بمعاونتهم في مداولاتهم فحسب، بل أتاحت لهم الوقائع والأرقام من «مذكراتها حول الصحة والفعالية وإدارة المستشفيات في الجيش البريطاني» التي لم تكن نشرَتها بعد؛ فهذا العمل الضخم يُغطي في فصوله الإحدى والعشرين موضوعاتٍ مثل النقص في نقل المرضى، والتوصيات الصحية بخصوص المستشفيات، واستخدام الممرضات، واستخدام الممرضين، والحاجة إلى موظفين صحيين خاصين (في الوطن وفي الخارج)، وعدم دقة الإحصاءات المُتعلقة بالمستشفيات، والحاجة إلى إدارة للإحصاء، واستمارات للإحصاءات الطبية، وتقارير عن ارتفاع معدلات المرض والوفاة في بعض أسلحة الجيش، وملاحظات عن تعليم واستخدام وترقية الضباط الطبيين، وملاحظات عن الدفع والتوقف عن الدفع، وعن زوجات الجنود، وعن التغذية والطهو وبناء المستشفيات.

وسُلِّم تقرير اللجنة إلى اللورد بانمور بعد عودتها إلى إنجلترا بعام بالضبط. وكانت الوقائع التي كشف عنها مُذهِلة؛ فأحوال الجيش (الصحية) تكاد تكون في وقت السلم سيئة كالعهد بها في وقت الحرب؛ فبسبب الثُّكنات غير الصحية التي يعيش فيها الرجال مثلًا كان معدل الوفَيات بين الجنود يتراوح بين ضِعفَي وخمسة أضعاف معدل وفَيات الجيران المدنيين، مع أن الجيش يضمُّ الأصغر سنًّا والأقوى بنيةً بين السكان الذكور. وكان مجرد التفكير في مَبلغ رد الفعل العام — لو أن الآنسة نايتنجيل نفَّذت وعيدها بنشر مذكراتها — خليقًا أن يدفع اللورد بانمور للعمل، ولكنه مرةً أخرى لجأ للمُماطَلة. ومرَّت تسعة أشهُر قبل أن تُعيِّن وزارة الحرب الدكتور توماس ألكسندر — الذي عملت معه الآنسة نايتنجيل في سكوتاري — مُديرًا عامًّا للقسم الطبي بالجيش، ثم قدَّمت الوزارة سلسلة قرارات اعتمدها مجلس العموم تُعَد ثورة في أحوال الثُّكنات. وبعد عامٍ سقطت الوزارة، وتولَّى سيدني هربرت وزارة الحرب مرةً أخرى. وبدا أن كل ما حاربت فلورانس نايتنجيل من أجله بات مُحقَّق الوقوع؛ فقد اتُّفق على أن يُعاد تشكيل وصياغة الترتيبات الصحية في الثُّكنات والمستشفيات العسكرية كي يفيَ بالمواصفات التي ذكَرَتها؛ أي لكي يصبح ماء الشرب صالحًا للشرب، وأن يكون طعام الجنود مُقويًا وأكثر استساغة، وأخيرًا إقامة مدرسة للطب العسكري.

لقد كان الحصول على وعد بالإصلاح شيئًا، وكان شيئًا آخر أن تراه يُنفَّذ. وقد كتبت الآنسة نايتنجيل في نوفمبر سنة ١٨٥٩م:[16] «إن وزارة الحرب وزارة شديدة البطء، وباهظة التكاليف جدًّا، ويمكن لقرارات الوزير أن يبطل مفعولها بواسطة تدخُّل المصالح الإدارية التابعة له. كذلك يمكن أن تبطل قرارات هذه المصالح بواسطة تدخُّل المصالح الأخرى.» ووافَقها هربرت على أن وزارة الحرب التي يتولَّاها يجب أن يتم إصلاحها، وصمَّما معًا على تبسيط الإجراءات، وإلغاء توزيع المسئوليات، وتحديد واضح لواجبات كل رئيس إدارة وكل قلم، وأن يكون الرؤساء مسئولين عن إداراتهم مع تمتُّعهم بحق الاتصال المباشر بوزير الحرب، ولكن هذا البرنامج أُصيبَ بنكسة عندما تُوفِّي سيدني هربرت في أغسطس ١٨٦١م (وكان قد أصبح لورد هربرت أوف لي)، وتكاد تكون آخر كلماته المفهومة كما روتها زوجته: «مسكينة فلورانس ... مسكينة فلورانس ... لقد انتهى عملنا المشترك.»[17]

التمريض المدني

في أغسطس سنة ١٨٥٧م كانت فلورانس نايتنجيل قد مُنِيَت بانهيارٍ عصبي تام، تركها شِبه عاجزة عن الحركة في السنوات الثلاث والخمسين الباقية من حياتها، ولكن ذلك لم يضَع حدًّا لأنشطتها؛ فبينما هي تُناضل ثم تُحاول إعادة تنظيم وزارة الحرب بالكلية أصدرت كتابَين؛ أولهما «ملاحظات عن المستشفيات» (١٨٥٩م) بَنَته على الوقائع والأرقام التي جمعتها على مدى ١٥ سنة، وفيه استطاعت أن تبين أن معظم وفَيات المستشفيات سببها سوء أحوال المستشفيات، لا الأمراض التي من أجلها دخلها المرضى. وكشف الكتاب أيضًا أنها كانت خبيرة في بناء المستشفيات وإدارتها. وفي السنوات الخمسين التالية قلَّ أنْ بُنيَ مستشفًى في أي مكان بالعالم بدون مشورتها. ولئن كان هذا الكتاب قد كُتِب للمُتخصصين أو الخبراء، فإن كتابها الآخر «ملاحظات عن التمريض» (١٨٦٠م) مكتوب لربَّات البيوت الإنجليزيات. وكثيرٌ من الشروط الصحية المعروفة في بيوت اليوم، والمفروغ من أمرها لأنها من المُسلَّمات، كان هذا الكتاب أول من أدخلها.

وفي سنة ١٨٥٥م عندما كانت فلورانس نايتنجيل في أوج شهرتها، أُنشئَ صندوق نايتنجيل، وكان المُراد إنشاء مدرسة لتدريب المرضات. وعندما أبلغها هربرت بوجود ذلك الصندوق وسألها كيف تحب أن يكون تصرُّف لجنة التنظيم، أجابته من سكوتاري أنها مشغولة حاليًّا، ولكنها ستُفكِّر في المشروع عندما يتَّسع لها الوقت، ولكنها لم تنسَ قطُّ أن الصندوق موجود. والآن اتَّسع لها الوقت، واهتمَّت به شخصيًّا بكل التفاصيل، ولكنها أدركت أنها لن تتمكن من القيام بدورٍ فعَّال في البرنامج بسبب إمكانياتها البدنية المحدودة، وعهِدَت بإدارة المدرسة إلى مسز وارد روبر كبيرة ممرضات مستشفى القِديس توماس سابقًا. وفي ٢٤ من يونيو سنة ١٨٦٠م دخل أول فوج من الطالبات مدرسة نايتنجيل لتدريب المرضات في مستشفى القِديس توماس ليندربن لمدة سنة، وكان عددهن ١٥، ولدى كلٍّ منهن شهادة بحسن السير والسلوك. ولبِثَت مسز وارد روبر في الخدمة لمدة ٢٧ سنة، وجانبٌ كبير من نجاح المدرسة يجب أن يُعزى إلى تصميمها ونشاطها الجم.

إن أصحاب المِهن الطبية (وهم — في مجموعهم — رجعيُّون) عارَضوا الفكرة، وقاد المعارضة مستر ج. ف ساوث كبير الجرَّاحين الاستشاريين في مستشفى القديس توماس ومدير كلية الجرَّاحين؛ ففي رأيه ورأي الكثيرين من زملائه أن المرضة — ويُستحسن أن تكون امرأة نصفًا — ينبغي أن تكون أعلى قليلًا من خادمةٍ راقية، كل وظيفتها أن تُنفذ أوامر الطبيب، فلا حاجة إلى تعليمها، ولكن كل شيء يتغير مع الزمن، وسُرعانَ ما تقدَّمت إلى الأمام خريجات نايتنجيل لَيْرْأسن مدارس جديدة للتمريض في جميع أنحاء العالم.

الدعوة للتمريض

وخلال الخمسين السنة الأخيرة من عمرها، كانت فلورانس نايتنجيل جادَّةً مُجدَّة في محاولتها كَسْب الاعتراف العام بالتمريض، كما يمكن وكما يجب أن يكون. وفي سنة ١٨٦٠م كتبت: «إني أستخدم كلمة تمريض لافتقاري إلى ما هو خير منها؛ فقد كان استخدامها مقصورًا على ما لا يكاد يتجاوز تقديم الدواء وعمل الكمادات، وإنما ينبغي أن تعنيَ الاستخدام للهواء الطَّلْق والضوء والحرارة والنظافة والهدوء والاختيار والتعاطي السليم للغذاء، وبأقل تكاليف من القوة الحيوية لدى المريض ... إن فن التمريض — كما يُمارَس الآن — يبدو وكأنه يتعمَّد نقْضَ ما أراد الله للمرض أن يصنعه؛ أي إنه عملٌ تعويضي.» وبعد ثلاثين سنةً كتبت: «إن التمريض يجعلنا في أكثر الأحوال ملاءمةً لاستعادة الطبيعة للصحة والمحافظة عليها. إن الصحة ليس معناها أن نكون بخير فقط، بل أن نكون أيضًا قادرين على حسن استخدام كل قُوانا التي يجب أن نستخدمها.»[18] وقالت في ورقةٍ سُلِّمت إلى قسم التمريض من مؤتمر المستشفيات والمستوصفات والتمريض المُنعقِد في السوق الدولية سنة ١٨٩٣م بشيكاغو: «ينبغي للتمريض ألا يكون مهنة بل «نداءً باطنًا» كالدعوة بمعناها الكهنوتي.» وقالت أيضًا: «إن الفن هو تمريض المريض — خذ بالك من فضلك! — وليس تمريض المرض ... وهذا هو السبب في أن التمريض الحق لا يمكن تعليمه إلا بجوار سرير المريض وفي حجرة المريض أو في العنبر، وما المحاضرات والكتب إلا وسائل مساعدة ثمينة.»[19]

ومنذ سنة ١٨٦٠م تكاثرت مدارس التمريض في كل أنحاء العالم. وقد نُظِّمت أول مدرسة أمريكية للتمريض في سنة ١٨٧٢م في مستشفى نيو إنجلند للنساء والأطفال على يد الدكتورة ماري زاكر سيفسكا والدكتورة سوزان ديموك (١٨٤٧–١٨٧٥م).

لقد كانت فلورانس نايتنجيل ممرضةً بارزة، ولكنها لم تكن ممرضةً محترفة عاملة إلا لمدة ثلاث سنوات من سنوات عمرها الذي بلغ التسعين؛ فالأجدر بنا أن نَذكُرها لأنها أنشأت «دعوة» أو «رسالة» التمريض على نحوِ ما هو كائن اليوم.

الفصل الخامس عشر

دوروثيا لند ديكس

وُلِدت دوروثيا لند ديكس (١٨٠٢–١٨٨٧م) — التي ستُعرَف بِاسم حامية المخبولين — في مزرعة على مشارف هامبدن، على مسافة ستة أميال من بانجور فيما يُعرَف اليوم بِاسم مين، ووالدها جوزيف ديكس كان قد اضطُرَّ لمغادرة هارفرد ونُفيَ إلى ذلك المكان القاصي المُوحِش غير المأهول تقريبًا من تُخوم ماساشوستس، عندما تزوَّج ماري بيجاو رغم مشيئة أبيه الدكتور إيليا ديكس. وترتَّب على إنذار الدكتور ديكس النهائي ما هو أكثر من إخراج الزوجَين الشابَّين من بوستن، حيث أبدى أعضاء الأسرة اعتراضًا قويًّا على ماري؛ ترتَّب عليه أنْ باع الدكتور الفدادين الشاسعة من الأرض الكثيفة الشجر على طول نهر بينو بكسوت التي كان الدكتور قد اشتراها قبل سنوات. وكان سكان منطقة هامبدن فقراء، وكانت أكواخهم البدائية المصنوعة من كُتَل الأشجار تتكون عادةً من حجرةٍ واحدة وسندرة، مع مُلحَقٍ مُكوَّن من امتدادٍ مُنحدِر السطح، وأكثر ألواح النوافذ الصغيرة من المشمع بدلًا من الزجاج، والمصاريع الخشبية فيها الحماية من برد الشتاء، والمِدفأة تمد بالحرارة والتهوية والضوء وتُستعمل في الطهو. والرجال والنساء والأطفال عليهم أن يعملوا بجِدٍّ ليَكفلوا ضروريات الحياة. ولم يكن العمل وحده هو الذي يَحرم الأطفال من مُتَع الصِّبا، بل إن للآباء معتقدات كلفينية تُحرم المرح الصاخب. ومن المألوف لهؤلاء الأطفال على تُخوم الحدود أن يَنضَجوا قبل أوانهم. وهذا هو العالَم الذي وُلِدت فيه دوروثيا لند ديكس في ٤ أبريل سنة ١٨٠٢م.

لم يكُن جوزيف ديكس مُؤهَّلًا لحياة تُخوم الحدود لا جسميًّا ولا عقليًّا، وقرَّر أن زراعة وإدارة أرض أبيه ليست العمل الصالح له، فشرَع يبحث عن وسيلةٍ أخرى للتعيش. وكان قد درس علوم الدين في هارفرد، وأخذ يُحسُّ نداءً باطنًا يدعوه للوعظ، فوضع أمتعته في خَرْجَين للسَّرْج، ومضى «ليَحمل الإنجيل إلى أقصى النجوع».[1] وكان

جوزيف ديكس أفضل تعليمًا من قساوسة الطائفة الميثودية في أيامه، وله شخصيةٌ لطيفة، ويتحدث باقتناعٍ عميق. ومع أنَّ وعظه عاد عليه بالفضل والاحترام إلا أن العائد الماليَّ كان ضئيلًا. ولما كانت ماري ديكس عاجزة عن إدارة المزرعة وحدها، فقد شعرت بهبوط الهمة والتعاسة. وشرع جوزيف ينتقل من عمل إلى آخر، مُتنقِّلًا بأُسرته من قرية إلى قرية، وبين حين وحين كان الدكتور إيليا ديكس يأتي ليتفقَّد أرضه. ولما كانت دوروثيا مُهمَلة من أبيها الكثير الغِياب، ومن أمها المُتعَبة الكثيرة المرض، فقد وجدت في الجَد ديكس كل ما كان ينبغي أن تتلقَّاه من أبوَيها. وقد توثَّقت العلاقة بزياراتٍ تقوم بها دوروثيا إلى بوستن بين حين وآخر.

وكانت دوروثيا في الرابعة عندما وُلِد أخوها جوزيف، وبعد نحو سنتَين وُلِد تشارلس ويسلي، وكان مَولدهما إيذانًا بعنايةٍ أقل بها، وبمزيدٍ من المهام تُسنَد إليها. وفضلًا عن أعمالها المنزلية كُلِّفت بتَنْي وتدبيس الرسائل التي كان أبوها يطبعها ويبيعها كمَوردٍ إضافي للدخل.

وتُوفِّي الدكتور ديكس عندما كانت دوروثيا في السابعة، وبعد ثلاث سنوات أقنعت جَدتها بأن تتركها تعيش معها في بوستن، وثبت أنها في هذه النقلة كانت كالمُستجير من الرمضاء بالنار؛ ذلك أن مسز ديكس كانت تُبغض زوجة ابنها ماري؛ ولذا عجزت عن أن تمنح ابنة ماري الحب الذي كانت بحاجةٍ ماسَّة إليه. وبعد سنتَين كفَّت عن محاولة الاستمرار في هذا الصراع مع الطفلة التي نضِجَت قبل الأوان، وأرسلت دوروثيا إلى سارة لند دنكان وابنتها سارة دنكان فيسك في ورشستر.

وكان هذا من حُسنِ طالع دوروثيا؛ فالعمَّة سارة كانت امرأةً لَبِقة عطوفًا، وسارة فيسك كانت حنونًا وذات فَهْم، وقد استجابت دوروثيا لعنايتها وتغيَّر موقفها من المهام التي طُلِب إليها القيام بها. وعلى نحوٍ ما اكتسبت دوروثيا تعليمًا في وقتٍ كانت فرص التعليم محدودةً أمام الفتَيات. وفي سنة ١٨١٦م، وهي في سن الرابعة عشرة، حصلت على إذْن عمَّتها بأن تقوم بافتتاح مدرسة لصغار الأطفال. وكان عدد الأطفال يَبلغ نحو العشرين، ومنهم أيضًا «خيرة العائلات في ورشستر».

وبعد ثلاث سنوات أغلقت المدرسة، وعادت إلى بيت جدتها المُسمَّى «أورانج كورت» في بوستن، «وقد تحسَّنت كثيرًا جدًّا آدابها وعاداتها في النظافة والأناقة والنظام».[2] وخصَّصت السنتَين التاليتَين للدراسة استعدادًا للعمل في التدريس. وفي سنة ١٨٢١م فتحت مدرسة في أورانج كورت. وفي البداية عارضَت الجدة ديكس الفكرة قائلةً: «إنه لا ضرورة تُحتِّم

على حفيدة إيليا ديكس أن تهدر حياتها في التعليم بالمدرسة؛ ففي بوستن نساءٌ أُخريات بحاجة فعلًا للتدريس، ثم هناك صحة دوروثيا التي يجب أن تُراعى» (وكانت دوروثيا منذ وقتٍ مُبكِّر قد ظهر عليها استعداد لأمراض الحلق والرئتَين). وأخيرًا «انقادت لرغبة حفيدتها؛ لأنها أحبَّتها ولم تجد في نفسها موهبة الجدل ولا القدرة على معارضتها.»[3]

وعاشت مدرسة أورانج كورت حتى ربيع سنة ١٨٣٦م عندما عانت دوروثيا انهيارًا جسديًّا تمامًا، وسافرت إلى إنجلترا في ٢٢ من أبريل. وفي خريف ١٨٣٧م عادت لتُطالب بإرث طبقًا لوصية جدتها التي ماتت في الربيع السابق.

المخبولون لا يُحسُّون البرد

وفي مارس ١٨٤١م — وكانت دوروثيا ديكس قد بلغت التاسعة والثلاثين — سمِعَت أن هناك حاجة إلى شخصٍ يُعلم فعلًا في مدرسة الأحد في سجن إيست كمبريدج، فتطوَّعت لهذا العمل. وبعد أن أعطت أول درس تمشَّت في السجن وتحدَّثت إلى السجينات، وكانت من بينهن نساءٌ مخبولات كانت عِلَّتهن هي جريمتهن الوحيدة ضد المجتمع. وتبيَّنت أنه لا يوجد مَوقد أو أي مصدر حراري في قِسمهن من السجن. ولما سألت السجَّان عن ذلك أجاب أن وجود النار غير مأمون الجانب، وقال إنه فضلًا عن ذلك فإن المجانين لا يشعرون بالبرد كغيرهم، واتَّضح أن قرارها بأن تصنع شيئًا لتغيير هذه الأحوال غير الإنسانية كان بداية عمل حياتها. وكانت أول خطوة أن استعانت بعدد من المُحسِنين المعروفين. وبعد أن قاموا باستقصاءاتهم عن سجن شرق كمبريدج، كتب أحدهم — تشارلز سمنر — تقريرًا عما رآه:

> «كنَّ مُكدَّسات معًا في حجراتٍ رديئة التهوية تتراكم فيها الأقذار ... ولن أنسى الحجرة الصغيرة التي حُبِست فيها المخبولات الهاذيات، اللواتي طار صوابهن منذ زمنٍ طويل ولن يعود، وتلك الشابَّة الطريفة التي كان عقلها مُضطربًا اضطرابًا يسيرًا جدًّا، بحيث يُخيَّل إليك أن السحابة التي تَرين على عقلها تُوشِك — ونحن ننظر إليها — أن تنقشع. وفي قفصَين أو مِذودَين بُنِيا بألواح الخشب داخل الجدران الحجرية الأربع في نفس الحجرة، قضت المرأتان عِدَّة شهور. وتتجاوب في جميع أرجاء السجن أصداء سِباب وتجديف المرأة العجوز المسكينة، بينما زميلتها الشابَّة الرقيقة تُعاني، وقد حُكِم عليها أن تقضيَ أيامها

> ولياليَها عن كثب منها، وهي تنطوي من سماع كلماتها وكأنها صفعات. وحُقَّ لها أن تفعل، فهي ألفاظٌ لا يليق أن تسمعها أي امرأة بقيَ فيها أي أثر من العقل. لقد كانت عقوبةً قاسية أيام الأوثان أن يربط الأحياء إلى الموتى، وهذا المشهد في سجن كمبريدج لا يكاد يقلُّ عنه قسوة.»[4]

لم تكُن هذه الأحوال خروجًا على المألوف؛ فقد كانت في ذلك الحين قلة من المستشفيات التي تُنفق عليها الموارد العامة، تتظاهر بإعطاء مرضى العقول أي علاج في وسطٍ لَطِيف نسبيًّا. وظلَّت مزارع الفقراء والسجون حيث يعيشون مع المُجرِمين والمُتشردين والمُعدمين هي مصير العصابيين المُعوزين. وفي سنة ١٨٤٠م كان تَعْداد المخبولين ١٧٤٣٤ من ٢٣٢٩٢٨٧٦ نسمة من السكان، ومعظمهم — لا بد — من المُعوزين؛ لأن المُوسِرين كانوا حريصين على إخفاء مخبوليهم. أما «المارستانات» لمرضى العقول التي تُنفق عليها ولاياتٌ قليلة وبعض المدن فلم تكُن تعدو — إلا في النادر — أن تكون ملاجئ فقراء مُتخصصة. وقد يوجد مستشفًى يقوم بعملٍ جيِّد في هذا السبيل، ولكن معظم مرضى العقول كانوا محرومين من أي علاج طبي يمكن — بأي حال — أن يُعَد عمليًّا أو إنسانيًّا. وكان مستشفى ورشستر (في ماساشوستس) الذي افتُتح سنة ١٨٣٥م من تلك المستشفيات القليلة؛ إذ قام تحت إشراف الدكتور صمويل وودوارد في ٨ سنوات بالعناية بأكثر من ١٠٠٠ مريض، وأمكن ردُّ ما يَقرُب من نِصفهم إلى الصحة والنفع، ولكن مستشفى ورشستر لم يكُن في مقدوره أن يبدأ في العناية بكل مُختلِّي العقول في ماساشوستس. وبفضل جهود صمويل إلبوت — الذي صار عمدة بوستن في سنة ١٨٣٧م — شرع مستشفى مجاذيب بوستن العمل يوم ١١ من ديسمبر سنة ١٨٣٩م. وبعد ١٥ شهرًا استطاعت دوروثيا أن تكشف الأحوال المُذهِلة التي تسود مستشفى شرق كمبريدج، وهو على أقلَّ من مسيرة ساعة من مستشفى مجاذيب بوستن.

الآنسة ديكس تعمل في ماساشوستس

رفعت دوروثيا أمر سجن شرق كمبريدج إلى القضاء، وكانت النتيجة تَوفُّر وسائل التدفئة وتجديد مساكن المخبولين، وشجَّعها أن تجد النزلاء أهدأ وأقل خوفًا. وكلما زادت من زياراتها لهؤلاء «السُّجناء» زاد تساؤلها عن أحوال السجون وملاجئ الفقراء الأخرى. وأقنعتها رِحلات إلى المدن القريبة بأنَّ مسح الولاية كلها خليقٌ أن يتكشَّف عن سَوْءاتٍ

أشد، وقرَّرت أن تقوم بذلك المسح على حسابها الخاص. وعلى مدى ١٢ ميلًا من بوستن رأت كائناتٍ بشريةً عاثرة الحظ، «حبيسة في أقفاص وخزانات ومخازن مئونة وزرائب وحظائر ... مُقيَّدين، عرايا، مضروبين بالعِصي والسِّياط كي يخضعوا ويُطيعوا.» والتقيت بشابَّة كانت قبل اهتزاز عقلها محترمةً وجادَّة وذات قدر ونفع، «وهناك وقفت المريضة مُتشبثةً بقُضبان قفصها أو تضرب عليها، وهو قفصٌ ضيِّق لا يسمح إلا بتراكم مزيد من الأقذار، وإنه لَمنظرٌ كريهٌ مُقزِّز. وهناك وقفَت عارية الذراعَين مُشعَّثة الشعر، وجسمها غير المغسول عليه أسمالٌ قذرة، والهواء من حولها خانق للغاية، وإن كانت التهوية مُتاحة من كل جانب إلا واحدًا، حتى إن المرء لا يستطيع أن يبقى أكثر من بضع لحظات من غير أن يتراجع إلى الهواء الخارجي. ودفع بها تهيُّج الجلد الذي ينجم عن القذارة المُتناهية والعُري إلى تمزيق جلدها بفظاعة لِعدَّة بوصات؛ وبذلك تَشوَّه وجهها وعنقها وجسمها لدرجة البشاعة، وكانت تُمسِك بيدها قطعةً من جِلدها انتزعتها لتوِّها. وعندما أبديتُ جَزعي الشديد قالت السيدة: لا حيلة لنا في ذلك ... فلسنا نستطيع أن نصنع معها شيئًا، وأيًّا كان ما تأكله؛ لأنها تستهلك أقذارها طواعيةً كما تستهلك الطعام الذي يُقدَّم إليها.»[5]

ومضت مس ديكس في الميدان إلى أبعد من ذلك، فوجدت في ملجأ فقراء وستفورد شابَّةً جالسة على الأرض وقد غطَّت جزءًا من جسمها العاري ببطانيةٍ قديمة، «وحول خاصرتها سلسلةٌ ثقيلة وقد شدَّت طرفها في الجدار. ولما دخلت عليها مس ديكس احمرَّ وجه الشابَّة وحاولت أن تُحيط نفسها بالأسمال المُتبقية من البطانية، فركعت الآنسة ديكس بجوار الفتاة وسألتها ألا تريد أن تُكسى؟ فأجابتها: بل أريد ثيابًا. فقالت لها المُشرِّفة: «ولكنك ستُمزِّقينها. أنت تعرفين هذا.» فصرخت الفتاة وهي تهمُّ بالقيام: كلا! لن أُمزقها! ولكن السلسلة أقعدتها. وأشارت الفتاة إليها وانفجرت في ضحكٍ أجش: «انظري هناك! ملابس جميلة.» ورغم مطالبتها بالملابس ظلَّت المُشرِفة تَسخَر منها وتتجاهل التماسها المُثير للشفقة.»[6]

وفي نهاية سنة ١٨٤٢م كانت مس ديكس قد زارت — على الأقل مرةً واحدة — كل بيوت الصدقة والملاجئ والسجون في ولاية ماساشوستس فوجدت نفس الأحوال الفظيعة في كل مكان، وكانت مستعدة لكتابة مذكرتها إلى المجلس التشريعي، وقد بدأتها: «إني أُقدِّم هذه المطالبة القوية من قِبل الإنسانية المُعذَّبة.»[7] قدَّمت مذكرتها في يناير سنة ١٨٤٣م، فكانت المعارضة التي برزت أكبر من كل تصوُّر. وأخذت مس ديكس تتعلم — بالتجرِبة المباشرة — أن المجتمع تسوءُه أي حقيقة غير سارَّة تفضح تنكُّبه لطريق الخير،

ولا سيَّما إذا اقتضى القرار زيادة في الضرائب، وأخذ كل المُشرفين على الفقراء يتَّهمونها بعنفٍ أنها تتعمد الافتراء والإثارة. وقيل إن الحالات التي مرَّ ذِكرها «مُستحيلة في جماعة كجماعتنا».[8] وأجَّل المجلس التشريعي المناقشة من يوم إلى آخر حتى ٢٥ فبراير، ثم لما وجد المجلس أن القضية تَلْقى تأييدًا من مُواطنين محترمين مثل تشارلز سمنر الخطيب ورجل الدولة، والمُربِّي هوراس مان، والدكتور لوثر ف. بل، من مستشفى ماك لين للعلاج النفسي، أقرَّت اللجنة التي حولت إليها المذكرة ما جاء بها، وطالبت بالتنفيذ الفوري. ولما أُعلنَ تقرير اللجنة أفاق الجمهور واعترف بالأحوال المحلية الفظيعة، وسحب الساسة اعتراضهم، وصدر القانون الخاص بالإغاثة الفورية لمرضى العقول بأغلبية لا بأس بها.

جبهة النضال المُقدَّس تتَّسع

وأثناء قيامها بتقصِّي الحقيقة في ماساشوستس، كثيرًا ما عبَرت الآنسة ديكس الحدود إلى الولايات المُجاورة؛ نيويورك ورود أيلاند وكونكتيكت. وفي يناير سنة ١٨٤٤م قدَّمت مذكرةً إلى المجلس التشريعي لولاية نيويورك. وكانت خليقةً أن تُقدِّم مذكرةً مُماثلة إلى المجلس التشريعي في ولاية رود أيلاند أيضًا، لولا أن الإحسان الشعبي كان قد قدَّم مساعداتٍ أسرعَ من القطاع الحكومي. ولما مات نيقولاس براون مُؤسِّس جامعة براون في سنة ١٨٤٣م ترك ثلاثين ألف دولار لتُستخدم في بناء وصيانة مأوًى للمخبولين «في بروفيدانس». ولم يكن هذا المبلغ كافيًا، فشرَعت الآنسة ديكس تجمع المزيد، فاتَّصلت بسيروس بتلر، وهو عزبٌ مُسنٌّ صاحب ملايين، وله سُمعةٌ مُدوِّية في الشُّح، وقالت له: «أريد منك أن تُعطيَ خمسين ألف دولار لتوسيع مستشفى المجاذيب بالمدينة، على أن يُسمى بعد ذلك مستشفى بتلر.» فقال بتلر إنه سيُعطي أربعين ألف دولار إذا ما تعهَّد بدفع مِثلها أفرادٌ مسئولون في مدى ستة أشهُر. وبفضل جهودها تم الاكتتاب بأكثر من هذا المبلغ. كان ما دعا أهاليَ رود أيلاد للعمل هو حالة «أبراهام سيمونز» من «تل كومبتون»؛ فقد وجدته الآنسة ديكس في زنزانةٍ مساحتها سبع أقدام، وأرضها وجدرانها مغطاة بالصقيع، وحتى الأرض كانت من الحجر، وبالزنزانة جدران مزدوجة وباب مزدوج، وقال المشرف إن ذلك لأن «صرخاته تُزعجنا في المبنى». وكان سيمونز مُقيَّدًا إلى الأرض بسلسلة ثور.[9] [10] وفي مقال بجريدة بروفيدانس نُشِر في يوم ١٠ من أبريل سنة ١٨٤٤م كتبت الآنسة ديكس بعد أن رصفت «آلام وعذاب أبراهام سيمونز» لتُطلِق ذلك التحدي: «لو أن أي شخص في هذا العصر المُتسم بالإحسان دفعَتْه دواعي الفضول لزيارة المكان، فله أن يثق بأن السفر يُعَد

مأمونًا تمامًا في ذلك الجزء من القُطر، وإن كان السفر لا يبدو كثير الوقوع.» ومع أنها كانت مريضة في أحيانٍ كثيرة إلا أنها عملت بدون كلل. وفي ٢٥ من مارس سنة ١٨٤٥م اعتمد المجلس التشريعي في نيو جيرسي إنشاء مصح عقلي للولاية. وفي مذكرة بالْتِماس إنشاء مستشفى الولاية للمخبولين في بنسلفانيا، قدَّمتها في هاريسبرج في ٣ من فبراير سنة ١٨٤٥م، أعلنت الآنسة ديكس أنَّ سجن إقليم أللِيجيني في بتسبرج يجمع الأخطاء والمساوئ المُتفرقة في أردأ سجون الأقاليم في الولايات المتحدة. وفي ١٥ من أبريل أقرَّت الجمعية التشريعية إنشاء مستشفى مجاذيب ولاية بنسلفانيا في هاريسبرج.

وفي غضون ثلاث سنوات قطعت أكثر من عشرة آلاف ميل بالعربة والقارب البخاري وسكة الحديد، بل وعلى صهوة الخيل أيضًا. وما كانت لتُطيقَ هذه المشاقَّ إلا امرأةٌ شجاعة ذات إرادة. وذات مرة كادت تغرق في عربة وهي تخوض بها نهرًا. وفي بعض الأحيان كان هناك جانبٌ مُشرِق للرِّحلات؛ فعندما أوقف اللصوص عربتها في متشيجان قالت لهم إنهم حمقى. وعرف أحدهم صوت المرأة التي تكلَّمت في عنبر المجانين في سجن بفيلادلفيا حين كان مسجونًا هناك، وفي الحال أُعيدت إليها الأسلاب.

وكانت الآنسة ديكس تريد أن تعرف كل ما يمكن معرفته عن أسباب المرض العقلي، وكيف تمكن معالجته، فكانت تقضي أكثر وقت ممكن في قراءة كتب عن الموضوع. وكان أصحاب الخانات يُطفئون النار ويأتون إلى الفِراش ليلًا، ويتركونها تقرأ على ضوء شمعة أو مِصباح مَوقد بزيت الحوت. وتحوَّلت ساعات الانتظار إلى المحطات الفرعية فيما بين مراحل العربات والقطارات إلى ساعات درس. وأثناء تجولها في أنحاء البلاد كانت تُهاجَم، وتُفتَن، وتُطرى، وتُشجب، وتُناشِد الجمعية التشريعية في نيو جيرسي وبنسلفانيا وإلينوي وكينوكي وتنيسي ومسيسي ولويزيانا وألاباما وكارولينا الشمالية والجنوبية وميريلاند، وكانت المارستانات تنبت في أعقاب مسيرتها، واستُبدل بالسفَّاحين الساديين أطباء مؤمنون بأنه من الممكن عمل شيء للحالات العقلية.

اعتراض رئاسي

وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر أعدَّت الآنسة ديكس خطة للإنفاق على مرضى العقول في الحاضر وفي المستقبل معًا، على أساس استخدام الأراضي العامة. وكانت السياسة المُقرَّرة للحكومة الفيدرالية أن تمنح قِطعًا من الأرض للولايات الجديدة لإنشاء التحسينات، ولا سيما تأسيس المدارس. وفي سنة ١٨٤٥م كان قد تبقَّى حوالَي مائة وخمسة وثلاثين

مليون فدَّان من الأملاك العامة. وتساءلت الآنسة ديكس: لماذا لا يوضع جزء من هذا كرصيد لنفقات المخبولين المُعوزين؟ إن الحكومة التي تُقدِّم المدارس والمساكن والطُّرق الكبرى للأصحَّاء عليها أن تفعل شيئًا للمخبولين المُعدمين. وقدَّمت مذكرة إلى الكونجرس في ٢٧ من يونيو سنة ١٨٤٨م، طلبت فيها — مبدئيًّا — تخصيص حوالَي ١٢ مليون فدَّان. وكانت كلما ماطَل الكونجرس في الموضوع زادت هي في رقم المطلوب. وفي سنة ١٨٥٢م كان رقم الفدادين المطلوبة قد تضاعف، وطلبت أيضًا مائة ألف دولار لمستشفًى يُعالج مخبولي الجيش والبحرية ومنطقة كولومبيا. وفي ٩ من مارس سنة ١٨٥٤م أقرَّ مجلس الشيوخ قانونًا يتضمَّن ما الْتَمسته وبأغلبيةٍ طيبة، وبدا أن جهود ١٤ عامًا آتت ثمارها أخيرًا. ولما وصَلها نبأ اعتماد مجلس النواب للقانون استطارها الفرح. وكل ما بقيَ الآن هو توقيع الرئيس فرانكلين بيرس، وكان قد أعرب شخصيًّا عن اهتمامه بالمشروع، فجاء قراره بالاعتراض على القانون مَثار دهشة مريرة لمؤيدي المشروع الكثيرين. وأعلن الرئيس بيرس في رسالة اعتراضه أنه اضطُرَّ لمقاومة مشاعره القلبية الشخصية المتعاطفة مع المقاصد الإنسانية المُراد تحقيقها بهذا المشروع، ولكن هناك اعتبارات أكبر من ذلك؛ «فإذا كان الكونجرس يَملِك تدبير الموارد للمخبولين المُعوزين خارج حدود هذه المنطقة، فله إذَنِ الحق في تدبير الموارد أيضًا للمُعوزين غير المخبولين؛ وبذلك ينقل إلى الحكومة الفيدرالية إعالة جميع الفقراء في كل الولايات ... وستَنضب ينابيع الإحسان في الوطن وفي الولايات المختلفة، بدلًا من إضفاء وسائلها ومواردها على الاحتياجات الاجتماعية لشعوبها، فتغدو هذه الشعوب في موضع استجداء مكارم الحكومة الفيدرالية؛ وبذلك ينعكس وضعها بالنسبة للاتحاد.»[11] وفي يوليو تأيَّد هذا الاعتراض؛ وبذلك خسرت دوروثيا لند ديكس أعظم معاركها.

أسفار للخارج

كانت رغبة الآنسة ديكس القوية مُتجهة إلى مغادرة واشنجتن، ولكنها كانت مرتبطة بعِدَّة مواعيد. وفي سبتمبر تسنَّى لها أن تُبحر إلى ليفربول، وهناك قابَلها عددٌ من الأصدقاء القدامى، وأخذها وليم راثبون — عمدة ليفربول السابق — وزوجته إلى بيتهما «جرينبانك» وهو في ضيعةٍ ريفية جميلة، ووعدت دوروثيا أن تستجمَّ هناك شهرًا. وكان من المُستحيل تحويل سيدة مناضلة في سبيل الإحسان وحب البشرية إلى سائحة، وفي أقل من أسبوعَين «انشغلت جدًّا مع المنظمات الخيرية واجتماعات الجمعية العلمية البريطانية.

وكل هذا ما يُتعبني جدًّا، ولكني سآخذ الأمور بمزيد من اليُسر بعد أسبوع، وفي نيَّتي أن أذهب إلى اسكتلندا لأرى مستشفياتها بعد عشرة أيام.»[12]

وقد وجدت حالة المخبولين في اسكتلندا تحتاج إلى الشيء الكثير من العناية، ومستشفيات المرضى العقليين بحاجةٍ ماسَّة إلى الإصلاح. «لقد أتيتُ إلى هنا للمُتعة، ولكن هذا ليس سببًا كافيًا كي أُغلق عيني على حالة أقل خلق الله حيلةً ... إني واثقة بأن «الإصلاح» سيَظلُّ يُلازمني، وأنني كلما أسرعت إلى هذا العمل الإنساني أسرع ضميري إلى الكف عن مطالبتي ببذل الجهد أو لَوْمي على التبطل.»[13] وكان أصدقاؤها الإنجليز قد ثبَّطوا عزيمتها عندما اتخذت قرارها باستقصاء حالة المنظمات الاسكتلندية، وقالوا لها إنهم سينظرون إليها نظرتهم إلى أجنبيةٍ مُتطفِّلة. ولكن في ٩ من أبريل سنة ١٨٥٥م كانت الملكة فيكتوريا قد أثابت جهودها وعيَّنت لجنة لتقصِّي حالة المخبولين في اسكتلندا.

وكان هجومها التالي على الأحوال السائدة في جيرسي في جُزرِ القنال الإنجليزي، وكانت النتيجة إنشاء مستشفًى للمجاذيب بها. أجل، إنه لم يتم إلا في سنة ١٨٦٩م، ولكن بدون جهود الآنسة ديكس ما كان العمل فيه ليبدأ.

وأقنعوا دوروثيا بالسفر إلى سويسرا لقضاء شهرَين انتجاعًا للراحة، فقرَّ رأيها على انتهاز الفرصة للقيام بدورةٍ تتفقَّد فيها المستشفيات والسجون ومستشفيات المجاذيب في أوروبا، وكان في عزمها أن تذهب حتى تركيا، بل وربما أيضًا إلى الأراضي المقدسة، وهو حُلمٌ قديمٌ عزيز عليها.

وفي باريس لم تُصادِف أي حَجْر على زياراتها، وأدهشها وسرَّها أن تجد نقيصتَين فقط في عمل المنظمات المختلفة؛ الأولى هي قلة التهوية، والثانية أنَّ سلوك الأطباء المُقيمين كان ذا طابع عملي تجريبي واضح جدًّا. وفي نابولي وجدت مستشفًى لمرضى العقول غطَّى ببهائه على كل المستشفيات الأخرى في إيطاليا، ولكنها من جهةٍ أخرى صُدِمت بصفةٍ خاصة بما وجدته في ظلال الفاتيكان، وتمكَّنت من مقابلة البابا بيوس التاسع الذي وعد شخصيًّا بتقصِّي الفظائع التي وصفتها. وفي مقابلةٍ ثانية شكرها؛ لأنها استرعت انتباهه إلى تعاسات مرضى العقول في رعيَّته.

ووصلت الآنسة ديكس إلى القسطنطينية في أبريل سنة ١٨٥٦م، وكانت قد سمِعَت حكايات عن عذاباتٍ فظيعة في السجون والمستشفيات التركية، ولكن بعد أن تفقَّدت كل السجون والمستشفيات العصبية التي يُديرها تُركيٌّ تعلَّم في باريس كتبَت إلى مسز راثبون: «إن المخبولين في القسطنطينية حالتهم أفضل من حالة نُظرائهم في روما وتريستا، ومن

بعض الوجوه يلقَون عناية أفضل مما يُبذَل في تورين وميلانو وأنكونا. وقد أدهشتني ترتيبات الراحة والسرور المُتاحة للمرضى بما في ذلك الموسيقى. ويقترح المشرف العام تحسينات، ولم أجد الكثير مما اقترحه، ولا أي شيء يوجب استعجالي إياه.»[14]

ونبذت الآنسة ديكس فكرة الذهاب إلى القُدس على أساس أنها ترفٌ شخصي؛ فقد كرَّست «أسفارها لتلك الأماكن التي بها مستشفيات أو التي هي بحاجة إليها».[15] وعند عودتها إلى إنجلترا في أول أغسطس كانت قد زارت باريس ونابولي وروما وفلورانسا وتريستا وتورين وفينتسيا وقبرص والقسطنطينية وبوادبشت وفينا وموسكو وسان بطرسبرج وكرستيانيا وستوكهولم وبروكسل وأمستردام. وقُرْب نهاية سبتمبر أبحَرَت عائدةً إلى أمريكا.

حتى النهاية

وفي السنوات السابقة مباشرةً للحرب الأهلية كانت الآنسة ديكس مُرهفة السمع وهي تتجول في أنحاء البلاد طولًا وعرضًا، وهناك اجتمعت واستمعت للمُتحمِّسين الدينيين وأنصار تحريم الرِّق وحرية التجارة والسياسيين من مختلف الألوان. وليس معنى أنها لم تنحَزْ لطائفةٍ دون أخرى أنها لم تكن ذات عقائد شخصية قوية، كل ما هناك أنها رأت ألا تُعرَّض للخطر أو تُورِّط قضيتها الأساسية؛ فمسئوليتها الكبرى عن المخبولين، وقد تفقَّدت ملاجئ الفقراء في تورونتو، واختارت الموقع لمستشفى سانت إليزابث في واشنطن بمنطقة كولومبيا، وفتَّشت السجون وملاجئ الفقراء في تكساس، وحاولت استصدار تشريعات في ولايات الجنوب للحصول على ثلث مليون دولار للمستشفيات. ولما اندلعت الحرب في أبريل سنة ١٨٦١م تخلَّت الآنسة ديكس عن اهتمامها الرئيسي وتطوَّعت لتجنيد المرضات لجيش الاتحاد. وفي ٢٣ من أبريل قبل وزير الحرب كاميرون طلبها. وفي ١٠ من يونيو عُيِّنت مُشرِفةً عامة على ممرضات جيش الولايات المتحدة، وكانت تُناهز الستين. ولم تكن صحتها قوية في أي يوم، ومع هذا أقبلت على مَهمَّتها ببأسها المعهود، وخدمت طول مدة الحرب، ولقيَ عملها الاعتراف الرسميَّ في ٣ من ديسمبر سنة ١٨٦٦م؛ فقد أصدر وزير الحرب — وهو حينذاك إدوين ستانتون — أمرًا نصُّه كما يلي:

> «رمزًا للاعتراف بالخِدمات الجليلة التي قدَّمتها الآنسة دوروثيا ديكس، للعناية والمساعدة وإسعاف جنود الولايات المتحدة الجرحى والمرضى في ميدان القتال وفي المعسكرات والمستشفيات أثناء الحرب الأخيرة، ولجهودها الحميدة الدائبة

المُخلِصة لكل ما من شأنه أن يُساعد على راحتهم وسلامتهم، قد أمرنا بتقديم شعار الجيش وعلم الولايات المتحدة إلى الآنسة ديكس.»[16]

وفي سنة ١٨٦٧م فتَّشت الآنسة ديكس السجون وملاجئ الفقراء ومؤسسات مرضى العقول. وفي خلال الخمس عشرة السنة التالية عبَرت البلاد من مين إلى فلوريدا ومن نيويورك إلى كاليفورنيا. وسنة ١٨٧٧م — وهي في سن الخامسة والسبعين — كتب الدكتور تشارلسن فولسوم في كتابه «المرض العقلي»: «إنَّ زياراتها المُتكرِّرة لمنظماتنا لمرضى العقول الآن، ونقدها الفاحص المُدقِّق، هي في حد ذاتها لجنة للخبال أفضل مما يمكن أن تُشكِّله ولاياتٌ كثيرة.»[17] وفي أكتوبر سنة ١٨٨١م، وبعد رحلةٍ أخرى مُضْنية للتفتيش في نيويورك ونيو إنجلند، ذهبت للاستجمام في مستشفى ولاية نيو جيرسي في ترنتون، وكانت عاملًا أساسيًّا في إنشائه سنة ١٨٤٨م، ولم تُبارحه بعد ذلك قط، وظلَّت هناك خمس سنوات، وتُوفِّيت في مساء ١٨ يوليو سنة ١٨٨٧م.

ولئن نُسِي — إلى حدٍّ كبير — ذِكر الآنسة ديكس وعملها الضخم، فذلك «راجع — إلى حدٍّ كبير أيضًا — إلى الآنسة ديكس نفسها؛ فهي لم تسمح قط بأحاديث شخصية أو ما يُسمى اليوم بالدعاية، ورفضت أن يُطلِقوا اسمها على أي مارستان. والأرجح أنها أفضل امرأة أنجبَتها أمريكا في ٣٠٠ سنة أو أكثر ... فلو لم تُولَد في الوقت الذي وُلِدت فيه، لتأخَّر — على الأرجح — الاهتمام بمرضى العقول في أمريكا نِصف قرن آخر.»[18]

وعلى قبرها في جبَّانة ماونت أوبرن قُرْب بوستن يُرفرِف العَلم الأمريكي، وبَيرق سلاح ممرضات الجيش، والشاهد الرخامي البسيط مكتوبٌ عليه: «دوروثيا ل. ديكس.» بدون تواريخ أو كلمة تأبين.

الفصل السادس عشر

جين آدمز

قد تبدو علاقة جين آدمز (١٨٦٠–١٩٣٥م) بالطب، لأول وهلة، بعيدة … ولكن الواقع أن إنشاءها لـ «هل هاوس» كان مُمارَسة لـ «الطب الوقائي» قبل أن يدخل هذا المصطلح في الاستعمال الشعبي. وقد وُلِدت جين في سيدارفيل بإلينوي، وهي من الأعضاء الصغار في أسرةٍ كبيرة العدد. وأول ما تَذكُره عن طفولتها يدور حول والدها الكويكري جون هـ. آدمز (المُتوفى سنة ١٨٨١م) وهو فردٌ مُسيطر كان له عليها تأثيرٌ عظيم، وكانت والدتها قد تُوفِّيت وهي طفلةٌ صغيرة، ولم يتزوج والدها إلا بعد ثماني سنوات، وكانت جين دون السابعة من عمرها عندما اكتشفت أن كل الشوارع في «المدينة الصغيرة ذات العشرة آلاف نسمة … ليست جذَّابة لدرجةٍ مُذهِلة مِثل الشارع الذي به حانوت اللعب المُتلألئ وحوانيت الحلوى …» وكانت المناسبة زيارة أبيها لمصنع في أفقر أحياء المدينة المجاورة، «وفي ذلك اليوم ألقَت أول نظرة لي على الفاقة إلى حد القذارة، وشعرت بتميزٍ غريب بين الفاقة الموجودة في الريف وهذه الفاقة التي تُمثِّلها مدينةٌ صغيرة مِثل مدينتنا في أقذر شوارعها. وأتذكَّر أنني وجَّهت إلى أبي هذا السؤال الجريء: لماذا يعيش الناس في هذه البيوت الصغيرة الفظيعة مُتلاصقين هكذا؟ وأنني بعد أن تلقَّيتُ منه الإيضاح أعلنتُ بحزمٍ كثير أنني — عندما أكبر بالطبع — ينبغي أن يكون لي بيتٌ كبير، ولكنه لن يقوم وسط البيوت الكبيرة الأخرى، بل في وسط البيوت الصغيرة الفظيعة التي تُشبِه هذه …»[1]

وفي دير روكفورد الذي انتظمَت به ثلاث شقيقات أكبر منها، وذهبت إليه جين أيضًا سنة ١٨٧٧م، الْتقَت بفتَياتٍ مُستعدَّات لمناقشة كل شيء في الحياة. ولم تكن حماستهن كلها كلامًا؛ فإحداهن قُدِّر لها أن تتزوَّج مُبشرًا، وأسَّست مدرسةً مُمتازة للأطفال الأمريكيين، والإنجليز في اليابان؛ وأخرى قُدِّر لها أن تكون مُبشِّرةً دينية وطبيبة في كوريا، وبعد أن عالجت الملكة بنجاحٍ صارت طبيبة البلاط؛ وثالثة ستُثبِت أنها مُعلِّمة

عُميان بارعة بصورةٍ خارقة للمُعتاد، ورابعة صارت أمينة مكتبة ورائدة في توصيل الكتب إلى الشعب. ومما لا جدال فيه أن اختيار جين آدمز لصديقاتها من بين بنات المدرسة، قادها في اتجاه الأعمال التي ستُكرِّس لها حياتها؛ فهي تُخبرنا «بأنه لِمَّا يُثير الفضولَ أن الأعمال الحاليَّة لمدرسة إرسالية ليست شديدة الاختلاف عن كثير من الأعمال التي تقوم بها مؤسسة إنعاش في حيٍّ أجنبي. ومن المقطوع به أن أكثر زُوَّارنا تعاطفًا وتفهمًا في هال هاوس كانوا مُرسَلين عائدين.»[2]

وتخرَّجت جين في روكفورد في صيف ١٨٨١م وفي نيَّتها دخول ميدان الطب؛ ولهذه الغاية قضَت الشتاء التاليَ في كلية الطب النسوية ببنسلفانيا، ولكنها كانت منذ طفولتها الأولى تُعاني من تَقوُّس في عمودها الفقري. وفي ربيع ١٨٨٢م بدا أن هذه الآفة زادت تعقدًا بمرضٍ عصبي، فدخلت المستشفى الخاص بالدكتور س. فير. متشل أعظم أطباء الأمراض العصبية الأمريكان في زمنه، والذي كان قد توصَّل في ١٨٧٥م إلى طريقة في العلاج أطلَق عليها اسمه. وهذا العلاج الذي لقيَ قبولًا عالميًّا على الفور عبارةٌ عن راحةٍ طويلة الأمد في الفِراش. وفي الشتاء التالي كتبَت جين آدمز: «لقد كنت مُقيَّدة حرفيًّا إلى الفِراش في بيت أختي ستة أشهُر.» وكانت تلك نقطة تحوُّل في حياة الدكتورة المرجوَّة، التي اعترفت بعد ذلك بأنه «بعد الأسابيع القليلة الأولى تسنَّى لي أن أقرأ بتلذذٍ واضح في وقت فراغي، وأتذكَّر أنني فتحتُ أول جزء من كتاب فردريك الأكبر لكالارايل بإحساسٍ عميق بالامتنان؛ لأنه لم يكن كتابًا جراحيًّا في الترشيح. وبعد ذلك نعِمتُ بعامَين من النقاهة في أوروبا، وقبل أن أعود إلى أمريكا كنت قد اكتشفت أن هناك أسبابًا أخرى حقيقية للعيش بين الفقراء عدا ممارسة الطب على مرضاهم. ولم أُواصل بعد ذلك غزوتي القصيرة لمهنة الطب.»[3]

وفي وقتٍ مُبكِّر من إقامتها بإنجلترا انضمَّت مس آدمز إلى جماعةٍ صغيرة من السياح أخذتهم إرسالية بالمدينة إلى الإيست إند (الطرَف الشرقي) بلندن ليَشهدوا بيع مساء السبت للفاكهة والخُضر المعطوبة التي لا يمكن إبقاؤها بالمخازن إلى يوم الإثنين. وتركت تعاسة الطرَف الشرقي بلندن انطباعًا لا يمكن إزالته لديها، وكتبت: «وفي الأسابيع التالية تجوَّلتُ في لندن خلسةً تقريبًا، وأنا خائفةٌ أن أُطلَّ في الشوارع والحواري الضيِّقة خشيةَ أن يتكشَّف لي مرةً أخرى هذا العذاب والاحتياج البشري البشع. ولازَمني أيامًا بطولها بعد ذلك هذا التعجب الغريب الذي نشعر به عندما نعود إلى الشوارع بعد أيامٍ قضيناها في مشاعر الحزن والموت؛ فنحن مذهولون حيارى لأنَّ العالم ماضٍ كسيرتِه الأولى، ولا

نستطيع أن نجزم أيهما الحقيقي؛ الألم الداخلي أم المظهر الخارجي. ومع الوقت بدأت لندن الضخمة تبدو غير حقيقية، ما عدا الفاقة في الطرف الشرقي منها. وفي العامَين التاليَين اللذين قضيتهما في القارة الأوروبية، كنت أجد نفسي مُنجذبة بقوةٍ قاهرة دائمًا إلى الأحياء الفقيرة في كل مدينة، لم يكن بين مُتسوِّلي جنوبي إيطاليا ولا بين عمال مناجم المِلح في النمسا ما أشعرني وأقنعني بالفاقة والتعاسة البشرية التي طبعَتْها في نفسي تلك اللمحة العابرة من شارع بالطرف الشرقي في لندن.»[4]

وبعد عامَيها في أوروبا قضَت مس آدمز عامَين في أمريكا. وحوالَي آخر سنة ١٨٨٦م عادت إلى أوروبا لعامَين آخرين من السفر والملاحظة. ولم تستطع مس آدمز فيما بعدُ أن تتذكر متى خطرت لها الفكرة أول مرة؛ «أن تستأجر بيتًا في موضع من المدينة توجد به الاحتياجات البدائية والفعلية، وفيه تستطيع الشابَّات اللواتي انصرفن إلى الدراسة بالكلية أن يَسْتعدن تَوازُن نشاطهن بالطُّرق التقليدية، ويتعلَّمن عن الحياة من الحياة نفسها، وحيث يتسنَّى لهم أن يُجْرين بعضًا من الأشياء التي تعلَّمتها.» وقد يكون ذلك قبل رحلتها الثانية إلى أوروبا، أو في وقتٍ مُتأخر قد يصل إلى أبريل سنة ١٨٨٨م، عندما وصلت جماعتها إلى مدريد، وتتذكر أنها أشارت إلى الموضوع وخُطتها فيه لأول مرة بالتأكيد تقريبًا. كان هذا الخاطر قد أُوحيَ إليها كردِّ فِعل لمصارعة الثيران، «حيث جرى ما أثار دهشتي وفزعي؛ فقد رأيتُ بعينَي رأسي وبعدم اكتراث نسبيًّا خمسة ثيران وعددًا أكبر من ذلك بكثير من الخيل تَلْقى مصارعها.» وقرَّرَت في اليوم التالي أن تقوم بتنفيذ خُطتها ولو بالحديث عنها. وكانت من اعترفت لها بدخيلة نفسها هي إلين جيتنس ستار (١٨٦٠–١٩٤٠م)، وهي صديقةٌ قديمة من عهد المدرسة وعضوٌ في جماعة الرحلة، وأثبتَت مس ستار أنها مُستمِعة مُتحمِّسة. ولما افترقتا في باريس في يونيو سنة ١٨٨٨م بدأ محتملًا جدًّا أن تنضمَّ إلين إلى جين آدمز في تحويل مشروع غامض إلى حقيقةٍ حية.

وماذا كانت هذه الخطة؟ لم تكن جين آدمز تكاد تعرف عنها كثيرًا، ولكن بعد ٤ سنوات (١٨٩٢م) استطاعت أن تُحدد العمل الذي تصدَّت له أيام اجتماع جمعيات الثقافة الخلقية في بلايموث بماساشوستس بهذه الكلمات: «إن مُؤسَّسة الإنعاش مجهودٌ للمساعدة في حل المشكلات الاجتماعية والصناعية التي تَنجُم عن ظروف الحياة العصرية في المدينة الكبيرة. وهذه المؤسسة تُؤكِّد أن هذه المشكلات لا تنحصر في أي جزء من المدينة، وأنها تُحاوِل أن تُخفِّف في الوقت نفسه من التُّخمة المُفرِطة في أحد طرفَي المجتمع، ومن العَوَز في طرفه الآخر، ولكنها تفترض أن هذه التخمة وهذا العوز (كذا) أشد ما يكون الشعور بهما

مؤلمًا في الأشياء التي تتصل بالمزايا الاجتماعية والتعليمية ... وأخشى ما نخشاه في مؤسسة الإنعاش أن تفقد مُرونتها وقدرتها على التكيف السريع واستعدادها لتغيير مناهجها، كما تقتضي ذلك بيئتها؛ فلا بد لها أن تكون مفتوحة للاقتناع، وأن يتوفر لها إحساسٌ شديد بالتسامح، وأن تكون مِضيافة ومُستعدَّة للتجريب. وينبغي أن تطلب من المُقيمين بها صبرًا علميًّا في تكديس الوقائع والحقائق ودوام التعاطف لأن ذلك خير وسيلة لتكديسها ... ويجب تذويبها بعد ذلك في فلسفةٍ تقوم على أساسٍ من تَماسُك الجنس البشري وتَسانُده؛ فلسفة لا تتردد عندما يكون الجنس البشري مُمثَّلًا في امرأةٍ سِكِّيرة أو ولدٍ أبله. إن المُقِيمين بها (أي بمحلة مؤسسة الإنعاش) يجب أن يرضَوا بالحياة بهدوء بجوار جيرانهم، إلى أن ينموَ لديهم إحساس بالعلاقة والاهتمام الطبيعي. إن الجيران يفصل بينهم اختلاف السلالة واللغة، وهما مما يستطيع سكان محلة الإنعاش أن يقهروهما. وباختصار، يتعهد السكان في المحلة بتكريس أنفسهم لواجبات المواطنة وتنشيط الطاقات الاجتماعية التي تَكمُن نائمةً في كل جوار مُنصرف بالكلية إلى التصنيع.»[5] [6]

هال هاوس

وفي يناير ١٨٨٩م كانت مس آدمز ومس ستار في شيكاغو مُستعدَّتَين لإنشاء محلة للإنعاش، وهي تسميةٌ مُستعارة من لندن (حيث يوجد توينبي هول، وقصر الشعب، وقد درست مس آدمز كلًّا منهما) لمؤسسة تُقدِّم خِدماتٍ اجتماعيةً في المناطق المنكوبة، وتعاونتا في البحث عن أصدقاء للمشروع. ولم يطلبا مالًا من أحد؛ لأنهما قرَّرتا الابتداء على الأقل بمواردهما المحدودة، وقُوبلت أحاديثهما بالود والمجاملة المهذَّبة، وإن كان هناك بعض التشكك أحيانًا. وهاجَم أحد النُّقاد الخطة لأنها «من تلك المحاولات غير الطبيعية لفهم الحياة عن طريق المعيشة التعاونية»، وردَّ المُنظِّمون بأن المعيشة الجماعية ليست عنصرًا أساسيًّا. وبما أنَّ كل مشترك سيتحمَّل نفقاته الخاصة، فقد يأتي الوقت الذي يُقرِّرون فيه المعيشة فُرادى وسط الجوار، ولكن مس آدمز سارعت بالاعتراف بأن الناقد له بعض الحق؛ فإنه من المعلوم أن المعيشة المشتركة تُحوِّل السكان إلى الداخل صَوْب الرفقة المُغلَقة بدلًا من تحويلهم إلى الخارج صوب البيئة، ومع هذا فهي تشعر بأن هذا الاحتمال مردود عليه؛ لأن «مجرد وجود بيت بمثابة مَوطئ قدم يمكن الوصول إليه ودخوله بسهولة، وفيه اتساع وكرم ضيافة مع روح تَسامُح، ويكون موقعه في وسط جاليات أجنبية كبيرة تميل إلى عزل نفسها في المدن الأمريكية، سيكون عملًا فيه خدمةٌ كبيرة لشيكاغو.»[7] وأخيرًا تم

اختيار الموقع، إنه بيتٌ قريب من تَقاطُع شارع بلو أيلاند وشارعَي هالستيد وهاريسون، في الجانب الشمالي مما هو الآن حرم جامعة إلينوي. وكان البيت قد بُنِي في سنة ١٨٥٦م ليكون مَقرًّا لرائد من شيكاغو هو تشارلز هال. وفي السنوات التالية تداوَلَته أيدٍ كثيرة، واستعمل بيتًا للمُسنِّين تُديره أخوات الفقيد الصغيرات، ثم مخزنًا للأثاث المستعمل. وبعد هذا التداول أصبح يستخدم مكاتب ومخازن لمصنع يُجاوره من الخلف. ويُقال إنَّ دوره العُلوي مسكون بالأشباح. ومهما يكن من شيء فإن مُستأجري الطابق الثاني يحتفظون بجرَّةٍ ملأى بالماء على السُّلَّم؛ اعتقادًا منهم بأن الأشباح لا تستطيع أن تتخطى الماء!

وبدأت مسز آدمز ورفيقاتها باستئجار الطابق الثاني من الباطن، وكذلك ما كان في الأصل حجرة جلوس الطابق الأول من ذلك المنزل الرحب. وفي العام التالي قامت مس هيلين كلفر مالكة البيت بإعطائهن البيت كله بدون إيجار. ولم تقف عند هذا الحد في سخائها، بل استطاعت مس آدمز في سنة ١٩٢٩م أن تقول في تقريرها: «إن مجموعة الثلاثة عشر بناءً — التي تشمل الآن جهازنا — معظمها مشيد على أرضٍ وضعَتْها مس كلفر في خدمة «المحلة» التي تحمل اسم مستر هال.»[8] وفي ١٨ من سبتمبر سنة ١٨٨٩م كان هال هاوس قد تأثَّث وتجهَّز، وانتقلت إليه مس آدمز ومس ستار ومس ماري كيزر. وكانت الأخيرة قد عُيِّنت لتقوم بأعمال البيت، ولكنها في السنوات الخمس المُتبقِّية من حياتها صارت شخصيةً مهمة جدًّا في الجوار وفي أعمال هال هاوس.

وما الذي يدعو الشُّبَّان والشابَّات للمعيشة في «الأكواخ القذِرة» واستخدام مالهم لخدمة قضية؟ تعتقد مس آدمز أن هناك ثلاثة دوافع كبيرة لذلك؛ أولها الرغبة في ترجمة الديمقراطية على ضوءِ مفهومٍ اجتماعي، وثانيها الرغبة في تقدم جنسنا البشري، وثالثها حب الخير أو الدافع الإنساني. وختمت بقولها إن الضرورة الذاتية لإقامة المجلات الاجتماعية هي بذاتها التي تحثُّ الأفراد على التحرر الاجتماعي والشخصي.[9]

تحقيق الأهداف

إن الأهداف المُحدَّدة للمشروع كما تضمَّنها ميثاقه هي «إتاحة مركز للحياة المدنية والاجتماعية العليا، وإقامة وصيانة المشروعات التعليمية والخيرية، وتقصِّي تحسين الظروف والأحوال في المناطق الصناعية بشيكاغو.»[10] وهي كلماتٌ باردة بالقياس إلى الحقيقة الدافئة.

ويقع هال هاوس على حافةِ منطقةٍ تَسكُنها جالياتٌ أجنبية مُتعددة؛ فإن حوالَي عشرة آلاف إيطالي مُكتظُّون بين شارع هالستيد ونهر شيكاغو، وإلى الجنوب يوجد ألمان وسُكان من بوهيميا، والشوارع الجانبية فيها يهود بولنديون وروس، أما الكنديون الفرنسيون فيعيشون إلى الشمال الغربي، والأيرلنديون وأول جيل من الأمريكان إلى الشمال، ومن بين العناصر الأفقر في كل جماعة يوجد مَن انحدرَت مكانتهم وظروفهم بعد يُسرٍ لسبب أو لآخر. وكان هؤلاء أول من ساعَدهم المُتطوعون الذين تقاطروا صَوْب علم هال هاوس بمجرد إنشائه. وأُنشئت جماعات للقراءة وغير ذلك من الأنشطة الثقافية لأولئك المنكودين الذين عرَفوا فيما مضى ظروفًا أفضل. وكانت هذه مجرد بداية، ولكن كانت هناك احتياجاتٌ عملية أكثر من هذه تجب مواجهتها؛ كان هناك أطفال ورُضعاء كان لا بد أن تُهمِلهم أمهاتهم العاملات في محلاتٍ تستغلُّ عرَقهن بأجورٍ زهيدة جدًّا، وهناك الأطفال الذين يلعبون في شوارع ضارَّة بالصحة، والأطفال الذين يعملون في المصانع، وهناك البيوت المُؤجَّرة، والمُسنُّون المهجورون والمُهمَلون الذين يعيشون في بيوت الفقراء الفظيعة، ثم هناك أخيرًا أماكن الاتصال الاجتماعي — عدا الحانة القريبة — التي يجب توفيرها لهؤلاء الناس.

ولم يكن في وُسْع هال هاوس أن يقوم بذلك كله؛ إذ لا يُمكِنه أن يُطعِم كل الجياع، أو يكسوَ كل العُراة، أو يُؤْوِيَ كل المُشرَّدين، أو يُداويَ كل المرضى. وما فعلته مس آدمز ومس ستار ومعهما السُّكان المُخلِصون، أنهم لفتوا أنظار السُّلطات العامة إلى النقائص، وألهموا المُحسِنين أن يُوجِّهوا أعمال البر حيث تمسُّ الحاجة إليها. أما أول خطوة لهال هاوس فكانت فتح روضة أطفال. وألحقَت بها مطابخ لإطعام الأطفال والنساء العاملات، اللواتي كان غذاؤهن — بغير شك — مما يُباع في محالِّ الحلوى، ونظَّمت ناديَ للصِّبيان ودوائر حياكة للبنات. وكان الجميع يرقصون في الجمنازيوم، ومن تحته تحوَّل المطبخ العام إلى مقهًى. وكان الجمنازيوم والمقهى يُستعملان أيضًا لاجتماعات البالغين، بما في ذلك حفلة رأس السنة للمُسنِّين من أهل الجوار. وشَمِل هال هاوس برعايته ناديَ تغذية للفتَيات العاملات، بل وحاوَل إقامة جمعية تعاونية للفحم، وسُرعانَ ما تناقل الناس أن سكان هال هاوس كانوا مُستعدِّين للقيام بأحطِّ الخِدمات للجوار؛ غسل الأطفال الحديثي الولادة، وتجهيز الموتى للدفن، والعناية بالمرضى، ورعاية الأطفال.

وكان الأطفال يعملون في المصانع من السابعة صباحًا إلى التاسعة مساءً في ظروفٍ غير مأمونة بشكلٍ فاضح، وليس هناك أي تعويض عن الإصابات، بل ولا عن الوفاة؛

فقَبْل السماح للطفل بالعمل كان وليُّ أمره يُوقِّع إقرارًا بالتنازل عن أي تعويض يَنجُم عن الإهمال. وحثَّت مسز فلورانس كيلي — من أوائل ساكني هال هاوس — مكتب عمل ولاية إلينوي أن يقوم بالتحقيق في نظام المصانع الصغيرة التي تستغلُّ عَرَق العاملين بأجورٍ ضئيلة في شيكاغو، ولا سيَّما حين يتَّصل الأمر بتشغيل الأطفال، وأدَّت هذه الاستقصاءات إلى أول قانون للمصانع في إلينوي.

وفي التسعينيات من القرن التاسع عشر، كانت القُمامة تتراكم في صناديق خشبية ضخمة مُثبَّتة في أرض الشارع، وتُجمَّع في فتراتٍ مُنتظِمة.

وكان هذا النظام غير لائق في بيئة تُجاوِر هال هاوس، فضلًا عن أنه غير صحي؛ فالحجم العادي للنُّفايات كان يتضخم بالفواكه والخُضر المُتعفِّنة التي يُلقيها الباعة الطليان واليونان، وبالأسمال القذرة للغاية التي لا نفع فيها لباعة الملابس القديمة أو للذين يسرقونها من مَقلب المدينة طمعًا في «تقييفها». ومما جعل الأمور أسوأ أنَّ الأطفال يلعبون حول هذه الصناديق الكبيرة وفيها، ويأكلون كل ما يقع تحت أيديهم منها، فعمل هال هاوس على إزالة هذه الصناديق واتباع نظام أفضل لجمع القمامة.

وهناك معركةٌ أخرى تصدَّى لها سكان هال هاوس، وهي بيع الكوكايين للقُصَّر. وكانت القوانين القائمة غير كافية، وأخيرًا صدر تشريعٌ جديد سنة ١٩٠٧م، وبُذِل مجهودٌ مُنسَّق لتنبيه الجمهور إلى الأحوال التعسة التي تَسُود بيوت الكِراء بالحجرة، وعلى الأقل تأثَّر بعض المُلَّاك وشرَعوا في إدخال تحسينات، ولكن الأحوال ظلَّت رديئة، حتى إنه أثناء وباء التيفود في سنة ١٩٠٢م كانت نسبة الوفَيات ١٧٪ في الشق الذي يقع فيه هال هاوس، مع أن سُكَّانه يُشكِّلون ٣٪ فقط من سكان شيكاغو. ودرس سكان هال هاوس أحوال السباكة في المناطق التي كان تركيز الحُمَّى فيها أكثر من غيرها. وبإشراف الدكتورة أليس هاملتون التي قامت بدراسةٍ بِكْتريولوجية لمختلف النُّظم السائدة في السباكة (المقصود بالسباكة: التوصيلات الخاصة بأنابيب الماء والمراحيض والحمام) أثبتوا — من بين أشياء أخرى — أن الظروف التي تُشجع انتشار العدوى ما كانت لتُوجَد بهذه الشدة لو لم يكُن مُفتش المدينة مُهملًا إهمالًا إجراميًّا أو مُرتشيًا من مُلاك البيوت. وأدَّى هذا الافتضاح إلى محاكمةٍ تأديبية لنصف مُوظَّفي مكتب الصحة، وفَصْل ١١ من الأربعة والعشرين موظفًا بهذا المكتب. «إن المفتش في منطقتنا كان رجلًا مُسنًّا عطوفًا، حَزِن حزنًا شديدًا لهذه القضية، وكان عاجزًا عن فهم السبب الذي من أجله كان عليه أن يستخدم صلاحياته في الوقت المُناسِب لإرغام الملك على إدخال الوسائل العصرية.

فإذا كان هذا الملك فقيرًا أو على وَشْك أن يبيع بيته أو مُتأكدًا أن البيت سيُهدَم قريبًا ليقوم في مكانه مصنع، فلماذا إذَن يُضايقه؟»[11] ونفَذ هذا التحقيق إلى صميم جريمة الكسب غير المشروع والرشوة في بلدية المدينة وخارجها، وترتَّب على ذلك أنْ سحبَ كثيرون من المُكتتبين في هال هاوس تأييدهم له، ولكن هال هاوس لم يتخاذل، وظل سُكانه يعملون لتحسين الصحة في المجتمع، وعن طريق برامجه المُتعددة الاجتماعية والتعليمية للشباب والمُسنِّين، ولرفاهية الأفراد الجُدد على الثقافة الأمريكية.

لقد قالت الطفلة جين آدمز لأبيها إنها «ستَملِك بيتًا كبيرًا، وسط البيوت الصغيرة الحقيرة الفظيعة».

وقد برَّت بوعدها، بل وبأكثر مما وعدت.

الفصل السابع عشر

ماري كوري

للبولنديات أثرٌ في تاريخ الطب في بقاعٍ شتَّى من العالم. وقد جاءت ماري زاكر سيفسكا عن طريق برلين إلى الولايات المتحدة لتترك بصمتها على الطب. وقبل ذلك بمائة سنة تعلَّمت وتدرَّبت سالومي آن روسيتسكا (أو روسيكا) لتكون مُساعِدة لزوجها، وهو رمدي ألماني اسمه هالبير، وتفوَّقت عليه كثيرًا، بحيث صارت أخصائية في جِراحة الكتاراكت في مدينة القسطنطينية، مُعتمدةً على كفاءتها وحدها، ودرست ميلاني ليبنسكا الطب في جامعة باريس في التسعينيات من القرن التاسع عشر، وصارت مؤرخة للطب. وكان هناك كثيراتٌ غيرهن، ولكنَّ أبهى جوهرة في تاجهن جميعًا هي مُعاصِرة ليبنسكا في جامعة باريس، واسمها ماري سكولودوفسكا، التي اشتهرت باسم ماري كوري (١٨٦٧–١٩٣٤م) التي وسَّع اكتشافها للراديوم دائرة علاج السرطان.

وقد وُلِدت ماريا في وارسو، وهي الصغرى بين خمسة أطفال أنجبهم فلاديسلاف سكولودوفسكي، أستاذ الفيزياء ومُفتش مُساعِد في مدرسةٍ عامة، وولداها كلاهما ينحدران من الطبقة الصغرى من النُّبلاء التي قوَّضت ثروتها ومكانتها نكبات بولندا؛ فقَبْل ذلك بقرن من الزمان اقتسمَتها بروسيا والنمسا والروسيا. وفي ١٨٣١ و١٨٦٣م كانت هناك محاولاتٌ عقيمة في بولندا الروسية، التي تضمُّ وارسو، للتخلص من النير الأجنبي، ولكن المجارف والفُئوس والهِراوات خسِرَت المعركة أمام بنادق القيصر، ولكن بولندا رفضت أن تموت، وأصبح ما لم يكن إحرازه بالقتال يتطلب وسائل أكثر خفاءً. وهكذا تخلَّى الفلَّاحون المُتمرِّدون عن دورهم للمُعلمين والشعراء والقساوسة، فكانوا في الظاهر يَنْحنون للقيصر وأوامره كي يعملوا — سرًّا — على التأثير في شباب بولندا ويُرشِدوهم ويُعلِّموهم. وكان مطلوبًا من مُعلِّمي المدارس أن يدرسوا باللغة الروسية، وفي مدرسة الآنسة سيكورسكا الخاصة — حيث انتظمت ماريا — كان تاريخ بولندا يُدرَّس باللغة البولندية خلسةً على

يد مُدرِّسين يَقِظين لرنَّات الجرس التي تُنبِّههم لاقتراب مُفتش روسي. وفي فترة الدراسة كلها لم ترَ أسرة ماريا شيئًا تقريبًا سوى المأساة؛ فقد فُصِل أبوها من وظيفته الثانوية — كمُفتش مُساعد — على يد رئيسه الذي «تروَّس»، فحرمه ذلك من المسكن المجاني الذي استمتع به مع أسرته، وصار راتبه كمُدرِّس لا يكفي. وبعد تنقلاتٍ عديدة بين المساكن استقرَّت الأسرة في مسكنٍ رحب بما يكفي لقبول نُزلاء بالأجر. وكان أيضًا يُعطي دروسًا خاصة ليَعُول أسرته. وفي يناير ١٨٧٦م مرِضَت أختان أكبر من ماريا بالتيفود وماتت كُبراهما، فكان هذا أول لقاء لماريا مع الموت. وفي ٩ من مايو سنة ١٨٧٨م ماتت أمها بالسُّل، الذي كانت قد أُصيبت به بعد وقتٍ قليل من وضعها لماريا.

وعاشت الأسرة بعد هذه الصدمات المُتكررة، وفي ١٨٨٢م صارت ماريا من ألمع الطلبة في الجمنازيوم (المدرسة الثانوية) الحكومي. وكانت المدرسة تُدار على حسب الروح الروسي — أو «المُتروِّس» — لذلك العهد، وكانت مختلفة جدًّا عن مدرسة الآنسة سيكورسكا التي كانت ديرًا بولنديًّا خالصًا للفتَيات، ولكن كان لا بد من هذا التحويل؛ فالمدارس القيصرية وحدها هي التي تُعطي الشهادات الرسمية المُعترَف بها. وتخرَّجت ماريا في ١٢ يونيو ١٨٨٣م، وحصلت على ميداليةٍ ذهبية كانت مَبعث فخر لها.

الدراسة في باريس

كانت جامعة وارسو مُغلَقة أمام النساء، وحلُمَت ماريا بالذَّهاب إلى فرنسا حيث «الحرية عزيزة على الناس، وكل المشاعر والمعتقدات محترمة، ويُرحِّبون بالتُّعساء والمُطارَدين، لا يعنيهم من أين جاءوا.»[1] ولكن ذلك لم يتسنَّ لها إلا في أواخر سنة ١٨٩١م، بعد سنواتٍ عديدة عسيرة من الخدمة كمُربِّية في الأقاليم، حين أصبحت ماريا تشعر بأنها حُرَّة في الذهاب لتنضمَّ إلى أختها برونيا التي كانت فعلًا في باريس تدرس الطب. وكانت الأخت قد تزوَّجت كازيمير دولوسكي الذي تخرَّج أخيرًا طبيبًا، وهو يَكبرها بعشر سنين. وفي ٣ من نوفمبر سنة ١٨٩١م شرعت ماري سكولودوفسكا (كما عدَّلَت اسمها) في الاستماع إلى دروس كلية العلوم في السوربون، ولم يمضِ أمدٌ طويل حتى كان زوج شقيقتها يكتب إلى أبيها في بولندا: «الآنسة ماري تعمل بجد، وتقضي كل وقتها تقريبًا في السوربون، ولا نتقابل إلا على وجبة المساء. وهي شابَّةٌ مُستقلَّة جدًّا، ورغم حق الوصاية الذي بموجبه جعلتموها تحت حمايتي، فهي لا تُظهِر لي أي احترام أو طاعة فحسب، بل ولا تهتمُّ أيضًا بسُلطتي وجدِّيتي على الإطلاق. وإني لآمُل أن أردَّها إلى سبيل الرشد، ولكن وسائلي

التربوية لم تُثبِت حتى الآن فاعليتها. ورغم هذا كله يفهم كلٌّ منا الآخر ونعيش في أتم وفاق.[2] وكانت ماري أشدَّ خجلًا من أن تَنشُد أصدقاء بين الفرنسيين، فكانت تألَف الطلاب البولنديين الفقراء مِثلها، الذين أنشَئوا بولندا حرةً صغيرة في الحي اللاتيني الذي انتقلت إليه ماري بعد قليل لتكون بقرب الجامعة والمعامل والمكتبات. والواقع أن ماري وهي في سكنها الصغير الكائن في الأدوار العُلوية، كثيرًا ما أجاعت نفسها إلى حد الاغماء. ولم يكُن ذلك بسبب الفقر تمامًا، بل لأنها لم تكُن مُدبِّرة بيت ماهرة، ولا تعرف حتى كيف تصنع الحساء كما يقول البعض، ولكن افتقارها إلى الشهيَّة للطعام كانت تُقابلها شراهتها إلى العمل. وقد تصدَّت لدراساتٍ شاقَّةٍ باهظة العبء في الرياضة والفيزياء والكيمياء، وهي مُحبَّة للكمال، بإرادة من حديد؛ لذلك قرَّرَت ألا تحصل على درجة ماجستير واحدة، بل على اثنتَين. ومما لا يكاد يُصدِّقه العقل أنها نجحت وجاءت الأولى في امتحان ماجستير الفيزياء سنة ١٨٩٣م، والثانية في ماجستير الرياضة سنة ١٨٩٤م.

بيير كوري

وفي بداية سنة ١٨٩٤م، كلَّفَت جمعية تشجيع الصناعة الوطنية ماري لتقوم بدراسة للخواصِّ المِغناطيسية لأنواعٍ شتَّى من الفولاذ. وسرعانَ ما اكتظَّ المعمل الذي تستخدمه، فلم يتَّسع للأدوات الكثيرة الضرورية لتحليل مجموعة عيِّنات المعادن. وكان جوزيف كوفالسكي أستاذ الفيزياء في جامعة فريبورج — والذي كانت زوجته الشابَّة قد لقِيَت ماري أيام كانت تعمل مُربِّية — يزور باريس؛ فلما سمِع الأستاذ كوفالسكي بمشكلة ماري دعاها أن تأتيَ لتناوُل الشاي بعد العشاء في المساء التالي، لتُقابِل شابًّا مُتفوقًا من العلماء كان قد لقِيَه في مدرسة الفيزياء والكيمياء، وقد تكون لديه حجرةٌ مُتاحة لها هناك. وها هي الكلمات التي وصفت بها ماري أول لقاء لها مع بيير كوري (١٨٥٩–١٩٠٦م):

> «لما دخلت كان بيير كوري واقفًا في تجويف النافذة قُرْب باب يؤدي للشُّرفة، وبدا لي صغير السن جدًّا، مع أنه يَبلُغ ٣٥ سنة. وقد استرعَتني نظرته الصافية وما فيها من تعبير، وما في قامته السامقة من بعض مظاهر عدم العناية. وقد أوحت لي الثقة به في الحال كلماته البطيئة المُتروِّية، وبساطته وابتسامته الوقور والشابَّة في نفس الوقت. وبدأت بيننا محادثاتٌ صارت ودية، موضوعها بعض مسائل العلم التي أسعدني أن أسأله رأيه فيها.»[3]

وكان بيير كوري من مواليد باريس، وهو ابن الدكتور أوجين كوري، الذي هو أيضًا ابن طبيب. وفي ١٨٩٤م كان بيير محترمًا من زملائه الأجانب، باعتباره عبقريةً علمية وإن لم يكن معروفًا جدًّا في فرنسا؛ ففي أغسطس سنة ١٨٩٣م مثلًا رحل عالمٌ إنجليزي مجيد، هو اللورد كلفين، إلى باريس وهو في التاسعة والستين ليسمع كوري يقرأ تقريره إلى الجمعية الفيزيائية، واجتهد في لقاء الفيزيائي الشاب، وعندما عاد إلى وطنه كتب إلى بيير:

«أشكرك أجزل الشكر لأنك تجشَّمتَ عناء الحصول لي على جهازٍ أستطيع به بكل راحة أن أُلاحظ الاكتشاف التجريبيَّ البديع للكوارتز الكهرومغناطيسي؛ ذلك الجهاز الذي صنعته أنت وأخوك. وقد كتبت مذكرة إلى المجلة الفلسفية أُوضِّح فيها أن عملك سبق عملي، وينبغي أن تصل هذه المذكرة في وقتٍ مُناسب لظهورها في عدد أكتوبر، وإن لم يتم ذلك فستظهر حتمًا في عدد نوفمبر.»[4]

وكان بيير قد حصل على درجة البكالوريوس في العلوم في سن السادسة عشرة، وعلى الماجستير في سن الثامنة عشرة، وعُيِّن مُساعِد معمل في كلية الطب في التاسعة عشرة، وعمل مع شقيقه جاك الذي كان أيضًا مُساعِد معمل. وجهازهما الخاص بالكوارتز الكهرومغناطيسي الذي أشار إليه اللورد كلفين مُصمَّم كي يسمح بقياس الكَمِّيات الصغيرة من الكهرباء قياسًا دقيقًا. وفي ١٨٨٣م افترق الشقيقان للأسف، فصار جاك أستاذًا في مونبيليه، وأصبح بيير رئيس معمل في مدرسة الفيزياء والكيمياء بمدينة باريس، ومضى بيير يقوم باكتشافاتٍ هامَّة في فيزياء البلورات والمغناطيسية.

الزواج

في اللقاء الذي رتَّبه آل كوفالسكي شعرَ بيير بفضولٍ عميق نحو الفتاة الأجنبية التي كان كلامها قليلًا جدًّا، ومع ذلك سألها إن كان يستطيع أن يزورها، وقبل عودة ماري إلى بولندا لقضاء الصيف عرض عليها الزواج. ورفضت ماري؛ فهي بولندية بالمولد، ومُناضِلةٌ سياسية بالتربية والنشأة، وهجرُ الوطن والأسرة لتتزوَّج فرنسيًّا ضربٌ من الخيانة. وأبى العالِم الشابُّ أن تُثبِّط عزيمته بهذا الرفض أو برحيلها، وظلَّ يرشقها بالخطابات طول الصيف. ولما عادت إلى باريس في أكتوبر جدَّد حملته شخصيًّا، ومرَّت عشرة شهور أخرى قبل أن تقبل فكرة الزواج. وأعلنت ماري أن الزواج الذي سيتمُّ في

١٦ يوليو سنة ١٨٩٥م سيكون «مختلفًا عن كل الزيجيات الأخرى ... فلا ثوب أبيض ولا دبلة ذهبية ولا إفطار عرس، ولن يكون هناك حفلٌ ديني؛ فبيير حر الفكر وماري كفَّت منذ زمن طويل عن ممارسة شعائر الدين. ولا ضرورة للمُحامين؛ لأن الزوجَين لا يَملِكان من عرَض الدنيا شيئًا، اللهم إلا درَّاجتَين لامعتَين اشترياهما في اليوم السابق بنقودٍ أرسلها ابن عم لتكون هدية الزواج، وعلى هاتَين الدرَّاجتَين سيذهبان للتجول في أرجاء الريف في الصيف القادم.»[5] وفي يوم ١٢ سبتمبر ١٨٩٧م وضعت ماري «إيرين» التي ستحصل هي وزوجها فريدريك جوليو على جائزة نوبل في الكيمياء سنة ١٩٣٥م. ولم يخطر ببال ماري قطُّ أن تختار بين حياة الأسرة وحياة العلم؛ فالحب والأمومة والعلم يجب أن تعمل مُتعاونةً في حياتها، وليس هناك طريقٌ آخر. وبعد ثلاثة أشهُر من ولادة إيرين كانت مدام كوري قد أتمَّت بحثها المكتوب عن المغناطيسية لصحيفة جمعية تشجيع الصناعة الوطنية.

اكتشاف الراديوم

وكان هدف ماري التالي هو الحصول على درجة الدكتوراه، وكانت مُصمِّمة عند اختيار موضوع رسالتها أن يتضمَّن بحثًا فيه أصالة ونظرةٌ مستقبلية. وكان آل كوري كلاهما مفتونَين باكتشافٍ حديث على يد الفيزيائي أنطوان هنري بيكريل (١٨٥٢–١٩٠٨م)؛ فعلى أثر اكتشاف رنتجن للأشعة السينية في سنة ١٨٩٥م اقترح جول هنري بوانكاريه (١٨٥٤–١٩١٢م) الرياضي الشهير أن يتم تحديدُ ما إذا كانت الأشعة تنبعث من أجسامٍ مُشعَّة بفعل الضوء. وأوحى هذا الاقتراح إلى بيكريل أن يفحص أملاح اليورانيوم، ولم يجد ما كان يتوقعه، واكتشف بدلًا منه أن أملاح اليورانيوم غير المُعرَّضة للضوء تُرسِل تلقائيًّا أشعةً ذات طبيعة غير معلومة؛ فمركب من اليورانيوم ظل محفوظًا في الظلام عدة أشهُر أحدث أثرًا في لوح للتصوير الفوتوغرافي كان معزولًا عنه بصحيفة من الورق الأسود؛ فتحديد طبيعة هذا الإشعاع تُتيح الفرصة للبحث في مجالٍ بكرٍ جدير برسالة دكتوراه. وكانت المشكلة الأساسية هي إيجاد مكان تعمل فيه ماري، وكان أفضل ما استطاعه بيير أن يُخصِّص لذلك استوديو مُسوَّرًا بالزجاج في الطابق الأرضي من مدرسة الفيزياء والكيمياء، وكان هذا المكان مَخزنًا للأخشاب والآلات غير المستخدَمة، وليست هناك أدوات للعمل، ولم تكن التركيبات الكهربائية كافية، والحجرة رطبة وغير مُلائمة إطلاقًا للبحث العلمي، والأدوات الدقيقة لا تُلائمها الرطوبة والتغيرات في درجة الحرارة، ومع

ذلك ففي ٦ من فبراير ١٩٨٩م اضطُرَّت ماري أن تُثبِت درجة الحرارة فوق ٤٣ درجة فهرنهايت مباشرة. ولم تتقاعس ماري، وقرَّرت المُضيَّ قُدمًا لإنجاح البحث، واستخدمت أدواتٍ ابتكرها بيير وجاك كوري في العهد السابق حين كانا يعملان معًا، وأثبتت أن شدة الإشعاع تتناسب طرديًّا مع كمية اليورانيوم في العينة موضوع الاختبار، وفي الوقت نفسه أكَّدَت أن الإشعاع لا يتأثر بالتكوين الكيميائي للعينة التي تحتوي على اليورانيوم، ولا بالعوامل الخارجية من قبيل الضوء أو الحرارة، ووجدت أن الأشعة ذات خاصية مُنفردة خارقة للمعتاد.

وكانت المسألة التالية لذلك هي معرفةَ ما إذا كان اليورانيوم هو الجسم الوحيد الذي يمكن أن يرسل مثل هذا الإشعاع. وقرَّرت ماري أن تفحص كل العناصر الكيميائية المعروفة، وأثبتت أن الثوريوم أيضًا يرسل أشعةً تلقائية، وهي عمليةٌ سمَّتها «النشاط الإشعاعي»، وأطلقت اسم «عناصر مُشعَّة» على المواد الكيميائية ذات النشاط الإشعاعي. ولما مضت ماري تقيس إشعاعية اليورانيوم والثوريوم وجدتها أقوى بكثيرٍ مما كان مُتوقَّعًا من كمية اليورانيوم والثوريوم في العينات المفحوصة، وقادها ذلك إلى القول بأن العينات لا بد أن تكون مُحتوية أيضًا على كميةٍ صغيرة من مادةٍ أقوى إشعاعًا بكثير من اليورانيوم والثوريوم. وبما أنها سبق أن فحصت كل العناصر الكيماوية المعروفة، فهي إذَن تُواجه عنصرًا جديدًا، وعليها أن تعزل هذا العنصر، وعندئذٍ لجأت ماري إلى زوجها، وانعقد بينهما ذلك التحالف في العمل الذي سوف يستمرُّ بدون تمييز فيمن يفعل أو فيمن يُقرر حتى وفاة بيير بعد ذلك بثماني سنوات، وها هما الآن ذِهْنان وأربع أيدٍ تبحث عن العنصر المجهول. وفي ١٨ من يوليو سنة ١٨٩٨م رفع آل كوري إلى أكاديمية العلوم التقرير التالي:

> «بعض المادة المُعيَّنة المُحتوية على اليورانيوم والثوريوم (البتشبلند والشالكوليت واليورانيت) نشِطة جدًّا من وجهة نظر بثها لأشعة بيكريل. وفي رسالةٍ سابقة بيَّن أحدنا أن نشاطها كان أكبر من نشاط اليورانيوم والثوريوم، وقرَّر أنه يرى أن هذه النتيجة راجعة لوجود مادة أخرى نشطة جدًّا بكميةٍ صغيرة ... هذه المعادن ... وكلانا يعتقد أن المادة التي استخرجناها من البتشبلند تحتوي مَعدِنًا لم يُلاحظه أحدٌ بعد، وينتمي إلى البزموت بخصائصه التحليلية؛ فإذا تأكَّد وجود هذا المعدن الجديد فإننا نقترح إطلاق اسم «بولونيوم» عليه؛ نسبةً إلى الوطن الأصلي لأحدنا.»[6]

وفي رسالةٍ تالية إلى الأكاديمية في ٢٦ ديسمبر، أعلنا وجود عنصر كيماوي آخر جديد في البتشبلند:

«إن الأسباب المختلفة التي عددناها آنفًا تقودنا للاعتقاد بأن المادة المُشعَّة تحتوي على عنصرٍ جديد نقترح إطلاق اسم الراديوم عليه، وهذه المادة الجديدة ذات النشاط الإشعاعي تحتوي على نسبةٍ كبيرة من الباريوم، ومع هذا فإن نشاطها الإشعاعيَّ جسيم؛ فلا بد إذَن أن النشاط الإشعاعيَّ للراديوم نشاطٌ هائل.»[7]

عزل الراديوم

ويوجد اليوم اتجاهٌ آخذ في النمو لتَقبُّل الافتراضات العلمية إلى أن يثبت خطؤها. ومنذ ثلاثة أرباع القرن كان الحذر هو السائد؛ فحتى زملاء آل كوبري قابلوا اكتشافهما بالتشكك؛ فمفهوم الإشعاع التلقائي المُنبعث عن أجسامٍ ذات نشاط إشعاعي، يُناقض بشدةٍ المفهومات المستقرة عن تكوين المادة، ويُزعزع النظريات التي ظلَّت معدودة لسنواتٍ طويلة نظرياتٍ أساسية؛ فالكيميائيون نشَئوا على الاعتقاد بالمواد التي يرَونها ويلمسونها ويَزِنونها ويفحصونها، ويُواجهونها بالأحماض، ويضعونها في قوارير، ولها أوزانٌ ذرية؛ ولذا كانوا أقل استعدادًا للاقتناع من الفيزيائيين. وعدم وجود وزن ذرِّي للراديوم كان الأساس الأول لرفض الكيميائيين إياه، أما الفيزيائيون فكانوا شديدي الاهتمام بعمل آل كوري، وتطلَّعوا إلى تقدمٍ حاسم من جانبهما.

وكان هدف آل كوري عزل اليورانيوم والبولونيوم نقيَّين. وأظهرت العينات ذات النشاط الإشعاعي العالي التي استخدماها حتى ذلك التاريخ آثارًا لا تكاد تبين للمَعدنَين اللذين يبحثان عنهما؛ فالحاجة ماسَّة إلى كَمِّياتٍ ضخمة من المعدن الخام، ولكن البتشبلند ركازٌ غالي الثمن، وشراء أطنان منه يتجاوز طاقة آل كوري المالية. ومن جهةٍ أخرى كانا يعلمان جيدًا أن الجامعة بباريس، أو الحكومة الفرنسية، سترفض أي التماس لاعتماد شراء البتشبلند. وكان البتشبلند مطلوبًا أولًا لما فيه من أملاح اليورانيوم التي تُستخدم في صناعة الزجاج. وخطرَ لآل كوري أنَّ النُّفاية بعد استخلاص اليورانيوم لا بد أن تكون زهيدة القيمة في نظر صانع الزجاج، ولكن هذه النفاية تحتوي حتمًا البولونيوم والراديوم الموجودَين أصلًا في البتشبلند. وكان استخراج الأملاح يجري في مناجم سانت

يوافيمستال في بوهيميا، فطلب آل كوري من زميلٍ نمسوي أن يُرتِّب لهما شراء نفايات تلك العملية ونقلها إلى باريس، وإذا بطُنٍّ من البتشبلند يأتي إليهما في باريس هديةً من الحكومة النمسوية، وكل ما عليهما أن يؤديَاه هو أجر النقل، وقيل لهما إن كمياتٍ أخرى ستصل إليهما بتكاليفٍ اسمية، ومع شحن أول دفعة من البتشبلند أخذ آل كوري يُنقِّبان في البنايات الكثيرة المُلحَقة بالسوربون عن ورشةٍ مناسبة، ولكن بدون جدوى، فاضطُرَّا للعودة إلى حجرة المخزن الصغيرة في مدرسة الفيزياء والكيمياء وإلى عريشةٍ مهجورةٍ قبالتها عبر الفِناء. وكانت فتحة الضوء في سقف العريشة ترشح ماءً، والأرض بدون تبليط؛ فما من عاملٍ كان يرضى بالعمل فيها، ولكن آل كوري رضِيا بها شاكرَين.

وكتبت ماري عن هذه الفترة من حياتهما: «ولم يكن لدينا مال ولا معمل، لا مُعِين في تلك المَهمَّة الهامَّة الشاقَّة، فكان ذلك أشبه بخلق شيء من لا شيء. ولئن وصف كازمير دلوسكي ذات مرةٍ سنوات دراستي بأنها «سنوات بطولة أخت زوجتي»، فلي أن أقول بغير مبالغة إن تلك الفترة كانت، بالنسبة لزوجي ولي، الفترة البطولية في حياتنا المشتركة. ومع ذلك ففي تلك العريشة الحقيرة أمضَينا أفضل وأسعد أعوام حياتنا التي كانت مُخصَّصة للعمل. لقد كنت أحيانًا أُمضي النهار بطوله أُقلِّب كتلة في حالة غليان، بقضيب من حديدٍ يكاد يبلغ مثل طولي، وفي المساء كنت أشعر أن التعب قد حطَّمني.»[8]

وفي أول سنة من السنوات الأربع (١٨٩٨–١٩٠٢م) التي عمل فيها آل كوري في العريشة، ركَّزا جهودهما على فصل الراديوم والبولونيوم. وبعد فترةٍ قسَّما جهودهما، فركَّزت ماري على الوسائل الكيماوية للحصول على أملاح الراديوم النقي، وركَّز بيير على خواص الراديوم، وبدا أن الراديوم لا ينوي الكشف عن نفسه للفحص البشري، وتحوَّلت أيام العمل إلى شهور ثم إلى سنوات، وظلَّ آل كوري غير مُثبَّطي العزم. «وفي تلك الفترة كنا مُستغرِقَين تمامًا في تلك المملكة الجديدة التي — بفضل اكتشاف غير مأمول — كانت تفتح أبوابها أمامنا. وبرغم الصعوبات في ظروف عملنا شعَرْنا بسعادةٍ شديدة. وكنا نقضي أيامنا في المعمل، وفي عريشتنا الفقيرة ساد هدوءٌ عظيم. وكنا أحيانًا ونحن نرقب عمليةً ما نتمشى جيئةً وذهابًا، ونتحدث عن عملنا في الحاضر والمستقبل. وإذا شعرنا بالبرد، كان فنجان من الشاي نشربه قُرْب المَوقد يُريحنا؛ إذ كنا نعيش في عملنا الفريد وكأننا في حلم.» وذات يوم سألت ماري بيير كيف يظنُّ أن الراديوم سيبدو، فأجابها: «لا أدري.» ثم أردف: «أتمنَّى أن يكون ذا لون جميل جدًّا.»[9]

وببطءٍ حصل آل كوري على الاعتراف بهما، فنشرا بحوثًا عن اكتشاف النشاط الإشعاعي الحادث نتيجةَ وجود الراديوم، وعن آثار النشاط الإشعاعي، وعن الشحنة الكهربائية التي تحملها الأشعة، وأثار «تقريرٌ عامٌّ عن المواد ذات النشاط الإشعاعي» كتباه سنة ١٩٠٠م لمؤتمر الفيزياء اهتمامًا عظيمًا بين علوم أوروبا، ولكن كان لا بد لهما من عونٍ إذا كان لهما أن يُحرِزا أي تقدم. وفي سنة ١٨٩٨م قدَّم أحد رؤساء المعامل في المدرسة — وهو ج. بيمون — مساعدةً عابرة. وقُرْب سنة ١٩٠٠م انضمَّ إليهما كيماوي شابٌّ هو أندري دبيرن الذي بحث عن عنصرٍ إشعاعي جديد كان المظنون أنه موجود في مجموعة من الحديد والصلصال النادر، واكتشف الأكتينيوم.

وحوالَي ذلك الوقت اقترح بيير أن يتخلَّيا عن البحث عن الراديوم النقي، ويُركِّزا على النشاط الإشعاعي، ويبدو أنه بدأ يتعب من هذا النضال الذي لا نهاية له، ولكنه لم يحسب حساب ماري؛ فقد صمَّمَت على عزل الراديوم، ولا بد لها أن تعزله. وأخيرًا في سنة ١٩٠٢م، وبعد ٤٥ شهرًا من إعلانهما احتمال وجود الراديوم، نجحت ماري في تحضير عُشْر جرام (١,٥ حبة تقريبًا) من الراديوم النقي في صورة أحد أملاحه، وحدَّدَت وزنه الذرِّيَّ بأنه ٢٢٥.

وفي الساعة التاسعة من تلك الليلة عاد آل كوري إلى العريشة في الفِناء، وقالت ماري في الظلام: «لا تُشعل المصباح!» ثم أضافت بضحكةٍ يسيرة: «أتَذكُر ذلك اليوم الذي قلتَ لي فيه: «أتمنى أن يكون للراديوم لونٌ جميل جدًّا»؟» وإذا بالواقع يقدم لهما ما هو أكثر من «لون جميل». لقد كان الراديوم مُضيئًا بذاته؛ «ففي العريشة المُظلِمة الخالية من الدواليب كانت الجُزيئات في أوانيها الزجاجية الصغيرة موضوعة على مناضد أو رفوف مُسمَّرة في الحائط، وحوافيها الفسفورية الضاربة للزُّرقة تتلألأ معلقةً وسط الليل.»[10]

ها هو الراديوم قد وُجِد، والسؤال الآن: كيف يُستخدم؟

صباح يوم الأحد من سنة ١٩٠٢م قال كوري لزوجته: «بعد بضع سنين سيكون العالم كله بحاجة إلى الراديوم.» وكان في الواقع قد تلقَّى لتوِّه خطابًا من بعض التِّقنيين في بفالو بنيويورك يُريدون استغلال الراديوم في أمريكا، ويسألونه بعض إيضاحات ومعلومات. وأردف بيير: «أمامنا الاختيار بين أمرَين؛ ففي إمكاننا أن نصِف نتائج بحثنا بلا تحفُّظ، بما في ذلك عملية التنقية، أو أن نعتبر أنفسنا مالكي — أي «مخترعي» — الراديوم، وفي هذه الحالة سيكون من الضروري قبل نشر كيفية عملك بالضبط في معالجة البتشبلند أن نُسجل الطريقة التقنية، ونحتاط لحفظ حقوقنا بالنسبة لصنع الراديوم في

جميع أنحاء العالم.» وتردَّدَت ماري بضع ثوانٍ فقط، ثم قالت: «إن الحل الأخير مستحيل؛ لأنه يُناقض الروح العلمي.»[11] وهكذا اختار آل كوري — إلى الأبد — بين الثراء العريض والفاقة النسبية.

صعوبات ومثوبات

خلال هذه السنوات من البحث، كان كفاح آل كوري شديدًا لتدبير أمور حياتهما؛ فحتى نهاية سنة ١٨٩٩م كان بيير يُعطي دروسه — ١٢٠ ساعة في السنة — ويُشرِف على تَجارِب تلاميذه، مُقابل ٥٠٠ فرنك في السنة كان يتقاضاها منذ زواجه بماري. وقد كانت كافية لهما طالما لم يكن لديهما أطفال، وكانت ماري تقوم بأعمال المنزل، ولكن ولادة إيرين أحوجَتْهما إلى مُربِّية وإلى خادم معًا؛ مما يتطلب دخلًا يبلغ ألفَين أو ثلاثة آلاف فرنك في السنة.

وكان الحل البسيط أستاذية في السوربون مرتبها عشرة آلاف فرنك في السنة، وكان بيير — بلا مراء — يستحق مثل هذا المنصب. ولما خلا كرسي الكيمياء الفيزيائية في سنة ١٨٩٨م تقدَّم إليه، ولو أنه كان سياسيًّا أكثر منه عبقريًّا لعرَف أن فرصته ضئيلة في الظَّفر بالمنصب؛ لأنه لم يتخرج في مدرسة البوليتكنيك، ولا في النورمال في سيفر قُرْب فرساي؛ فهاتان المؤسَّستان تؤيدان دائمًا خريجيهما، بحيث يسدُّون الطريق أمام أي شخص خارجي فلا يظفر بالتعيين. وهكذا رُفِض طلبه على أساس الشك في أن اكتشافه في مدى السنوات الخمس عشرة الأخيرة ليست — في نظر بعض الأساتذة — في صميم الكيمياء الفيزيائية.

وفي سنة ١٩٠٠م حصل بيير على وظيفة مُدرِّس بمدرسة البوليتكنيك وبمرتب ٢٥٠٠ فرنك، ولكن العمل كان مُرهِقًا، ثم عرضت عليه جامعة جنيف كرسي الفيزياء بمرتب عشرة آلاف فرنك مع بدل سكن، وأكثر من هذا ستحصل ماري على منصبٍ رسمي في معمله، وأحسَّا الإغراء، وكاد الاستقبال الحارُّ الذي لقِياه عندما زارا سويسرا في شهر يوليو أن يُغرِيَهما بالقبول، ولكنهما في النهاية قرَّرا عدم قطع عملهما في الراديوم، وهو نشاطٌ لا يمكن نقله إلى جنيف بسهولة.

وفي شهر أكتوبر استبدل بيير بعمله المُرهِق في البوليتكنيك عملًا آخر أحسن منه أجرًا، في مُلحَق السوربون الخاص بالفيزياء والكيمياء والعلم الطبيعي، ونُدِبت ماري لإلقاء محاضرات في الفيزياء في مدرسة النورمال (المعلمين). أجل إنهما كانا مُثقَلَين بعملٍ

إضافي كثير، في الوقت الذي كانت تَجارِبهما تحتاج إلى كل طاقاتهما، ولكن ميزانيتهما استطاعت أخيرًا أن تتوازن. وفي سنة ١٩٠٢م أقنع بعضهم بيير، ضد رأيه الخاص، أن يتقدم لعضوية أكاديمية العلوم، ورُفِض طلبه بأغلبيةٍ كبيرة. وقيل إن ذلك بسبب أنه في طوافه التقليدي بأعضاء الأكاديمية امتدح مُنافسًا له أكثر من امتداحه نفسه، ورفض ترشيحه لوسام الليجيون دونير قائلًا: «إن ما نحتاج إليه حقًّا إنما هو معمل.» وطيلةَ هذه السنين لم يشكُ بيير إلا مرةً واحدة من الضغوط التي يُعانيان منها، وذلك عندما قال لماري: «ما أشقَّ حياتنا هذه التي اخترناها!»[12]

وفي ٢٥ من يونيو ١٩٠٣م — بعد خمس سنوات من ابتداء ماري لعمل رسالتها للدكتوراه — أعلن قضاة كلية العلوم رسميًّا «أن جامعة باريس تمنحك لقب دكتور في العلم الفيزيائي، وبمرتبةٍ عالية الشرف.» وكان كبير قضاتها الأستاذ جبرييل ليبمان الذي درست عليه في السوربون. وقد أضاف إلى ذلك قوله لها: «وبِاسم المُحلفين يا سيدتي أودُّ أن أُعرب لكِ عن أصدق تهانينا.»[13] وبعد ذلك أتت آيات التكريم سراعًا؛ ففي يونيو من تلك السنة، عندما حاضَر بيير في المعهد الملكي بلندن، جلست مدام كوري بجوار لورد كلفن، فكانت أول امرأة تحضر اجتماعًا للمعهد. وفي ديسمبر اقتسم آل كوري جائزة نوبل في الفيزياء، مع هنري بيكريل. وأتاحت السبعون ألف فرنك ذهبًا قيمة الجائزة لبيير أن يتخلى عن التدريس، ومُنِحت جائزة أوزيريس مُناصَفةً بين مدام كوري والفيزيائي ديزيريه أوجين برانلي (١٨٤٦–١٩٤٠م)؛ مما أفاء على آل كوري خمسين ألف فرنك أخرى. وفي سنة ١٩٠٤م أنشأت جامعة باريس كرسيًّا للفيزياء ليشغله بيير كوري. وجاء هذا التعيين مُتأخرًا جدًّا؛ فالأستاذية بمعملها ومُساعديها كانت الحاجة إليها أثناء سنوات الصراع والتجريب. وقد احتاجت الجامعة كي تتحرك وتعمل أن تمنح جائزة نوبل، وميدالية دافي التي حصل عليها بيير في لندن في ديسمبر سنة ١٩٠٣م؛ فإذا بالجامعة تُظهر اعترافها في فرنسا بالعمل الذي تم على أرضها، وكان صدى هذا لدى آل كوري اللذين حصلا لأول مرة في حياتهما على ما يفيض عن حاجتهما من المال هو الشعور بالمرارة. وفي محاضرةٍ أمام جمهور كبير في السوربون تعمَّد بيير أن يُشير إلى أنهما قاما ببحثهما في مدرسة الفيزياء والكيمياء بمدينة باريس، وذكر بالعِرفان أول مدير للمدرسة الذي عنَّى نفسه بالسماح لمدام كوري بالعمل هناك معه؛ فقد كان بيير حريصًا على ألا تفوز الجامعة بهذا الشرف.

الحياة والموت

وفي ٦ من ديسمبر ١٩٠٤م وُلِدت لآل كوري ابنةٌ ثانية سمينة أسمَياها إيف (حواء). وأثناء الحمل كانت ماري تعمل في المعمل كالمعتاد، مُكتفيةً بأخذ هُدنة تستريح فيها من عملها في التدريس. وكان الوقت عصيبًا، وماري مُجهَدة وكأنما أنعشَتها ولادة إيف؛ فإذا كل شيء يُثير اهتمامها مرةً أخرى؛ بيتها وعملها والأحداث التي تجري في وطنها الأصلي، حيث سيَنبري البولنديُّون لمؤازرة الروس في ثورتهم سنة ١٩٠٥م. وفي عيد الفصح من سنة ١٩٠٦م قضت أسرة كوري بضعة أيام في الريف، واستلقى بيير على العشب الأخضر بجوار ماري وراح يَرقُب مرح طفلتَيهما، وغَمغَم: «لقد كانت الحياة معك عذبة يا ماري.»[14] وفي يوم الخميس التالي، وقد عادا إلى باريس، افترق بيير وماري فذهب كلٌّ في طريقه. وكان الفراق عرضيًّا؛ فحوالَي الساعة الثالثة بعد الظهر كان بيير يسير في شارع الدوفين (ولية العهد)، وخطا وهو شاردٌ من وراء عربة عبر الشارع، وكانت العربة تحجب عربةً ضخمة قادمة من الاتجاه الآخر يجرُّها حِصانان. ولما أجفَل الحصان الأقرب إلى بيير سقط بيير على الأرض، وبمعجزة لم يدهمه الجودان، وتحاشته العجلتان الأماميتان، لكن العجلة اليسرى سحقت دماغ بيير كوري.

ماري تُواصِل الطريق

وفي يوم ١٣ من مايو ١٩٠٦م عيَّنَت كلية العلوم مدام كوري لتملأ مكان زوجها الراحل. وكانت هذه أول مرة تُعرَض فيها وظيفة في التعليم العالي الفرنسي على امرأة، وقبِلَت ماري أن تُحاوِل، مُتذكِّرةً قول بيير في أيامٍ أخرى: «مهما حدث — وحتى لو قُضِي على أحدنا أن يمضيَ كجسد بلا روح — يجب عليه أن يعمل على كل حال.»[15]

وفي منتصف الساعة الثانية من ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٦م، سارت ماري كوري إلى مقعدها في قاعة المحاضرات، وسط تصفيق يصمُّ الآذان. واستأنفت مدام كوري الدرس من حيث كان قد توقَّف زوجها بالضبط[16] قائلةً: «عندما يُفكر المرء في التقدم الذي تم في الفيزياء في السنوات العشر الأخيرة يُدهَش للتحسن الذي طرأ على أفكارنا في الكهرباء والمادة.»

وأخذت ماري تُربِّي ابنتَيها في السنوات التالية من غير أن تُقصِّر في رعاية عملها؛ فهي أستاذة وبحَّاثة وعاملة معمل. وفضلًا عن هذا استمرَّت تُلقي دروسها في سيفر. وكانت

تُلقي في السوربون أول سلسلة دروس — بل الوحيدة يومئذٍ — في العالم عن النشاط الإشعاعي. وفي سنة ١٩١٠م نشرت «رسالة في النشاط الإشعاعي» تنمُّ على الأستاذية. وفي البحث كانت مُصرَّة على عزل معدن الراديوم؛ فحتى ذلك الحين كان الراديوم النقي على شكل أملاح، وساعَدهما أندريه دبيرن مُكتشف الأكتينيوم، فنجحت في إنتاج المعدن نفسه، وهي عمليةٌ صعبة لن تتكرر إلا بعد سنواتٍ طويلة، وأخيرًا أنشأت منهجًا جوهريًّا لقياس الراديوم بقياس ما ينبعث منه من الأشعة.

وفي سنة ١٩١٠م عُرِض عليها وسام اللجيون دونير، ولكنها رفضته كما رفضه زوجها من قبل. ورُشِّحت لعضوية أكاديمية العلوم، ورفضت بصوتٍ واحد. لقد كان الموضوع الحقيقي هو انتخاب امرأة للأكاديمية. ومرةً أخرى قامت أمة أجنبية بما أبدت فيه فرنسا عدم اكتراث، فمنحت أكاديمية السويد مدام كوري جائزة نوبل في الكيمياء، وكانت هذه أول مرة تُمنَح فيها تلك الجائزة لشخصٍ واحد مرَّتَين، رجلًا كان أو امرأة.

وفي يوليو سنة ١٩١٤م افتُتح معهد الراديوم في شارع بيير كوري، وكانت الخطوة الأولى نحو هذا التكريم التذكاري قد اتخذها في سنة ١٩٠٩م «بيير بول إميل رو»، الذي اقترح بناء معمل لمدام كوري في معهد باستير الذي كان مُديرًا له. وكان هذا يقتضي أن تترك ماري السوربون؛ فلما نما هذا الخبر إلى الجامعة اقترحوا حلًّا وسطًا، وتم الاتفاق أخيرًا على أن تشترك الجامعة ومعهد باستير في بناء وتمويل المعهد، الذي يضمُّ معملًا للنشاط الإشعاعي (تُديره مدام كوري)، ويضم كذلك معملًا للأبحاث البيولوجية تُدرَّس فيه طرائق علاج كوري للسرطان.

سنوات الحرب

كانت ماري قد استأجرت فيلَّا في بريتاني لقضاء صيف عام سنة ١٩١٤م، وكانت إبرين وإيف والمُربِّية والطاهية قد استقرَرْن هناك بالفعل. وكان في ذهن ماري — التي يجب أن تبقى في باريس حتى نهاية العام الجامعي — أن تلحق بهن في ٣ من أغسطس. وفي الثاني من أغسطس دخل الألمان فرنسا بدون إعلان حرب. أتبقى ماري في باريس أم تلحق ببِنتَيها؟ وقرَّرَت أن تبقى بجوار معملها، على أمل أن تُحافظ على أجهزته الدقيقة.

والواقع أنها لم تلبث في باريس طويلًا؛ لأنها علِمَت أن هناك عملًا يُؤدى في مجالٍ متصل بمجالها مباشرة؛ ذلك أن اكتشاف الأشعة السينية قبل ١٩ سنة من ذلك الحين، جعل من الممكن رؤيةُ ما يجري داخل الجسم. وقد أنشأ القسم الطبي بالجيش آلات

للأشعة في بضعة مراكز كبرى، ولكن من الواضح في نظر ماري أن الحاجة إلى الأجهزة أكبر بكثير في مستشفيات الميدان وراء خطوط الجبهة، ولمواجهة هذا الموقف جهَّزت أول «سيارة للأشعة»، وهي عبارة عن سيارةٍ عادية بها جهاز أشعة سينية بدينامو يُدار بمحرك السيارة. وركِبَت ماري المَركبة المُحوَّلة إلى مركز أشعة، وتنقَّلت بها من مستشفًى إلى مستشفًى. ومع اشتداد أُوار الحرب زاد عدد «الكوريات الصغيرات»، كما أطلقوا عليهن. وكانت ماري قد تجاوزت الخمسين عندما انتهت الحرب في سنة ١٩١٨م. وكانت قد شهدت في حياتها الراشدة الكثير من الآلام، وناضلت بلا هوادة مرضًا في إثر مرض، ولكنها الآن وصلت إلى نوع من الطمأنينة. وكانت تُدرك أنها لن تعرف مرةً أخرى السعادة التي نعِمَت بها مع بيير، ولكنها تعلَّمَت أن تُحبَّ المناعم التافهة التي تزخر بها الحياة اليومية.

السنوات الأخيرة

وفي سنة ١٩٢١م قامت ماري كوري بزيارةٍ أشبه بمسيرة النصر إلى أمريكا، حيث حظِيَت، بين ألوان التكريم الأخرى، من يد الرئيس هاردنج، بهديةٍ عبارة عن جرام من الراديوم، وذلك يُقارب كل ما تمكَّنت من تكديسه في معملها طوال سنوات عملها، دفع ثمنه بالاكتتاب العام. وعند عودتها إلى الوطن كتبت بضع مذكرات عن مكان العالِم في المجتمع، وهو موضوع ستزداد أهميته في العقود التالية من السنين:

> «إن عددًا كبيرًا من أصدقائي يؤكدون — وليس ذلك بدون مبررات صحيحة — أنه لو أننا — بيير كوري وأنا — حافظنا على حقوقنا، لكُنَّا قد حصلنا على الموارد المالية الضرورية لإنشاء معهد للراديوم نرضى عنه من غير أن نُواجه العقبات التي كانت مُعرقِلة لكلينا، والتي لم تزَل مُعرقِلة لي، ولكني — مع هذا — ما زلت مقتنعة بأننا كنا على حق. إن الإنسانية بحاجة — يقينًا — إلى أناس عمليين يحصلون من عملهم على أقصى منفعة، ومن غير أن ينسَوا الخير العام يُؤمِّنون مصالحهم الخاصة، ولكن البشرية تحتاج أيضًا إلى حالمين يستولي على قلوبهم التقدم النزيه لمشروعٍ ما، بحيث يستحيل عليهم أن يُخصِّصوا عنايتهم لمصالحهم المادية، وبدون أدنى شك، لا يستحقُّ هؤلاء الحالمون الثروة؛ لأنهم لا يرغبون فيها. وحتى مع هذا، فعلى المجتمع الحسن التنظيم أن يَكفُل لمثل هؤلاء

العاملين الوسائل الكافية للقيام بمَهمَّتهم في حياةٍ خالية من الهموم المادية مُكرَّسة بأَسْرها للبحث.»[17]

وفي سنة ١٩٢٢م قدَّم ٣٥ من أعضاء أكاديمية الطب إلى زملائهم هذا الالتماس: «المُوقِّعون أدناه من الأعضاء، يرَون أن الأكاديمية تتشرَّف بانتخاب مدام كوري عضوًا حرًّا مُراسلًا؛ اعترافًا بالدور الذي قامت به في اكتشاف الراديوم، واكتشاف علاج جديد في الطب، وهو علاج كوري.»[18] وكانت الوثيقة ثورية؛ فهي لا تقترح فقط انتخاب امرأة للأكاديمية، بل وتريد أن يتم ذلك بدون تقديم طلب العضوية المألوف. وكان هذا بمثابة صفعة لأكاديمية العلوم التي ضنَّت بعضويتها على بيير وماري كوري كليهما.

وواصلت ماري عملها؛ فهي تُغادِر بيتها إلى المعمل كل يوم قبل التاسعة، ولا تعود إلى البيت قبل الثامنة أو منتصفها، وفي بعض الأحيان كانت تُسمَع وهي تقول: «آه! شدَّ ما أشعر بالتعب!»[19]

وفي سنة ١٩٢٠م كانت قد تلقَّت تحذيرًا من إصابتها بكتراكت في كلتا عينَيها، وأُجريت لها جِراحات لهذا السبب أربع مرات بين سنتَي ١٩٢٣ و١٩٣٠ ولم تتراجع. وفي سنة ١٩٢٧م كتبت إلى أخيها برونيا: «أحيانًا تتخلى عني شجاعتي، ويُخيَّل إليَّ أني يجب أن أتوقَّف عن العمل وأعيش في الريف وأنصرف إلى زراعة الحديقة، ولكني مشدودة بألف قيد، ولست أدري متى يتسنَّى لي أن أُرتِّب الأمور على هذا الوجه، ولست أدري أيضًا هل أستطيع — حتى ولو انصرفت لتأليف الكتب العلمية — أن أعيش بدون المعمل.»[20]

وذات يوم مُشمِس في شهر مايو سنة ١٩٣٤م كانت في المعمل تعمل بيدها في الأنابيب والأجهزة التي كانت أخلص مُعِين لها على مدى قرابة أربعين عامًا. وفي منتصف الرابعة بعد الظهر قالت: «حرارتي مرتفعة، ولا بد لي من العودة إلى البيت.» ولم يُكتَب لها أن تُغادِر فِراشها بعد ذلك. وفي يوم ٤ من يونيو تُوفِّيت «بأنيميا خبيثة سريعة مصحوبة بحُمَّى، وتوقَّف نخاع العظام عن الاستجابة. ولعل ذلك ناجمٌ عن تأثره تأثرًا ضارًّا بسبب تراكم الإشعاعات.»[21]

وهكذا ماتت ماري كوري ضحية المواد ذات النشاط الإشعاعي التي اكتشفَتها.

ختام

النساء في الطب اليوم

تُلخِّص الدكتورة روزا لي نمير، أستاذة أمراض الأطفال في جامعة نيويورك ومن أئمة الطبيبات في عصرنا الراهن، موقف الكثيرين من مُعاصريها فتقول: «ما كنت لأستطيع مُطلَقًا أن أصنع ما صنعَته النساء الرائدات في الطب، فما كنت لأُطيق ما وُجِّه إلى الدكتورة إليزابث بلاكويل — وهي أول طبيبة — وتحمَّلَته من إهانات وسخرية وزراية.»[1] ولحُسنِ الحظ ليس مطلوبًا من امرأة اليوم أن تتحمل شيئًا من هذا؛ فقد تهاوت جميع الحواجز التي تَحُول دون دخول مدرسة الطب، أو الحصول على مناصب الأطباء المُقيمين، أو الشروع في الممارسة الطبية. وأوضحت الدكتورة بيفرلي س. مورجان، الأستاذة المساعدة لطب الأطفال (فرع أمراض القلب) في جامعة واشنطن، في دراستها عن القبول في مدارس الطب عن المدة من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٦٢م، أن «النسبة المئوية للمتقدمين المقبولين تكاد تكون مُتساوية في الجنسَين».[2] وقد انتهى عهد كليات الطب النسوية الخاصة في سنة ١٩٧٠م، عندما صارت كلية الطب النسوية في جامعة بنسلفانيا «كلية طب بنسلفانيا المشتركة».

وقد تزايد — باطِّراد — عدد النساء اللواتي دخلن ميدان الطب في العقود الثلاثة الأخيرة. ومع أن نسبة النساء إلى الرجال لم تزَل مُنخفِضة نسبيًّا، إلا أنه يوجد الآن أكثر من ٢٤٠٠٠ طبيبة في أمريكا.

وفي دراسةٍ حديثة للدكتورة جوزفين إ. رنشو، وهي طبيبةٌ مُمارِسة للتوليد وأمراض النساء، وللآنسة ميريلاند إ. بنيل، من مكتب صحة القُوى العاملة، وقد شمِلَت هذه الدراسة ٣٢٥٠٠٠ طبيب في الولايات المتحدة، اتَّضح أن ٧٣٪ من جميع النساء الطبيبات العاملات

مُنتشرات في سبعة اختصاصات،[3] وتأتي على رأس القائمة أمراض الأطفال، وبها ٣٦٣٢ طبيبة. وهذا لا يكاد يُثير الدهشة، بما أن العناية بالأطفال أمرٌ طبيعي بالنسبة للمرأة. وفي الواقع أن ٢٠,٣٪ من الأخصائيين في أمراض الأطفال طبيبات. ويأتي الطب النفسي في المرتبة الثانية، وتعمل به ٢٧٨٨ طبيبة. وهذا أيضًا ليس غريبًا؛ لأن المكروبين يتَّجهون — بغريزتهم — إلى المرأة طلبًا للنصح والطمأنينة. والممارسة العامة بها ٢٤٥٤ طبيبة، وفي الطب الباطني ٢٠٦٨ طبيبة، وفي التخدير ١٤٦١ طبيبة، وفي أمراض النساء والولادة ١٢٥٥ طبيبة، وفي الباثولوجيا ١١٦٤ طبيبة.

واتَّضح أن ٧٦٠ طبيبة فقط تخصَّصْن في الجِراحة. وهذا لا يُخالف ما هو مُتوقَّع؛ فقد كان الجرَّاحون آخر المُتخصِّصين، حتى عند التفكير في قبول النساء داخل حِماهم المقدس، ولكن هذه المعارضة تتقوَّض، ويبدو أن دخول مزيد من النساء عالَم الجِراحة أمرٌ مُؤكَّد.

وإذا التفَتْنا إلى الأطباء المُشتغلين بأنشطة لا تنصبُّ على العلاج المباشر للمرضى — كالتعليم والبحث والإدارة وما إلى ذلك — وجدنا أن ١٤,٣٪ من كل الحاصلات على دكتوراه الطب والعاملات فعلًا موجودات في هذه المجالات، في حين أن ١٠,٣٪ فقط من الدكاترة الرجال يقومون بهذه المهام. وعلى هؤلاء الرجال والنساء تهبط الشهرة والدعاية في معظم الأحيان أكثر مما تهبطان على العاملين الكادحين في الميدان.

إن التقويم الصحيح لإسهام الفرد لا يستطيعه إلا التاريخ، أما محاولات الأفراد لتقدير إنجازات الأحياء فكثيرًا ما تكون مُضلِّلة، وقلَّما تكون موضوعية. ومع هذا فمن بين النساء البارزات اليوم في الطب تبدو المذكورات فيما بعدُ كمَنْ يَبرُزن من غُرفة انتظار التاريخ:

- في طب الأطفال: ماري إلين إفيري لعملها الرائد في الأمراض الرئوية. وروز لي نمير لإسهامها البارز في المنظمات التعليمية والاجتماعية. وباتريشيا سليفان لبحثها في نمو الأورام لدى الأطفال كنتيجةٍ مُمكِنة لقنبلة هيروشيما.
- في ميدان العلاج النفسي: كاثراين رايت لفتحها عيادةً من أوائل عيادات الصحة العقلية. آنا فرويد، وكارين هورني، وميلاني كلاين، لتَقدُّمهن الكبير في العناية النفسية بالأطفال.
- كارول بيرتش عالمة أبحاث الدم التي دُعِيت إلى إسبانيا لتُعالِج أعضاء الأسرة المالكة، ولإسهامها في طب المناطق الحارَّة في الهند وفي أفريقيا. وهيلين جونسون لبحثها الهامِّ في أمراض الدم.

- فرجينيا أيجار، وميدانها الأساسي هو التخدير؛ لابتكارها طريقة لتقدير الوظائف الحيوية لطفل حديث الولادة بعد مرور ستين ثانية فقط على مولده.
- إليزابث إ. ماكجرو لبحثها في السرطان الذي يتضمَّن ابتكارها مع جورج ن. بابا نيكولاو ما يُعرَف بِاسم «لطخة باب». وهو اختبارٌ مهبلي للكشف عن السرطان النسائي.
- إديث بوتر الرائدة العالمية في باثولوجيا الأطفال، ولا سيما لعملها الفريد عن المشكلات السابقة للولادة.
- ليونا باومجارتنر؛ لإسهاماتها التي لا تُقدَّر بثمن في الصحة العامة بإدارة الصحة بمدينة نيويورك ووكالة التنمية الدولية.
- فرانسيس أولدهام كيلسي، من إدارة الغذاء والعقاقير، التي كسبت عرفان أمريكيين لا يُحصى عددهم بسب يقظتها في التوقع المُبكِّر للجوانب الضارَّة لعقار الثاليدومايد.
- كاثراين ستيفنسن أول امرأة تحصل على عضوية تخصُّص جِراحة التجميل، وهي أيضًا مُؤلِّفة ومُحرِّرة بارزة.
- آلما ديا موراني، الجرَّاحة ذات الشهرة العالمية بفيلادلفيا لابتكارها — مع زميلها ج. جيرشون كوهن — جهاز بانورامكس. وهو جهاز للأشعة السينية ليس أكبر من ضاغط اللسان يسمح بالفحص بالأشعة السينية للمناطق العسيرة مثل عظام الوجه.
- هيلين تاوسيج؛ لعلاجها بالجِراحة العيوب الخلقية في القلب.
- أليس ماكفرسون؛ لعملها البارز في علاج الانفصال الشبكي.
- مودسلاي؛ لبحوثها في السرطان، ومن خلالها كشفت عن العلاقة بين الوراثة ومقاومة خبث الأورام.

وماذا عن مستقبل المرأة في الطب؟

في ديسمبر سنة ١٩٦٨م وضعت الدكتورة أليس تشينورث، الرئيسة المُتقاعدة لجمعية الطبيبات الأمريكيات، هذه الأسئلة في رسالتها إلى الجمعية: «هل تغيَّرت تدريجًا توقُّعات الجمعية من النساء، بحيث يتوقع الآن من النساء الموهوبات أن يتطلعن إلى حياةٍ مهنية، وفي الوقت نفسه يُواصِلن دورهن النسويَّ كزوجات وأمهات؟ إن الاعتقاد السائد الآن هو أن تحقيق الذات والإسهام الجوهريَّ في المجتمع هدفان للمرأة يستحقَّان العناء.»

وقد أجابت بنفسها عن أسئلتها، مُستندةً إلى ملاحظاتٍ كانت قد أبدَتها قبل سنتَين الدكتورة روز ماري بارك، التي كانت يومئذٍ رئيسة كلية بارنارد: «إنَّ رأيَ الدكتورة بارك مأخوذ في الاعتبار، وهو أن نساء اليوم في مُفترق الطُّرق؛ لأن أمامهن اختباراتٍ كثيرةً مفتوحة؛ فإذا قرَّرَت النساء استغلال الفرص التي يُقدِّمها لهن المجتمع، لَاستطعن أن يعِشْن حياةً متنوعة وخِصبة، تتجاوز في تنوعها وخصوبتها حياة الأجيال الأخرى. وهي تقول إن المسألة تتعلق برفع أنظار النساء إلى أكثر مما يتعلق باختراق الحواجز؛ لأنهن بهذا الاختيار إنما يتطلعن إلى المشاركة الكاملة في الأنشطة المهنية، وفي الحياة الاقتصادية.»[4]

ملاحظات

الفصل الأول: الأطباء القدامى

(1) Ludwig Edelstein, “The Hippocratic Oath Text, Translation and Interpretation”, *Supplement to the Bulletin of the History of Medicine*, I (1943), p. 3.

(2) J. Schouten, *The Rod and the Serpent of Asklepios: Symbol of Medicine* (Amsterdam: Elsevier, 1967). p. 119.

(3) Ralph H. Major, *A History of Medicine* (Springfield, III.: Charles C Thomas, 1954), I, 102.

(4) Kate Campbell Hurd-Mead, *A History of Women in Medicine* (Haddam, Conn.: The Haddam Press, 1938), p. 33.

(5) Walter Addison Jayne, *The Healing Gods of Ancient Civilizations* (New Haven: Yale University Press, 1925), p. 248.

(6) F. H. Garrison, “The Use of the Caduceus in the Insignia of the Army Medical Corps,” *Bulletin of the Medical Library Association*, IX, 2 (1919), p. 13.

(7) John T. Bunn, “Origin of the Caduceus Motif.” *Journal of the Ameri can Medical Association*, CCII, 7 (1967), pp. 163–64.

(8) Schouten, *op. cit.*, pp. 117–25.

(9) Hurd-Mead, *op. cit.*, p. 16.

(10) Christopher Marlowe, *Dr. Faustus*, lines 1312, 1314.

(11) Hurd–Mead, *op. cit.*, p. 45.

(12) *Ibid.*, pp. 71, 93.

(13) *Ibid.*, p. 93.

الفصل الثاني: النساء الممارسات في العصور الوسطى

(1) Hurd–Mead, *A History of Women in Medicine*, pp. 127–41.

(2) Cecilia C. Mettler, *History of Medicine*, ed. Fred A. Mettler (Philadelphia & Toronto: The Blakiston Company, 1947), p. 949.

(3) Quoted in Hurd–Mead, *op. cit.*, p. 143.

(4) Charles Singer, "The Scientific Views and Visions of Saint Hildegard (1098–1180)", *Studies in the History and Method of Science*, ed. Charles Singer (Oxford: The Clarendon Press, 1917). p. 53.

(5) Lauder Brunton, "Some Women in Medicine" *Canadian Medical Association Journal*, XLVIII (January 1943). P. 61.

(6) Hurd–Mead, *op. cit.*, p. 183.

(7) Cited in Mettler, *op. cit.*, p. 196.

(8) Hurd–Mead, *loc.* cit.

(9) Singer, *op. cit.*, p. 6.

(10) James J. Walsh, *Medieval Medicine* (London: Black, 1920), p. 164.

(11) Quoted in Eileen Power, "Some Women practitioners of Medicine in The Middle Ages", *Proceedings Royal Society of Medicine, History of Medi cine Section* XV, 6 (1922), p. 23.

(12) *Ibid.*, p. 21.

(13) *Ibid.*, p. 22.

(14) *Ibid.*

الفصل الثالث: علم التوليد

(1) Quoted in Hurd–Mead, *A History of Women in Medicine*, p. 55.

(2) William Goodell, *A Sketch of the Life and Writing of Louyse Bourgeois* (Philadelpia: Collins, 1876), p. 6.

(3) Irving S. Cutter and Henry R. Viets, *A short History of Midwifery* (Philadelphia: W. B. Saunders, 1964), p. 69.

(4) Goodell, *op. cit.*, p. 8.

(5) *Ibid.*, p. 9.

(6) Quoted in Cutter and Viets. *op. cit.*, p. 75.

(7) Quoted in Hurd–Mead, *op. cit.*, p. 420.

(8) Miles H. Phillips, "Percival Willughby, Gentleman. A Man–Midwife of the 17th Century", Lloyd Roberts Memorial Lecture, delivered at St. Mary's Hospitals, Manchester, November 14, 1952 (Manchester, England: pamphlet, 1953), p. 4.

(9) *Ibid.*, pp. 5, 6.

(10) Cutter and Viets, *op. cit.*, p. 46.

(11) Quoted in James. H. Aveling, *English Midwives, Their History and Prospects* (London: J. A. Churchill, 1872), pp. 63–64, from *State Trials* 32 Chalres II.

(12) *Ibid.*, p. 64.

(13) *Ibid.*, p. 76.

(14) *Ibid.*, p. 61.

(15) Cutter and Viets, *op. cit.*, p. 199.

(16) Cited in Hurd–Mead, *op. cit.*, p. 501.

(17) Quoted in Esther Pohl Lovejoy, *Women Doctors of the World* (New York: The Macmillan Company, 1957), p. 23.

(18) Hurd–Mead, *op. cit.*, pp. 428–29, 501 n.

الفصل الرابع: الدكتورة باري

(1) Alfred Swaine Taylor, *The Principles and Practice of Medical Jurispru dence* (2nd ed. Philadelphia: H. C. Lea, 1873), II, 286.

(2) Lovejoy, *Women Doctors of the World*, p. 278.

(3) George Thomas, *Fifty Years of My Life* (London: Macmillan & Company, 1876), II, 96.

(4) Brunton, "Some Women in Medicine", P. 61.

الفصل الخامس: الخطوات الأولى: دكتورة هنت، دكتورة فولجر، دكتورة كلارك

(1) Elizabeth Bass, "Pioneer Women Doctors of the South", Journal of the American Medical Women's Association, II, 12 (1947), p. 557.

(2) *Ibid.*

(3) *Ibid.*

(4) Lovejoy, *Women Doctors of the World*, p. 79.

(5) Bertha L. Selmon, "History of Women in Medicine", *Medical Woman's Journal*, LIII (March 1946), p. 41.

(6) Carol Lopate, *Women in Medicine*, (Baltimor: Johns Hopkins University Press, 1968), p. 7.

(7) Frederick Clayton Waite, *Western Reserve University Centennial History of the School of Medicine* (Cleveland: Western Reserve University Press, 1946), p. 126.

(8) *Ibid.*

الفصل السادس: إليزابث بلاكويل

(1) Ruth Fox Hume, *Great Women of Medicine* (New York: Random House, 1964), p. 2.

(2) Dr. Elizabeth Blackwell, *Pioneer Work in Opening the Medical Profession to Women* (London: Longmans, Green, & Company, 1895), pp. 65–66.

(3) John B. Blake, "Women and Medicine in Ante–bellum America", *Bulletin of the History of Medicine*, XXXIX, 2 (1965), p. 107.

(4) Lopate, *Women in Medicine*, p. 2.

(5) Blackwell, *op. cit.*, pp. 20–21.

(6) *Ibid.*, p. 27.

(7) *Ibid.*, p. 33.

(8) *Ibid.*, p. 61.

(9) Brunton, "Some Women in Medicine", p. 62.

(10) Mary St. John Fancourt, *They Dared to Be Doctors* (London: Long–mans, Green, & Company, 1965), p. 27.

(11) Quoted in Blackwell, *op. cit.*, p. 259, from Stephen Smith, "The Medical Co–education of the Sexes", *Church Union* (1892).

(12) Blackwell, *op. cit.*, p. 164.

(13) *Ibid.*, p. 176.

(14) *Ibid.*, p. 186.

(15) Hume, *op. cit.*, p. 31.

(16) Waite, *Western Reserve Centennial History of the School of Medicine*, p. 126.

(17) Lovejoy, *Women Doctors of the world*, p. 52.

(18) Blackwell, *op. cit.*, p. 210.

(19) Marie E. Zakrzewska, *A women's Quest*, ed. Agens C. Vietor (New York: D. Appleton & Company, 1924), p. 211.

(20) Blackwell, *op. cit.*, pp. 222–23.

(21) Fredrick C. Waite, "Early Medical Services Women", *Journal of the American Medical Women's Association*, III (1948), p. 201.

(22) Fancourt, op. cit., p. 126.

الفصل السابع: إليزابث جاريت أندرسون

(1) Quoted in Louisa Garrett Anderson, *Elizabeth Garrett Anderson, 1836–1917* (London: Faber & Faber, 1919), pp. 1–2.

(2) *Ibid.*, p. 41.

(3) *Ibid.*, pp. 42, 43.

(4) Hume, *Great Women of Medicine*, p. 91.

(5) Anderson, *op. cit.*, p. 44.

(6) Hume, *op. cit.*, p. 93.

(7) Anderson, op. cit., p. 50.

(8) *Ibid.*, pp. 51–52.

(9) *Ibid.*, pp. 66, 67.

(10) *Ibid.*, p. 84.

(11) Hume, *op. cit.*, p. 104.

(12) Anderson, *op. cit.*, p. 96.

(13) *Ibid.*

(14) *Ibid.*, p. 101.

(15) *Ibid.*, p. 112.

(16) *Ibid.*, p. 113.

(17) *Ibid.*, p. 118.

(18) Hume, *op. cit.*, p. 115.

(19) Kate Campbell Hurd–Mead, “Elizabeth Garrett Anderson”, *Medical World* (July, 1940), p. 407.

(20) Anderson, *op. cit.*, p. 261.

(21) *Ibid.*, p. 262.

(22) Brunton, “Some Women in Medicine”, p. 64.

الفصل الثامن: المعركة من أجل الاعتراف بمكانة الطب النسوي في الولايات المتحدة

(1) Lopate, *Women in Medicine*, p. 8.

(2) Richard Harrison Shryock, “Women in American Medicine”, *Journal of the American Medical Women’s Association*, V, 9 (1950), p. 376.

(3) *Ibid.*

(4) Brunton, “Some Women in Medicine”, p. 63.

(5) *Ibid.*

(6) Shryock, *loc*, cit.

(7) Abraham Flexner, “Medical Education in the United States and Canada”, *Bulletin of the Carnegie Foundation for the Advancement of Teaching*, No. 4 (1910), p. 12.

(8) Lopate, *op. cit.*, p. 15, Emily White, *Medical News* (Philadelphia), August 13, 1895, cited in “A Medical–Literary Causerie: The Evolution of the Medical Women”, *Practitioner*, LVI (January–June, 1896), p. 292.

(9) Lopate, *loc.* Cit., Flexner, *op. cit.*, p. 6, Bass, “Pioneer Women Doctors of the South”, p. 556.

(10) Flexner, *op. cit.*, p. 179.

(11) Shryock, *op. cit.*, p. 375.

(12) Catharine Macfarlane, “Women Physicians and the Medical Societies”, *Transactions & Studies of the College of physicians of Philadelphia* 4th ser., XXVI (1960), p. 81.

(13) Quoted in *Familiar Medcial Quotations*, ed. Maurice B. Strauss (Boston: Little Brown, 1968), p. 662, from *Transactions of the American Medical Association*, XXII, 17 (1871).

(14) Morris Fishbein, *The History of The American Medical Association* (Philadelphia: W. B. Saunders, 1947), p. 77.

(15) Quoted in Macfarlane, *op. cit.*, p. 80.

(16) *Ibid.*, pp. 81–82.

(17) *Ibid.*, p. 82.

(18) *Ibid.*

الفصل التاسع: التقدم صوب المساواة في الخارج

(1) Brunton, “Some Women in Medicine”, p. 64.

(2) “A Medico–Literary Causerie”, p. 408.

(3) Brunton, *loc. cit.*

(4) “A Medico–Literary Causerie”, p. 290.

(5) *Ibid.*, p. 288.

الفصل العاشر: ماري بوتنام جاكوبي

(1) Victor Robinson, “Mary Putnam Jacobi”, *Medical Life*, XXXV, 7 (1928), pp. 336–37, 338.

(2) Hume, *Great Women of Medicine*, p. 176, *See also* Robinson, *op. cit.*, p. 339.

(3) Robinson, *op. cit.*, pp. 343–44.

(4) *Familiar Medical Quotations*, p. 662.

(5) Robinson, *op. cit.*, p. 345.

(6) *Ibid.*, p. 346.

(7) *Ibid.*, pp. 346–47.

(8) *In Memory of Mary Putnam Jacobi* (New York: Academy of Medicine, 1907), pp. 4, 5–6, 19–20.

(9) Quoted in Robinson, *op. cit.*, pp. 353.

الفصل الحادي عشر: إميلي دننج بارنجر

(1) Emily Dunning Barringer, *Bowery to Bellevue, The Story of New York’s First Woman Ambulance Surgeon* (New York: W. W. Norton & Company, 1950), p. 25.

(2) Quoted in Iris Noble, *First Woman Ambulance Surgeon–Emily Barrniger* (New York: Julian Messner, 1962), pp. 22–23.

(3) Barringer, *op. cit.*, p. 41.

(4) *Ibid.*, p. 44.

(5) *Ibid.*, p. 53.

(6) *Ibid.*, p. 70.

(7) *Ibid.*, p. 76.

(8) *Ibid.*, p. 77.

(9) *Ibid.*

(10) *Ibid.*, p. 134.

(11) *Ibid.*, p. 146.

(12) *Ibid.*, p. 158.

(13) *Ibid.*, p. 259.

الفصل الثاني عشر: أليس هاملتون

(1) Alice Hamilton, *Exploring the Dangerous Trades: The Autobio graphy of Alice Hamilton, M. D.* (Boston: Little, Brown & Company, 1943), pp. 29–30.

(2) *Ibid.*, p. 38.

(3) *Ibid.*, p. 44.

(4) *Ibid.*, p. 69.

(5) *Ibid.*, p. 115.

(6) *Ibid.*, p. 127.

(7) *Ibid.*, pp. 245–46.

(8) Quoted in Joseph J. Elia., Jr., “Alice Hamilton–1869–1970”, *New England Journal of Medicine*, CCLXXXIII, 18 (1970), p. 994.

الفصل الثالث عشر: التمريض

(1) Minnie Goodnow, *Outlines of Nursing History* (5th ed. Philadelphia & London: W. B. Saunders Company, 1933), p. 24.

(2) Quoted in M. Adelaide Nutting and Lavinia L. Dock, *A History of Nursing*, 4 vols. (New York, London: G. P. Putman's Sons, 1907–1912), I, 32.

(3) Quoted in Goodnow, *op. cit.*, pp. 25–26.

(4) Quoted in Nutting and Dock, *op. cit.*, I, p. 44, from Edward Upham, *The Sacred Books of Ceylon.*

(5) Nutting and Dock, *op. cit.*, I, p. 101.

(6) *Ibid.*, I, pp. 296–97.

(7) Quoted in *ibid.*, I, p. 292.

(8) Hurd–Mead, *A History of Women in Medicine, p. 210n.*

(9) Quoted in Nutting and Dock, *op. cit.*, I, p. 175*n.*

(10) Hurd–Mead, *op. cit.*, p. 231.

(11) Nutting and Dock, *op. cit.*, pp. 449–502.

(12) Goodnow, *op. cit.*, pp. 57–58.

(13) *Ibid.*, p. 59.

(14) *Ibid.*, p. 63.

(15) *Ibid.*, p. 75.

الفصل الرابع عشر: فلورانس نايتنجيل

(1) Hume, *Great Women of Medicine*, p. 50.

(2) Cecil Woodham–Smith, *Florence Nightingale, 1820–1910* (New York, London, Tornto: McGraw–Hill Book Company, 1951), p. 34.

(3) *Ibid.*, p. 38.

(4) *Ibid.*, pp. 54–55.

(5) *Ibid.*, p. 61.

(6) G. E. W. Wolstenholme, "Florence Nightingale: New Lamps for Old", *Proceedings of Royal Socitey of Medicine*, LXIII (December, 1970), p. 1283.

(7) Woodham–Smith, *op. cit.*, pp. 87–88.

(8) *Ibid.*, p. 90.

(9) *Ibid.*, p. 92.

(10) *Ibid.*, pp. 95–96.

(11) Hume, *op. cit.*, pp. 64–65.

(12) Ibid., pp. 65–66.

(13) Woodham–Smith, *op. cit.*, p. 142.

(14) Hume, *op. cit.*, p. 67.

(15) *Ibid.*, p. 71.

(16) Woodham–Smith, *op. cit.*, p. 222.

(17) *Ibid.*, pp. 222, 247.

(18) Wolstnholme, *op. cit.*, p. 1284.

(19) Goodnow, *Outlines of Nursing History*, p. 108.

الفصل الخامس عشر: دوروثيا لند ديكس

(1) Helen E. Marshall, *Dorothea Dix, Forgotten Samaritan* (Chapel Hill: The University of North Carolina Press, 1937), p. 6.

(2) *Ibid.*, p. 17.

(3) *Ibid.*, p. 21.

(4) Quoted in *ibid.*, p. 62.

(5) Dorothea Lynde Dix, "Memorial to the Legislature of Massachu setts", *Old South Leaflets*, VI, No. 148 (1843), pp. 2, 6.

(6) Marshall, *op. cit.*, pp. 89–90.

(7) Dix, *op. cit.*, p. 2.

(8) Marshall, *op. cit.*, p. 93.

(9) Frankin B. Sanborn, *Memoirs of pliny Earl* (Boston: Damrell & Up–ham, 1898), p. 367.

(10) Marshall, *op. cit.*, p. 100.

(11) Quoted in *ibid.*, pp. 150–51.

(12) Quoted in *ibid.*, p. 158.

(13) Quoted in *ibid.*, p. 162.

(14) Quoted in *ibid.*, p. 181.

(15) Quoted in *ibid.*, pp. 182–83.

(16) Quoted in *ibid.*, p. 231.

(17) Quoted in Seth Curtis Beach, *Daughters of the Puritans* (Boston: American Unitarian Association, 1905), p. 161.

(18) Steward H. Holbrook, *Lost Men of History* (New York: The Macmillan Company, 1946), pp. 129, 142.

الفصل السادس عشر: جين آدمز

(1) Jane Addams, *Twenty Years at Hull–House, with Autobiographical Notes* (New York: The Macmillan Company, 1929), p. 3.

(2) *Ibid.*, p. 49.

(3) *Ibid.*, p. 65.

(4) *Ibid.*, pp. 66, 68–69.

(5) *Ibid.*, p. 85.

(6) *Ibid.*, pp. 125–27.

(7) *Ibid.*, p. 90.

(8) *Ibid.*, p. 94.

(9) *Ibid.*, pp. 125, 127.

(10) *Ibid.*, p. 112.

(11) *Ibid.*, p. 298.

الفصل السابع عشر: ماري كوري

(1) Eve Curie, *Madame Curie*, translated by Vincent Sheean (New York: Doubleday, Doran, & Company, 1937), p. 70.

(2) *Ibid.*, p. 98.

(3) Quoted in *ibid.*, pp. 120–21.

(4) Quoted in *ibid.*, p. 125.

(5) *Ibid.*, p. 137.

(6) Quoted in *ibid.*, pp. 160–61.

(7) Quoted in *ibid.*, p. 164.

(8) Quoted in *ibid.*, p. 169.

(9) Quoted in *ibid.*, pp. 170–71.

(10) *Ibid.*, pp. 176–77.

(11) *Ibid.*, pp. 203–204.

(12) *Ibid.*, p. 191.

(13) *Ibid.*, p. 202.

(14) *Ibid.*, p. 242.

(15) *Ibid.*, p. 254.

(16) *Ibid.*, p. 259.

(17) *Ibid.*, p. 336.

(18) *Ibid.*, p. 345.

(19) *Ibid.*, p. 355.

(20) Quoted in *ibid.*, p. 373.

(21) *Ibid.*, pp. 379, 384.

ختام

(1) Bird, Caroline, with Sarah Welles Beriller, *Born Female: The High Cost of Keeping Women Down*, (New York: David Mckay Company, 1968), p. 109.

(2) Beverly C. Morgan, “Admission of Women into Medical Schools in the United States: Current Status”, *The Woman Physician*, XXVI, 6 (1971), p. 305.

(3) Josephine E. Renshaw and Maryland Y. Pennell, “Distribution of Women Physicians, 1969”, *The Woman Physician*, XXVI, 4 (1971), pp. 187–91, 195.

(4) Alice D. Chenoweth, “Women in Medicine”, *Journal of the American Medical Women’s Association*, XXIII, 12 (1968), p. 1139.

هنـــداوي